

غَيْثُ السَّحَابِ الْمَطْرَةُ

تَشْرِيحُ

الْحَدِيثُ النَّصْرَةُ فِي نِظْمِ السَّيْرَةِ الْعَطْرَةُ

نِظْمُ خَامِ السَّلَفِ

أَبِي بَكْرٍ الْعَدَنِيُّ بْنُ عَلِيِّ بْنِ

أَبِي بَكْرٍ الْمَشْهُورِ

نِظْمُ

الْفَقِيرِ الرَّحْمَنِيِّ

مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَطِيَّةِ الدَّوْعَنِيِّ

براعة الاستهلال الحمديّة

فُدَوِّتِنَا الْحَقِّ فِي الدِّيَانَةِ	يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
أَفْضَلِ عَبْدٍ رَعَى الْأَمَانَةَ	يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
أَعْلَاهُ رَبِّي أَعَزَّ شَانَهُ	يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
أَزَاحَ عَنَّا ذُلَّ الْمَهَانَةِ	يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
وَأَكْبَتَ الْكُفْرَ بَلَّ أَهَانَهُ	يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
أَشَادَ مَجْدًا أَعْلَا مَكَانَهُ	يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
حَبَاهُ مَوْلَاهُ بَلَّ أَعَانَهُ	يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
سِرُّ الْمُثَانِي أُعْطِيَ بَيَانَهُ	يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
يَا فَوَزَ عَبْدٍ أَنْدَى لِسَانَهُ	يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
شُكْرًا وَذِكْرًا لِلَّهِ صَانَهُ	يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
صَلَاةُ طَهٍ تُحْيِي كَيَانَهُ	يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
وَمَنْ يُصَلِّي يَصْفُو جَنَانَهُ	يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
يَزِيدُ أَجْرًا كَذَا حَصَانَهُ	يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
فِي الْخَافِقِينَ لَهُ الْمَكَانَةَ	يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
وَصَفَّ قَلْبِي وَاجَلِّ رَأْنَهُ	يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
وَاهْزِمِ إِيَّاهِي أَهْلَ الْخِيَانَةِ	يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
وَاجْعَلْ صِلَاتِي عَدَا ضَمَانَةَ	يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
يَا رَبِّ صَلِّ عَلَيْهِ وَسَلِّمْ	يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ

شرف النعمة

مِنَّهُ اللهُ عَلَيْنَا أَبَدًا
خَصَّنَا الْمَوْلَى بِفَضْلٍ دَائِمٍ
شَرَفُ النِّعْمَةِ شُكْرًا لِلَّذِي
مُسْتَحَقُّ الْحَمْدِ مِنْ إِفْضَالِهِ
أَيُّهَا الرَّاجِي نُوبَأً دَائِمًا
وَاجْعَلِ الْأَوْزَادَ ذِكْرًا تَالِدًا
سَيِّدُ النَّاسِ إِمَامٌ عَلَمٌ
رُتِبَهُ الْإِشْرَاقِ مِنْ أَنْوَارِهِ
كُنْ عَظِيمَ الشَّوْقِ فِي حَضْرَتِهِ
سَعِدَتْ نَفْسٌ أَحَبَّتْ أَحْمَدًا
غَايَةَ الْحُبِّ تُنَادِي أَهْلَهَا
إِنَّ حُبَّ الْمُصْطَفَى مَكْسَبُنَا
هَكَذَا الْإِسْلَامُ يَدْعُو أَهْلَهُ
تَنَجَّلِي فِيهِ آيَاتُ الرِّضَا
رَبِّ حَقِّقْ حُبَّنَا فِي الْمُصْطَفَى

يَوْمٌ مِيلَادِ النَّبِيِّ أَحْمَدًا
إِذْ هَدَانَا بِالْحَبِيبِ الْمُقْتَدَى
هَيَّأَ الْأَسْبَابَ خْتَمًا وَابْتِدَا
وَمِنَ الْإِفْضَالِ إِمْتَامُ النَّدَى
وَجَّهَ الْقَلْبَ تَنَالُ الْمَدَدَا
وَصَلَاةً وَسَلَامًا لِلْهَدَى
فَضْلُهُ فِي الْبَيْتَاتِ خُلْدًا
بَابُ فَتْحِ بِلْسَمٍ مِنْ كُلِّ دَا
تَتَحَسَّى كَأْسَ ذَوْقِ السُّعْدَا
وَتَفَانَتْ فِي أَتْبَاعِ الْمُقْتَدَى
لِيَنَالُوا مِنْ نَدَاهَا الْمَدَدَا
وَكَذَا الْأَلْ نَجْوَمُ الْإِهْتِدَا
لِيَصِغُوا الْحُبَّ عِقْدًا مُفْرَدًا
وَيَسُودُ الْأَمْنُ دَوْمًا أَبَدًا
وَاهْدِنَا لِلصَّالِحَاتِ أَبَدًا

البشارات

مِنْ قَدِيمِ الْأَزَلِ الْمَاضِي جَرَى
أَنَّ لِلْعَالَمِ طَهَهُ مُرْسَلٌ
كُلَّمَا جَاءَ نَبِيٌّ قَبْلَهُ

حُكْمُ رَبِّ الْخَلْقِ جَزِيًّا سَرْمَدًا
خَاتَمٌ لِلرُّسُلِ وَهُوَ الْمُقْتَدَى
أَخَذَ الْعَهْدَ كَمَا أُعْطِيَ الْيَدَا

يَنْصُرُ الْمُحْتَارَ لَوْ أَدْرَكَهُ
كَانَ طَهَ عِلْمًا فِي عَالَمِ الْ
بَشَرِ الْإِنْجِيلِ وَالتَّوْرَةِ مَا
هَكَذَا كَانَ عَظِيمًا أَزْلًا
يَصُمْتُ الْكُلَّ وَلَنْ تَلْقَى سَوَى
فِيئَادَى اشْفَعُ تُشَفِّعُ وَلْتَقُمْ
ذَا مَقَامِ الْحَمْدِ قَدْ نَارَلَهُ
رَبِّ حَقِّقْ حُبَّنَا فِي الْمِصْطَفَى

تَابِعًا فِي رُكْبِ طَه مُرْشِدَا
بَشَّرْتَهُ سَابِقَاتِ الْإِهْتِدَا
وَ عَظِيمًا يَوْمَ نَلْقَاهُ غَدَا
سَيِّدِ الْكَوْنَيْنِ يَدْنُو سَاجِدَا
سَائِلًا تُعْطَى الْمَقَامَ الْأَوْحِدَا
سَيِّدِ الْعَالَمِ طَه أَحْمَدَا
وَ هَدِنَا لِلصَّالِحَاتِ أَبَدَا

الاصطفاء

هَيَّا اللَّهُ فُرَيْشًا وَاصْطَفَى
مِنْ أَصُولِ زَاكِيَاتِ كُلِّهَا
لِيَجِيءَ الْمِصْطَفَى مِنْ دَوْحَةِ
حِكْمَةٍ تُعْنِي اللَّيْبَ إِنْ دَرَى
فَنَقَاءِ الْأَصْلِ شَرْطٌ لِأَزْمِ
سِرِّ رَبِّي وَهُوَ قَدْ أَوْدَعَهُ
وَلِهَذَا امْتَنَّ مَوْلَانَا بِهِ
رَبِّ حَقِّقْ حُبَّنَا فِي الْمِصْطَفَى

مِنْ قَرِيشٍ خَيْرِ فَرَعِ مُقْتَدَى
قَدْ نَمَتْ صِيدًا وَطَالَتْ سُؤْدُودَا
لَمْ يُصِْبْهَا خَلَلٌ طُولَ الْمِدَى
سِرِّ رَجْوَى الْحَقِّ فِي أَهْلِ الْهُدَى
لِنَقَاءِ الْأَمْرِ مِنْ كُلِّ اعْتِدَا
فِي أَصُولِ وَفُرُوعِ سُجَّدَا
وَدَعَانَا لِلصَّلَاةِ سَرْمَدَا
وَ هَدِنَا لِلصَّالِحَاتِ أَبَدَا

وجوب نشر السيرة العطرة

قِصَّةُ الْحَمَلِ كَذَا مِيلَادُهُ وَرَدَّتْ نَصًّا صَرِيحًا مُسْنَدًا

فِي حِكَايَاتِ تَوَالَّتِ سَنَدَا
 عَطَّرَتْ جَوَّ الزَّمَانِ الْمَفْرَدَا
 تَحْتَ سَرِّ الْحَفِظِ حَتَّى وُلِدَا
 مِنْ صَحِيحٍ وَضَعِيفٍ فُنِّدَا
 إِذْ بِهِ يَبْدُو الْمَعْنَى وَالْمُقْصِدَا
 يَتَقَصَّصِي الْأَثْمُونَ الْمَوْلِدَا
 وَانْتِقَاصِ فِي الْحَبِيبِ الْمُتَقَدِّدَا
 وَاسْمِعُوا الْعَالَمَ هَذَا الْمَشْهَدَا
 وَارْفَعُوا الْأَصْوَاتَ ذِكْرًا أَبَدَا
 غَزَتْ الْوَاقِعَ تُفْشِي كُلَّ دَا
 وَالْعَوَانِي وَتَرَانِيمَ الْعِدَا
 بِتَمَائِيلِ الْخَنَاءِ وَالرَّذَى
 وَأَصَاغُوا الْعُمَرَ نَزَقًا وَسُدَى
 قَانِتًا لِلَّهِ مَضْمُونُ الصَّدَا
 وَشَتَاتٍ وَصِرَاعٍ وَاعْتِدَا
 لِطَرِيقِ الْعَدْلِ حَتَّى نَسْعَدَا
 وَاهْدِنَا لِلصَّالِحَاتِ أَبَدَا

جَمَعَتْ سِرًّا تَبَدَّى وَاضِحًا
 حَمَلَتْ لِلْكُونِ أَجْلَى آيَةٍ
 عَلَّمْتَنَا أَنَّ طَهَ الْمُجْتَبَى
 وَرَوَى الْقُصَّاصُ مِنْهَا جُمْلَةً
 فَالصَّحِيحُ صَحَّ نَشْرًا وَاعْتِنَا
 وَخُصُوصًا فِي زَمَانٍ مُظْلِمٍ
 لَيْسَ هُمُ الْغَرُّ غَيْرَ مَطْعَنٍ
 أَيُّهَا الْأَجَابُ صَلُّوا جَهْرَةً
 شَنَّفُوا سَمْعِي بِذِكْرِ الْمِصْطَفَى
 أَخْرِسُوا أَصْوَاتَ إِبْلِيسَ الَّتِي
 رَفَعَ الشَّيْطَانُ أَصْوَاتَ الْغِنَا
 وَعَدَى الْبَاغُونَ فِي أَوْطَانِنَا
 كَمْ ضَحَايَا ذَهَبَتْ فِي عَصْرِنَا
 لَيْتَ مَنْ يَسْمَعُ مَدْحَ الْمُصْطَفَى
 قَدْ كَفَانَا مَا بِنَا مِنْ حَالَةٍ
 أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ أَنْ يَهْدِينَا
 رَبِّ حَقِّقْ حُبَّنَا فِي الْمِصْطَفَى

البروز الشريف

طَابَ حَمَلًا فِي السُّورَى وَالْمَوْلِدَا
 وَرَأَتْ بُرْهَانَ طَهَ قَدْ بَدَا

حَيِّ أُمَّاً حَمَلَتْ طَهَ الْهُدَى
 بِنْتُ وَهَبٍ شَرُفَتْ بِالْمِصْطَفَى

لَمْ تَجِدْ شَيْئاً يُعَانِي أَبَدًا
 وَعَلَّتْ قَدْرًا وَزَادَتْ مَدَدًا
 بَيْنَ كُلِّ الْأَمْهَاتِ سُؤْدُدًا
 نَوْرُهُ الْوَضَّاحُ فِي الْكُونَ بَدَا
 مِنْ نَبِيِّ الطُّهْرِ لَمَّا سَجَدَا
 جَدَّدَ الرَّجْمُنُ فِيهِ الْمِدَادَا
 سِرًّا مَا أَعْطَى الْإِلَهَ أَحْمَدَا
 يَتِمَالِكُ بَلْ تَسَامِي وَشَدَا
 يَقِفَ الْأَحْبَابُ صَفًّا وَاحِدَا
 وَاهْدِنَا لِلصَّالِحَاتِ أَبَدَا
 صَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّد

حِقْفَةٌ فِي الْحَمْلِ حَتَّى إِهْمَا
 مُدَّةَ الْحَمْلِ رَأَتْ مَا سَرَّهَا
 هِيَ أُمُّ الْمُصْطَفَى مَنْ مِثْلُهَا
 وَضَعَتْهُ قَبْلَ فَجْرِ سَاجِدَا
 مَظْهَرُ الْعِقَّةِ يَبْدُو مُبْهَرَا
 أَشْرَقَ الْعَالَمُ بِالْمِيلَادِ إِذْ
 مُعْجَزَاتُ بَهْرَتِ مُظْهِرَةً
 كُلُّ فَجٍّ فِي مَحِيطِ الْأَرْضِ لَمْ
 وَلِهَذَا سَنَّ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنْ
 رَبِّ حَقَّقْ حُبَّنَا فِي الْمُصْطَفَى
 صَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّد

صلى الله على محمد

القيام

وَسَلَامُ اللَّهِ جَهْرًا
 سَيِّدِي الْهَادِي مُحَمَّدُ
 يَا رَسُولَ سَلَامٍ عَلَيْكَ
 صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْكَ
 بِرُؤُوسِ النُّورِ فِينَا
 جَاءَنَا مِنْ خَيْرٍ مَحْتَدُ
 وَتَعَالَتْ وَتَجَلَّتْ
 يَوْمَ مِيلَادِ مُحَمَّدُ

صَلَوَاتُ اللَّهِ تَتَرَى
 يَبْلُغُ الْمُخْتَارَ فَخْرًا
 يَا نَبِيَّ سَلَامٍ عَلَيْكَ
 يَا حَبِيبَ سَلَامٍ عَلَيْكَ
 مِنَّةُ اللَّهِ عَلَيْنَا
 أَحْمَدُ الْهَادِي الْأَمِينَا
 طَلَعَةُ الْإِشْرَاقِ هَلَّتْ
 بِجَبِينِ السَّعْدِ حَلَّتْ

فِي سَمَاءِ الْكَوْنِ أَبْلَجُ
 عِطْرُهُ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ
 وَمَا قَدْ نَالَ جَهَ
 سَيِّدُ الْكَوْنَيْنِ أَحْمَدُ
 ثُمَّ سَلَّمَ وَتَهَلَّلَ
 حُبُّهُ لِلْقَلْبِ أَسْعَدُ
 بَابَ نُورٍ يَنْجَدُّ
 أَنْتَ أَهْلُ الْفَضْلِ وَالْمَجْدِ
 بَلِقَا الْهَادِي مُحَمَّدُ
 صَلَوَاتٍ تَتَرَدَّدُ
 وَعَوَافٍ تَتَجَدَّدُ
 وَابْتِهَاجٍ بِمَحَمَّدٍ
 تَتَغَشَّى الْبَابَ الْأَجْمَدُ
 مَا حَادَا الْحَادِي وَرَدَّدُ

شَعَشَعَ النُّورُ وَأَبْهَجُ
 مَوْلِدُ الْمُخْتَارِ أَرْجُ
 ذَكَّرُوا النَّاسَ بِطَهَ
 فَهُوَ لِلرُّوحِ مُنَاهَا
 يَا مُحِبَّ الْمُصْطَفَى صَلِّ
 إِنَّ طَهَ خَيْرُ مُرْسَلِ
 رَبِّ وَاجْعَلْ مُجْتَمَعَنَا
 وَاعْظِمْنَا مَا قَدْ سَأَلْنَا
 وَأَكْرِمِ الْأَرْوَاحَ مِنَّنَا
 وَابْلِغِ الْمُخْتَارَ مِنَّنَا
 وَاخْتِمِ الْعُمْرَ بِخَيْرِ
 جَدِّ الْأَفْرَاحِ فِينَا
 صَلَوَاتٍ وَسَلَامٍ
 وَكَذَا آلٍ وَصَحْبِ

ذِكْرَى الْقِيَامِ

بَرَزْتُ فِي الْكَوْنِ لَمَّا وَقَدَا
 لِعَظِيمِ الْفَضْلِ لَمَّا أَنْ بَدَا
 سَاعَةَ الْمِيلَادِ شُكْرًا وَاقْتِدَا
 واحتراماً للنبيِّ الْمُتَمَدَّى
 بَرَزْتُ فِي الْكَوْنِ صَحَّتْ سَنَدَا

كَانَ مِيلَادُ الْحَيِّبِ آيَةً
 سَنَّ أَهْلُ الْعِلْمِ فِيهَا وَفَقَةً
 قَامَ جَمْعٌ مِنْ رِجَالِ الْعِلْمِ فِي
 دُونَ إِلْزَامٍ وَلَكِنْ شَرَفًا
 سَاعَةُ الْمِيلَادِ ذِكْرَى عِقَّةً

تَتَحَلَّى إِذْ عَرَفْنَا الْمُقْصِدَا
تَنْطَوِي فِي الْعَمَلِ الْمَرْجُو عَدَا
وَأَذْرَأُ الْفِتْنَةَ وَأَذْكَرُ أَحْمَدَا
ظَاهِرِ الْعَيْبِ اسْتِجَابَاتِ النَّدَا
إِنْ صَفَا الْقَصْدُ وَرَامَ الْمَدَدَا
كَاسْتِحْلَاطِ وَغِنَاءِ زُدَّدَا
وَبَشُوشَاً صَادِقاً مُسْتَرَشِدَا
وَمَجَالِ الْفَضْلِ فِي الْعُقْبَى عَدَا
وَانْفِعَالِ فِي الْمَقَامِ جُدَّدَا
إِهْلَالِ أَدْعَى أَنْ يُصَاحَ مَوْلِدَا
مِثْلُ طَهَ فِي الْوُجُودِ مَحْتَدَا؟
إِنَّ فِي أَخْبَارِهِ كَبِثُ الْعِدَا
عَنْ طَرِيقِ الْعِلْمِ نَفَقُوا أَحْمَدَا
وَاهْدِنَا لِلصَّالِحَاتِ أَبَدَا

وَأَنَا فِيمَا نَوَيْنَا حُجَّةً
نَيْتُهُ الْمِرَّةَ جُزْيِيءٌ ثَابِتٌ
فَتَحَاوَزَ يَا مُحِبَّ الْمُصْطَفَى
وَادْعُ مَوْلَاكَ لَنَا إِذْ إِنَّ فِي
كُلِّ أَعْمَالِ الْعِبَادِ قُرْبَةً
وَحَلَّتْ مِنْ كُلِّ فِعْلٍ مُنْكَرٌ
وَادْعُ بِالْحُسْنَى وَكُنْ مُسْتَبْشِراً
إِنَّمَا الْإِسْلَامُ دِينُ الْإِصْطِفَا
دَكَّرُونِي مَا جَرَى مِنْ آيَةٍ
كُلُّ إِعْجَازِ جَرَى فِي لِحْظَةِ الْإِلَهِ
خَبَّرُونِي أَيُّ إِنْسَانٍ لَهْ
رَدَّدُوا أَخْبَارَ طَهَ فِي الْوَرَى
وَأَنْهَضُوا بِالْأَخْذِ بِالْعِلْمِ عَسَى
رَبِّ حَقَّقْ حُبَّنَا فِي الْمِصْطَفَى

ظواهر التنشئة والتربية

هَانِئاً فِي أَهْلِهِ لَمَّا بَدَا
وَرَأَى النُّورَ اسْتِهَابَ الْمُشْهَدَا
لِمُرَادِ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ عَدَا
وَخِتَامُ الْأَنْبِيَاءِ السُّعَدَا
طَبِيتَ حَمَلاً وَمَقَاماً أَرْغَدَا

عُرَّةُ الْمُخْتَارِ كَانَتْ مَظْهَرَاً
كُلُّ مَنْ شَاهَدَهُ مِنْ وَافِدٍ
إِنَّ فِي أَنْوَارِ طَهَ مَظْهَرٌ
إِنَّ هَذَا فَضْلٌ مَبْعُوثِ الْوَرَى
طَبِيتَ يَا طَهَ وَجُوداً وَكَذَا

أَثَبَتَ التَّارِيخُ وَالسِّيَرَةُ مَا
بُنْتُ سَعْدِ كَمْ رَأَتْ مِنْ مَوْقِفٍ
يَوْمَ جَاءَتْ بِالْأَتَانِ أَعَجَفًا
وَرَأَتْ فِي قَوْمِهَا مِنْ ظِلِّهِ
وَرَأَتْ عَدَلًا إِذَا مَا أَرْضَعَتْ
خَشِيَّتْ مِنْ بَعْدِ أَمْرًا عِنْدَمَا
فَاعَادَتْ نَهْهُ إِلَى أَطْنَابِهِ
فَرَعَتْهُ بِنْتُ وَهْبٍ أُمُّهُ
بَعْدَ أَنْ زَارَتْ بِهِ أَخْوَالَهُ
وَتَوَلَّى جَدُّهُ مِنْ أَمْرِهِ
ثُمَّ مَاتَ وَانْتَهَى الْأَمْرُ إِلَى
قَدَرَعَى الْمُخْتَارِ فِي سِنِّ الصَّبَا
فِي طَرِيقِ الشَّامِ كَانُوا رُفْقَةً
قَالَ: أَخْشَى مِنْ يَهُودٍ قَتَلَهُ
وَاسْتَمَرَ الْحِفْظُ وَالتَّوَجِيهُ مِنْ
رَبِّ حَقَّقَ حُبَّنَا فِي الْمِصْطَفَى

يُنَلِّجُ الْمَلْهُوفَ عِلْمًا وَهُدَى
جَدَّدَ الْبُشْرَى وَأَوْفَى الْمَوْعِدَا
ثُمَّ عَادَتْ وَهِيَ أَقْوَى جَسَدَا
كُلَّ خَيْرٍ مُخْصِبٍ قَدْ أَسْعَدَا
وَرَأَتْ مُزْنَ الرِّضَا فِي الْمُتَنَدَى
شَقَّتِ الْأَمْلَاكُ صَدْرًا جُرْدَا
بَعْدَ أَنْ شَبَّ وَأَبْدَى رَشْدَا
ثُمَّ مَاتَتْ فِي الطَّرِيقِ دُونَ دَا
مِنْ بَنِي النَّجَارِ فِي أَرْضِ النَّدَى
مَا تَوَلَّى إِذْ رَأَى فِيهِ الْهُدَى
عَمَّهِ السَّاعِي بِصِدْقٍ وَافْتِدَا
وَالشَّابَابِ وَحَمَاهُ وَقَدَا
إِذْ رَأَى نَسْطُورًا فِيهِ الرَّشْدَا
غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ يَحْمِي أَحْمَدَا
عَمَّهِ حَتَّى أَتَى مَا أُوْعَدَا
وَاهْدِنَا لِلصَّالِحَاتِ أَبَدَا

زواجه صلى الله عليه وآله وسلم من خديجة الكبرى

رَاعِيًا أَوْ سَاعِيًا أَوْ مُنْجِدَا
كُلَّ أَنْسٍ وَارْتِيَاكِ وَاهْتِدَا
وَيَدُ الْقُدْرَةِ تَرَعَى الْوَلَدَا

عَاشَ طَهَ عِلْمًا فِي مَكَّةِ
كُلُّ مَنْ عَاشَرَهُ يَلْقَى بِهِ
شَبَّ فِي عِرِّ وَفَضْلِ بِإِذْخِ

حَسَمَ الْأَمْرَ فَكَانَ السَّيِّدَا
 فِي الْأَمِينِ مَظْهَرًا لِلْإِيتِدَا
 فِي مَنَالِ الْفَضْلِ حُبًّا وَفِدَا
 نَحْوَ أَرْضِ الشَّامِ فَازْدَادَتْ نَدَى
 وَبَيْنَ وَبَنَاتٍ رُشْدَا
 صَارَ مَهْدَ الثُّورِ فِي طُولِ الْمَدَى
 أَسْلَمَتْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ الْإِيتِدَا
 وَاهْدِنَا لِلصَّالِحَاتِ أَبَدَا

حَجَرُ الْكَعْبَةِ لَمَّا اخْتَلَفُوا
 أَكْبَرُوا مَوْفَقَهُ وَاسْتَشْعَرُوا
 وَخَدِيدِجٍ خَطْبَتَهُ رَغْبَةً
 أَرْسَلَتْ مَيْسِرَةً فِي إِثْرِهِ
 حَقَّقَ اللَّهُ لَهَا أُمْنِيَةً
 هَيَّأَتْ بَيْتًا كَرِيمًا هَانِيًا
 وَافْتَدَتْ طَهَ بِمَا تَمْلِكُهُ
 رَبِّ حَقَّقْ حُبًّا فِي الْمِصْطَفَى

في غار حراء

مِنْ لَطِيفِ الْمَنْحِ وَهُوَ الْمُهْتَدَى
 يَرْغَبُ الْخَلْوَةَ ذَاتًا مُفْرِدَا
 بَاحْتِئًا عَنِ سِرِّ هَذَا الْإِيتِدَا
 إِذْ رَأَى طَهَ اللَّيَالِي مَعْبَدَا
 فِي بَدِيعِ الصُّنْعِ وَالْغَاوِ ارْتِدَا
 وَصَفُّهُ لَكِنَّ طَهَ أَرْشَدَا
 عَهْدُ (إِقْرَأْ) عَهْدُ عِلْمٍ وَهُدَى
 وَانْجَلَى الْحَقُّ لِأَمْرِ حُدْدَا
 وَتَنَالَى الْوَحْيِي وَالطَّيْرُ شَدَا
 عَصْرُ طَهَ خَاتَمُ الرُّسُلِ بَدَا

لَمَعَتْ فِي ذَهْنِ طَهَ لَمْعَةً
 وَسَرَى سِرٌّ عَجِيبٌ نَحْوَهُ
 فِكْرُهُ فِي الْكَوْنِ يَرْقَى سَابِحًا
 مَكْمَنُ الْعَارِ مَقَامٌ رَائِقُ
 نَزَلَ الْوَحْيِي وَطَهَ مُوْغِلُ
 مِنْ جَلَالِ الْأَمْرِ مَا لَا يَنْتَهِي
 وَبَدَا عَهْدُ جَدِيدٌ فِي الْوَرَى
 مَطْلَعُ الْإِيمَانِ فِي الْكَوْنِ سَرَى
 وَتَوَالَى الْفَيْضُ مِنْ رَبِّ السَّمَا
 رَدَّدِي يَا رُفْعَةَ الْأَرْضِ فِلَا

رَبِّ حَقَّقْ حُبَّنَا فِي الْمِصْطَفَى وَاهْدِنَا لِلصَّالِحَاتِ أَبَدًا

المعاناة

مُنْذُ فَجَّرَ الْبَعْثَةَ الْعَرَّا عَدَا
يَنْشُرُ الدَّعْوَةَ فِي الْأَفْجَاجِ لَا
فَقْرِيشٌ كَذَّبَتْ مَا جَاءَهُ
عَذَّبُوا أَتْبَاعَهُ فِي شِدَّةِ
كِبَالٍ وَكَعَمَارِ الْفَتَى
جَرَّدُوا الْعِزْمَ عَلَى أَنْ يُجْرُسُوا
صَبَرَ الْمُخْتَارُ صَبْرًا مُفْعَمًا
وَدَعَا لِلْقَوْمِ كَيْمَا يَهْتَدُوا
غَيْرَ أَفْرَادٍ دَعَا اللَّهُ بِأَخٍ
فَاسْتَجَابَ اللَّهُ مِنْ طَهَ الدُّعَا
رَبِّ حَقَّقْ حُبَّنَا فِي الْمِصْطَفَى

أدوار النصر في الدعوة

فَقَدَ الْمُخْتَارُ فِي دَعْوَتِهِ
كَأَبِي طَالِبٍ مَنْ عَاشَ مَدَى
وَكَذَا رُوحَهُ طَهَ أَنْفَقَتْ
مَرِضَتْ عَامَ الْحِصَارِ وَعَدَتْ
أَطْلَقَ الْمُخْتَارُ عَامَ الْحُزْنِ فِي
خَيْرٍ أَنْصَارٍ أَنْالُوهُ يَدَا
حَامِيًا مِنْ كُلِّ مَكْرٍ وَاعْتَدَا
كُلَّ شَيْءٍ صَارَ لِلدِّينِ فِدَا
دُونَ مَالٍ بَدَّدْتَهُ بَدَدَا
ذَلِكَ الْعَامَ كَذِكْرِي تُخَلِّدَا

قَبْضَةَ الشَّرِّ عَلَى مَنْ وَحَّدَا
 وَأَتَى الطَّائِفَ يَرْجُو سَنَدَا
 فَيُنْتَوَا أَنْ أَخْرَجُوهُ مُجْهَدَا
 حَائِطٍ يَشْكُو إِلَاهَ الصَّمَدَا
 فِي اتِّبَاعِ الْمُصْطَفَى ثُمَّ اهْتَدَى
 مِنْ نَصِيبَيْنِ وَعَادُوا سُعَدَا
 وَاسْتَجَابُوا لِلْحَيِّبِ أَحْمَدَا
 وَاهْدِنَا لِلصَّالِحَاتِ أَبَدَا

بَعْدَ هَذَا شَدَّدَ الكُفَّارُ مِنْ
 وَمَضَى طَهَ إِلَى بَعْضِ الثُّرَى
 رَجْمُوهُ ثُمَّ أَذَمُّوهُ وَمَا
 فَاتَى المِخْتَارُ مَكْدُوداً إِلَى
 جَاءَ عَدَّاسٌ وَأَبْدَى رَغْبَةً
 وَبَبَطْنِ الوَادِ جَاءَتْ عُصْبَةٌ
 سَمِعُوا القُرْآنَ يُتْلَى أَنْصَتُوا
 رَبِّ حَقَّقْ حُبْنَا فِي المِصْطَفَى

الإسراء والمعراج

وَأَسَامُوا المُؤْمِنِينَ الشَّدَا
 يَشْهَدُ العِزَّةَ فِي أَعْلَى مَدَى
 رِحْلَةَ الإِسْرَاءِ لَيْلًا مَضَعَدَا
 رَيْلُ قَالَ اسْكُنْ تَأَدَّبَ لِلْهَدَى
 يَمْتَطِي الظُّهْرَ سِوَاهُ مُقْتَدَى
 خَيْرُ خَلَقِ اللهُ زَارَ المِسْجِدَا
 لَى إِمَاماً ثُمَّ قَامَ مُرْشِدَا
 فِي دُرَى المِعْرَاجِ يَرْقَى العَدَدَا
 حَيْثُ يَعْشَى السُّدْرَةَ العُظْمَى نَدَا
 حَضْرَةَ القُدْسِ مَقَاماً مُفْرَدَا

شَدَّدَ الكُفَّارُ مِنْ قَبْضَتِهِمْ
 وَأَرَادَ اللهُ لِلْمُخْتَارِ أَنْ
 فَاتَى جَبْرِيلُ يَدْعُوهُ إِلَى
 وَالبُرَاقُ إِزْفَضَ لَكِنْ رَدَّهُ جَبْ
 لَيْسَ فِي الكَوْنَيْنِ أَعْلَى رُتْبَةً
 وَلِيَّتِ المَقْدِسِ الأَقْصَى انْتَهَى
 لَقِيَ الرُّسُلَ الكِرَامَ وَبِهِمْ صَ
 وَمَضَى مُسْتَوْدِعاً نَحْوَ العُلا
 صَعَدَ المِخْتَارُ حَتَّى المُنْتَهَى
 وَدَنَا ثُمَّ تَدَلَّى وَرَأَى مِنْ

فَرَضَ اللهُ عَلَيْنَا صِلَةَ
 خَمْسٍ أَوْقَاتٍ لَهَا فِي فَضْلِهَا
 وَرَأَى الْجَنَّةَ وَالْمَنَحَ الَّذِي
 وَرَأَى النَّارَ وَأَهْوَالَهَا
 نَسَأَلُ اللهُ الأَمَانَ دَائِمًا
 ثُمَّ عَادَ المِصْطَفَى مِنْ رِحْلَةٍ
 وَانْتَفَى الحُزْنَ الَّذِي قَدْ شَابَهُ
 ثُمَّ عَادَ مِنْ سَمَاءٍ لِسَمَا
 وَمَعَ الصُّبْحِ أَتَاهُمْ مُعَلِنًا
 سَخِرُوا مِنْهُ وَقَالُوا: إِنَّمَا
 وَتَحَدُّوه لِيُرَوِي مَا رَأَى
 فَتَبَدَّى المَسْجِدَ الأَقْصَى لَهُ
 فَاسْتَشَاطَ الكَافِرُونَ غَضَبًا
 وَأَتَى الصِّدِّيقُ يَحْمِي مَوْقِفًا
 قَالَ: هَذَا الوَحْيُ يَأْتِي بُكْرَةً
 رَبِّ حَقَّقْ حُبَّنَا فِي المِصْطَفَى

وَصَلَاةً وَاجْتِبَاءً وَهُدَى
 أَحْرَ خَمْسِينَ وَجُوبًا أَبَدًا
 كَتَبَ اللهُ لِكُلِّ الشُّعَدَا
 تُحْرِقُ العَاصِي وَتَشْوِي الجَسَدَا
 مِنْ لَطَاهَا لَا نَرَاهُ أَبَدًا
 وَهَوَ مَسْرُورٌ لِمَا قَدْ وَجَدَا
 مِنْ صِرَاعِ الكُفْرِ نَزْعًا وَاعْتِدَا
 وَلِفَرَشِ دِفْؤُهُ مَا بَرَدَا
 مِنْحَةَ الإِسْرَاءِ قَوْلًا مُسْنَدَا
 جُنَّ طَةَ فِي المَقَالِ وَعَدَا
 فِيهِ مِنْ بَابٍ وَمَا قَدْ شُيِّدَا
 بَيْنَ عَيْنَيْهِ فَأَحْصَى العَدَدَا
 وَتَنَادَا: عَقَلُ طَةَ فُقِدَا
 كَادَتِ الكُفَّارُ مِنْهُ تَنفُدَا
 وَعِشَاءً قَوْلُ طَةَ أُيِّدَا
 وَاهْدِنَا لِلصَّالِحَاتِ أَبَدَا

عوامل الهجرة الأولى من مكة

وَتَبَدَّى الشَّرُّ فِي وَجْهِ العِدَا
 هَجْرَةً فِي اللهِ جُحْلِي الأَوْدَا
 مَلِكٌ يَزْعَى الَّذِي قَدْ قَصَدَا

بَلَعَ الأَمْرُ الدُّرَى فِي مَكَّةِ
 فَآتَى الإِذْنَ لِأَرْبَابِ التُّقَى
 قَبَلَتْهُمْ أَرْضُ أَحْبَاشٍ بِهَا

دِينِهِ وَالذَّاتِ مِنْ كُلِّ اعْتِدَا
مَوْسِمِ الْحَجِّ اجْتِمَاعاً شَهِيدَا
نَقَرُ بِاللَّيْلِ يَرْجُونَ الْهُدَى
يَنْصُرُوهُ وَيَكُونُوا عَضُدَا
يُقْرَأُ الْقُرْآنَ يُحْيِي الْبَلَدَا
وَاهْدِنَا لِلصَّالِحَاتِ أَبَدَا

مَنْ أَتَاهُ عَاشَ مَأْمُوناً عَلَى
وَبَدَتْ يَثْرِبُ تُؤْتِي أُكْلَا
مِنْ بَنِي الْحَزْرَجِ وَالْأَوْسِ أَتَى
عَاهَدُوا الْمُخْتَارَ عَهْداً لَازِماً
بَعَثَ الْمُخْتَارُ فِيهِمْ مُصْعَباً
رَبِّ حَقَّقْ حُبْنَا فِي الْمِصْطَفَى

عوامل الهجرة الثانية

وَأَذَاهَا ضَدًّا مَنْ قَدْ عَبَدَا
وَأَشْتَكَى أَتْبَاعُ طَهَ الْأَوْدَا
نَحْوَ أَرْضِ ذَاتِ نَحْلٍ وَنَدَى
فَأَتَوْهَا فِي خَفَاءِ جُرْدَا
وَأَحْبَبَاءُ أَحْبَبُوا أَحْمَدَا
رَاجِعاً إِذْناً بِمَا قَدْ عَقَدَا
وَاهْدِنَا لِلصَّالِحَاتِ أَبَدَا

وُقْرَيْشُ ضَاعَفَتْ حَمَلَتَهَا
أَخَذُوا بِالْحَزْمِ فِي مَوْقِفِهِمْ
أَذِنَ اللَّهُ لَهُمْ فِي هِجْرَةِ
طَيْبَةَ طَابَتْ وَطَابَ الْمُتَقَى
وَجَدُوا فِيهَا مَكَاناً لَائِقاً
وَالْحَبِيبُ لَمْ يَزَلْ فِي مَكَّةِ
رَبِّ حَقَّقْ حُبْنَا فِي الْمِصْطَفَى

اجتماع قريش في دار الندوة

مَسَمَعَ الْكُفَّارِ عَمَّا قَدْ بَدَا
فَرَأَوْا فِي الْأَمْرِ شَرّاً قُصِدَا
سُئِلَ الْهِجْرَةَ رَضِداً نَكِدَا

سَرَتِ الْأَنْبَاءُ مَسْرَاهَا إِلَى
مِنْ رَحِيلٍ دَائِبٍ عَن مَكَّةِ
مَنْعُوا الْهِجْرَةَ بَلْ قَدْ رَضَدُوا

وَتَنَادَوْا لِاجْتِمَاعِ عَاجِلٍ
جَاءَهُمْ إِبْلِيسُ فِي مَلْبَسِهِ
وَاسْتَفَاضَ الْأَخْذَ فِيمَا قَدْ جَرَى
أَجْمَعُوا الرَّأْيَ عَلَى أَنْ يَقْتُلُوا
وَرَأَوْا فِي الْقَتْلِ حَالًا نَاجِعًا
يَأْخُذُوا مِنْ كُلِّ بَيْتٍ وَاحِدًا
يَضْرِبُونَ الْمُصْطَفَى فِي هَجْمَةٍ
رَبِّ حَقِّقْ حُبًّا فِي الْمُصْطَفَى

ضِمَّنَ دَارَ النَّدْوَةِ الْكُبْرَى صَدَى
يُشْبِهُ الْبَدْوَ النَّجُودَ الْجَلْدَا
مِنْ أُمُورٍ أَوْرَثَتْهُمْ كَمَدَا
سَيِّدَ الْعَالَمِ طَةَ أَحْمَدَا
وَرَأَى إِبْلِيسَ حَالًا رَشَدَا
مُضَلَّتِ السَّيْفِ شُجَاعًا جَلْدَا
تَحْسِمُ الْمُوقِفَ حَسْمًا أَبَدَا
وَاهْدِنَا لِلصَّالِحَاتِ أَبَدَا

التحدي الإلهي والإذن بالهجرة

وَرَسُولُ اللَّهِ فِي مَنْزِلِهِ
فِي الْفِرَاشِ بَعْدَ أَنْ قَلَدَهُ
وَتَجَلَّى الْحَقُّ فِي عَلَيَّاهِ
يَمْكُرُ الْكُفَّارَ وَالْحَقُّ لَهُ
خَرَجَ الْهَادِي بِحِفْظٍ شَامِلٍ
وَضَعَ التُّرْبَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى
وَصَحَا الْكُفَّارُ مِنْ بَعْدِ الضُّحَى
غَارَ ثَوْرٍ ثَابِي اثْنَيْنِ بِهِ
وَقَفَ الْكُفَّارُ حَسْرَى عِنْدَمَا
قَصَرَ الْمَهْمُ عَنِ الْإِعْجَازِ فِي
وَمَضَى الْمُخْتَارُ فِي رِحْلَتِهِ

قَدْ دَعَا بِالْمَرْتَضَى كَيْ يَرْقُدَا
مِنْ أُمُورِ النَّاسِ مَا قَدْ قَلَدَا
لِيُرِيَ الْعَالَمَ أَجْلَى مَشْهَدَا
مَكْرُهُ فِي الْكَافِرِينَ الْحَقْدَا
وَرَأَى الْأَبْطَالَ مَالُوا رُقْدَا
لَأَبِي بَكْرٍ يُرِيدُ الْمُؤَعْدَا
خُذِلُوا حَقًّا وَعَادُوا بُلْدَا
قال: لا تَحْزَنْ . وَرَبِّي . أَبَدَا
شَاهَدُوا نَسْجًا وَيَبْضًا نُضْدَا
مُلْكِ رَبِّي فَتَوَلَّوْا حُرْدَا
وَالْفَتَى الصَّدِيقُ يَخْشَى الرَّصْدَا

وَسَلِيلُ جُعْشُمٍ سَاخَتْ بِهِ
وَحَلِيبٌ دَرَّتْ الشَّاهُ بِهِ
مُعْجَزَاتٌ بَاهِرَاتٌ قَدْ بَدَتْ
رَبِّ حَقَّقْ حُبْنَا فِي الْمِصْطَفَى
قَدَمُ الْحَيْلِ مِرَاراً فَاهْتَدَى
وَهِيَ عَجْفَا فَسَقَّوهُ مَعْبَدَا
فِي طَرِيقِ الْحِفْظِ تُرْوَى سَنَدَا
وَاهْدِنَا لِلصَّالِحَاتِ أَبَدَا

الوصول إلى طيبة

وَصَلَ الْمُخْتَارُ فِي نَحْرِ الضُّحَى
خَرَجَ النَّاسُ جَمِيعاً فَرَحَا
مَوْكِبُ الْأَفْرَاحِ يَطُوي أَلْمَا
نَزَلَ الْمُخْتَارُ فِي أَهْلِ قُبَا
فَنَبِيُّ اللَّهِ فِي أَبِيَاتِهِمْ
ثُمَّ سَارَتْ نَاقَةُ الْمُخْتَارِ مِنْ
كُلَّمَا مَرَّتْ بِقَوْمٍ أَخَذُوا
قَالَ طَاهٍ: إِهْمَا مَأْمُورَةٌ
فَاسْتَقَرَّتْ حَيْثُمَا كَانَ الْمَبَى
رَبِّ حَقَّقْ حُبْنَا فِي الْمِصْطَفَى
طَيْبَةَ يَا نِعَمَ مَنْ قَدْ وَفَدَا
وَشَدَا الْوِلْدَانَ قَوْلًا مُنْشَدَا
وَهَزَبِجِ الْوَصْلِ غَنَى وَشَدَا
بَعْضَ أَيَّامٍ وَكَانُوا سُعَدَا
وَعَطَّاءُ اللَّهِ فِيهِمْ وَرَدَا
حَيْثُ كَانَتْ وَهِيَ تَدْرِي الْمُقْصَدَا
بِالزَّمَامِ كَيْ يَطِيبَ الْمُفْعَدَا
فَدَعُوهَا لَا تَشُدُّوا الْمُفْوَدَا
مِرْبُدُ الطُّفْلَيْنِ صَارَ الْمَسْجِدَا
وَاهْدِنَا لِلصَّالِحَاتِ أَبَدَا

بناء دولة الإسلام

كَانَ هَمُّ الْمِصْطَفَى فِي طَيْبَةِ
فَبَنَاهُ مِنْ جَرِيدٍ وَكَذَا
مُنْدُ أَنْ حَلَّ يَشِيدُ الْمَسْجِدَا
حَجَرُ الْحَرَّةِ حَتَّى شُيِّدَا

أُسْرَةَ الْأَنْصَارِ جَمْعاً وَاحِداً
وَالَّذِينَ هَاجَرُوا صَارُوا يَدَا
فَوْقَ مَعْنَى الْعِرْقِ حُبّاً وَفِداً
حَيِّ قَوْمًا زَكَّعاً بَلْ سَجَّداً
وَاهْتَدَوْا بِالشَّرْعِ وَهُوَ الْمُقْتَدَى
جُنِّدُوا فِي عَزْوَةٍ أَرْدُوا الْعِدا
سَادَةٌ الْأُخْرَى وَرَمَزُ الشُّهَدَا
وَاهْدِنَا لِلصَّالِحَاتِ أَبَداً

جَمَعَ الْأَوْسَ مَعَ الْخَزْرَجِ فِي
ثُمَّ آخَى بَيْنَ أَنْصَارٍ زَكَّتْ
إِخْوَةٌ فِي اللَّهِ حَتْمًا تَرْتَقِي
جِبْهَةَ الدَّاخِلِ أَحْيَاهَا يَهْمُ
شَيِّدُوا أَرْكَانَ دِينِ الْمُصْطَفَى
قَاتَلُوا فِي صَفِّ طَهَ كُلَّمَا
جُنِّدُ طَهَ سَادَةُ الدُّنْيَا كَذَا
رَبِّ حَقَّقْ حُبَّنَا فِي الْمُصْطَفَى

الغزوات والسرايا

فِي جَبِينِ الْكُونِ فَتْحاً خُلِّداً
يَحْمِلُ السَّيْفَ لِمَصَدِّ الْعِتْدَاءِ
رَغَبَ الْكُفْرَ وَحَابِي الْبُعْدَا
فِي وَصَايَا الْمُصْطَفَى ثُوقِي الرِّدَا
غَزَوَاتٍ قَدْ تَوَالَتْ عَدَا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَجَلِّي الْأَوْدَا
بُعِثُوا فِي اللَّهِ مَا خَافُوا الرِّدَى
سَيِّدُ الْكُونَيْنِ يَدْعُو الصَّمْدَا
رَافِعاً لِلَّهِ كَفَّأً وَيَدَا
هَلَكْتَ فَالْخَوْفُ أَلَا تُعْبَدَا
وَأَتَى الْأَمْلَاكُ جَيْشاً مُسْنِداً

غَزَوَاتُ الْمُصْطَفَى مَشْرِقَةً
هَدَفُ الْحَرْبِ سَلَامٌ فِي الْوَرَى
أَوْ لِمَنْ يَأْبَى السَّلَامَ نَاكِثاً
وَلِشَنْ الْحَرْبِ آدَابٌ أَتَتْ
وَعَزَا الْمُخْتَارُ بِالْأَصْحَابِ فِي
وَالسَّرَايَا عَشْرَاتٌ جُهِزَتْ
حَارَبُوا الْكُفْرَ وَأَبْلَوْا حَيْثَمَا
فَبِيدَرِ الْبَطْشَةُ الْكَبِيرَى عَدَا
خَاشِعاً لِلَّهِ يَرْجُو نَصْرَهُ
رَبِّ هَذَا عَصَبَةُ الْإِسْلَامِ إِنْ
جَاءَهُ النَّصْرُ كَغَيْثٍ هَامِعٍ

ضربوا الأعناق ضرباً مُثخِناً
 وكذا في ((أحد)) ما قد جرى
 أدباً لها تَحَلَّى نَقْرُ
 وضيْرَامُ الحربِ شَبَّتْ خَطَرًا
 وتنَادَى المشركون فرحاً
 ورسولُ الله في موقعه
 حوله الأبطال مِنْ عَضْبَتِهِ
 شَجَّ رأسُ المصطفى وانكسرت
 قتلِ الوحشي فيهما حمزه
 وابتلى الله العباد وقضى
 غزوه الخندقِ كانت آية
 ربحُ جندي الله تارت عاصفاً
 وبدا نصرٌ عظيمٌ حاسمٌ
 ثم جاءت غزوه الصُّلحِ التي
 منعوه من دخول مكة
 غَضِبَ الفاروقُ لما أَحْحَفُوا
 ومضى المختارُ في منسكه
 مثلها خيبرُ سارَ المصطفى
 فغزاهم بعد فجرٍ قائلاً
 وتلاها غزوة عظمى جرت
 أمرَ المختارُ زَيْدًا وكذا

قطعوا كلَّ بنانٍ قد بدا
 من بلاءِ سَامِ أصحابِ الهدى
 من رماةِ الجيشِ تَلاً حُدَّدا
 قَتَلُوا سبعينَ من جيشِ الفدا
 إِنَّ طهَ ماتَ والنصرُ حَدَا
 حاملاً سيفَ القتالِ أَجْرَدَا
 لم يزالوا يدفعون الاعتدا
 رَنَعَةُ الأَسنانِ مِنْ ضَرْبِ العِدا
 أسدَ اللهِ إمامَ الشهدا
 ما قضى والحقُّ أعلا سُؤدَدَا
 بَدَدَ اللهُ الجموعَ بَدَدَا
 رحلَ الكفرُ عنها كَمَدَا
 جَدَّدَ البُشْرَى وأجلى الأودا
 كانَ فيها الاعتمازُ مَقْصَدَا
 وجرى التوقيعُ عاماً مؤعدَا
 سيدَ الناسِ وأبديَ حرَدَا
 ذَبَحَ الهُدْيَ كما ألقى الرَدَا
 بَعَدَ نقضِ العهدِ مَن أفسدَا
 خَرِبَتْ خيبرُ صارتَ فدفا
 نحوَ أرضِ الشامِ جيشاً جُرَدَا
 جعفرَ الطيارِ إنَّ حَامَ الرَدَى

قَاتَلُوا الْكُفْرَ وَمَاتُوا شُهَدَا
يَتْرُكُ الْجَيْشَ لِيَقْتَنِي مُجْهَدَا
مَظْهَرٍ سَرَّ النَّبِيَّ الْمُقْتَدَى
وَبِهِ النَّصْرُ الْجَلِيُّ انْعَقَدَا
دَخَلُوها مِنْ كُودِيٍّ وَكُودَا
إِذْ عَفَا عَنْهُمْ وَلَمْ يُوثِقْ يَدَا
مَكَّةَ وَالشُّرْكَ فِيهَا انْحَمَدَا
كَثْرَةَ الْأَتْبَاعِ فَاقْوَا عَدَدَا
نَحْوَ طَهٍ يَطْلُبُونَ الْمَدَدَا
لَمْ يَفِرَّ فِي الْقِتَالِ أَبَدَا
جَعَلُوا أَعْدَاءَ طَهٍ بَدَدَا
وَاخْتِيَاراً مِثْلَمَا قَدِ وَرَدَا
فَازَ كَعْبٌ تَوْبَةً طَالَتْ مَدَى
وَاهْدِنَا لِلصَّالِحَاتِ أَبَدَا

ثُمَّ عَبْدُ اللَّهِ يَأْتِي ثَالِثَا
وَأَنْبَرِي خَالِدٌ لِلْأَمْرِ وَلَمْ
عَادَ بِالْقَوْمِ إِلَى يَثْرِبَ فِي
قَالَ طَهٍ سَيْفُ رَبِّي خَالِدٌ
بَعْدَ عَشْرِ جَاءَ فَتَخَّ مَكَّةَ
مَظْهَرٌ أَبَدَى مَقَامَ أَحْمَدِ
رَفَرَتْ رَايَاتُ دِينِ الْحَقِّ فِي
وَحُنَيْنٍ أُعْجِبُوا لَمَّا رَأَوْا
هُزِمُوا فِي كُلِّ فَجٍّ وَأَنْتَهَوْا
وَجَدُوهُ صَابِرًا مُحْتَسِبًا
أَنْزَلَ اللَّهُ جَنُودًا لَمْ تُرَا
غَزْوُهُ الْعَسْرَةَ فَاقَتْ مِثْلًا
فَارَ عَثْمَانُ بِإِنْفَاقٍ كَذَا
رَبِّ حَقِّقْ حُبَّنَا فِي الْمِصْطَفَى

المعجزات النبوية

بِحِصَالِ هُنَّ مِفْتَاحِ الْهُدَى
أَرْجَحَ الْمِيزَانَ فِيمَا اعْتَقِدَا
تَدَخَّضُ الْبَاطِلَ مَهْمَا اتَّحَدَا
عُنُصُرَ الْأَهْوَاءِ فَهَمَّا جُرِّدَا
أَبْدَعَ الْأَشْيَاءَ خْتَمًا وَابْتَدَا

أَيَّدَ اللَّهُ النَّبِيَّ الْمِصْطَفَى
مُعْجَزَاتٌ وَأَنْفِعَالٌ وَاضِحٌ
فَطْهُورُ الْمُعْجَزَاتِ حُجَّةٌ
وَهِيَ تَحْمِي الْعَقْلَ مِنْ تَأْلِيهِهِ
وَتُعْيِيدُ الْأَمْرَ لِلَّهِ الَّذِي

عَيْرَ أَنَّ الضَّابِطَ الْحَقَّ لَهَا
 وَرَدَّ النَّصُّ بِهَا فِي مُسْلِمٍ
 نَبَعَ الْمَاءُ زُلَالًا وَجَرَى
 رَدًّا عَيْنًا فُقِئَتْ فِي مَجْجِرٍ
 سَبَّحَ الْأَكْلُ بِفِيهِ عَلَنًا
 وَرَمَى الْجَيْشَ الْقَدَى فَاثْهَرُمُوا
 وَتَحَدَّثَهُ فُرَيْشٌ لَيْلَةً
 أَخَذَ الْعُودَ فَعَادَ مُصَلَّتًا
 وَحَنِينُ الْجِدْعِ أَجْلَى آيَةٍ
 عَشَرَاتُ الْمُعْجَزَاتِ وَرَدَّتْ
 حِكْمَةُ الْإِعْجَازِ تُبْدِي أَمَلًا
 رَبِّ حَقِّقْ حُبَّنَا فِي الْمِصْطَفَى

سَنَدُ الرَّاوي مَتَى مَا أُورِدَا
 وَالْبُخَارِيُّ فَطَالَعِ بَحْدَا
 لِمَمِينٍ نَعَمَ مَاءٍ أُورِدَا
 أَبْصَرْتُ مِنْ بَعْدِ أَنْ كَانَتْ سُدَى
 وَالْحَصَى أَيْضًا فَسَلَّ عَنْهُ الْيَدَا
 أَطْعَمَ الْأَلْفَ وَأَبْرَى الْأَرْمَدَا
 فِي انْشِقَاقِ الْبَدْرِ فَاثْشَقَّ ائْتِدَا
 فِي يَدِ الْمُخْتَارِ سَيْفًا أَجْرَدَا
 تُبْرِزُ الشَّقُوقَ إِذَا مَا انْعَقَدَا
 فَاَنْظُرِ التَّوْثِيقَ عَمَّا وَرَدَا
 لِذَوِي الْأَبَابِ دَرْسًا وَهُدَى
 وَاهْدِنَا لِلصَّالِحَاتِ أَبَدَا

الشمائل النبوية

كَانَ خَيْرُ الْخَلْقِ أَحْلَى مَنْظَرًا
 يُوسُفُ الصِّدِّيقُ أُعْطِيَ شَطْرَ مَا
 وَمَعَ الْحُسْنِ جَلَالٌ ظَاهِرٌ
 خَلْقًا وَأَخْلَاقًا وَذَوْقًا وَارْتِقَا
 وَاتِّمَالُ الْحُسْنِ فِيهِ مَلْحَظٌ
 لَمْ يَكُنْ فِي الشُّوقِ صَحَابًا وَلَا
 حَجَلٌ يُغْضِي حَيَاءً إِنْ رَأَى

وَاعْتِدَالًا وَجَمَالًا شُوهِدَا
 مُنِحَ الْمُخْتَارُ مِنْ حُسْنِ بَدَا
 وَمَقَامٌ بَاذِخٌ يُوقِي الرِّدَى
 فِي مَقَامِ الْعِزِّ مَقْطُورَ الْهُدَى
 عَنْ كَمَالِ أَحْمَدِيٍّ فُرِّدَا
 يَرْنُو لِفُحْشٍ فِي مَقَالِ أَبَدَا
 مَا يُعَابُ أَوْ يُنَافِي الرِّشْدَا

وَإِذَا مَا انْتَهَكَ الدِّينُ بَدَا
وَيَسْوَدَ الْحَقُّ مَكْمُولاً عَلَى
مَضْرِبِ الْأَمْثَالِ فِي الْحَرْبِ كَذَا
قَالَ فِيهِ الْحَقُّ وَهُوَ وَصْفُهُ
يَسْتَجِيبُ إِنْ دَعَاهُ أَحَدٌ
لَمْ يَعْـبْ أَكْـلًا وَلَا شُرْبًا وَلَا
كَانَتْ الْأَخْلَاقُ مِنْهُ شِيْمَةً
قَالَ طَه: إِنَّمَا أَدَّبَنِي
هَذِهِ الْأَخْلَاقُ نَهَجَ أُمَّةٍ
إِنْ أَرَادَتْ عَزَّهَا يَعْـلُو بِهَا
رَبٌّ حَقَّقَ حُبَّنَا فِي الْمِصْطَفَى

غَاضِبًا حَتَّى يَعُودَ الْإِهْتِدَا
عِزَّةً فِي اللَّهِ تَحْمِي الْجَسَدَا
مَضْرِبِ الْأَمْثَالِ فِي السَّلْمِ نَدَى
(لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) يُقْتَدَى
لَوْ يَكُنْ فِرْسَنَ شَاةٍ لِلْعَدَا
رَدَّ مُحْتَجًا وَلَوْ يُعْطَى الرِّدَا
وَبِهَا الْمَوْلَى لَهُ قَدْ أَيَّدَا
سَيِّدِي مَوْلَايَ رَبِّي وَهَدَا
كَتَبَ اللَّهُ لَهَا أَنْ تُسْعَدَا
فَهِيَ أَوْلَى بِالسُّلُوكِ الْمُتَعَدَى
وَاهْدِنَا لِلصَّالِحَاتِ أَبَدَا

الدعاء

مِنْ كَرِيمِ الْجُودِ نَرْجُو نَظْرَةً
فِي الْحَيَاةِ تُمْنَحُ الْمَرْجُوَّ مِنْ
وَحْتَامِ الْعُمْرِ يَأْتِي حَسَنًا
لَا نَرَى الْمَكْرُوهَ فِينَا أَوْ نَرَى
رَبَّ حَقَّقَ حُبَّنَا فِي الْمِصْطَفَى
وَاهْدِنَا يَا رَبِّ لِلْيُسْرَى هُنَا

تُصْلِحُ الْأَحْوَالَ حَتَّى نَسْعَدَا
خَيْرِ رَبِّي مُسْتَمِرًّا أَبَدَا
فِي ثَبَاتٍ وَصَلَاحٍ وَاهْتِدَا
فِتْنَةً أَوْ مِحْنَةً أَوْ شَرًّا دَا
وَإِمْنَحِ الْإِخْوَانَ دَوْمًا مَدَدَا
وَكَذَا الْأُخْرَى نُوَافِي الْمُؤْعَدَا

فِي سَلَامٍ وَأَمَانٍ دَائِمٍ
يَا إِلَهِي وَمَلِيكِي سَيِّدِي
وَفَقِي الْكُلِّ لِمَا تَرْضَى وَكُنْ
وَأَشْفِ مَرْضَانَا وَعَافِ الْمُتَلَى
وَأَصْلِحِ الْحَاكِمَ وَالْمُحْكُومَ كَيْ
وَأَرْشِدِ الْعَالِمَ وَالسَّادِعِي إِلَى
وَاعْطِ طُلَّابَ الْعُلُومِ هِمَّةً
لِيَكُونُوا خَلْفَاءَ لِلْمُصْطَفَى
وَيُعِيدُوا لِلْعَدِ الْآتِي بِبِلَا
يَجْمَعُوا بَيْنَ الْعُلُومِ وَكَذَا
رَبَّنَا نَحْنُ الْعِصَاهُ فَاهْدِنَا
وَاحْمِنَا مِنْ شَرِّ نَفْسٍ وَهَوَى
وَاحْيِي مَا قَدْ فَاتَ مِنْ تَارِيخِنَا
مِنْ زَمَانٍ سَلَفِيٍّ صَادِقٍ
رَبِّ وَاجْمَعْ أُمَّةً مَرْحُومَةً
يَسْعُ الْحَاضِرَ مِنْهَا كُلَّ مَا
رَبِّ ضَاقَتْ فَرْجُ الْكَرْبِ عَلَيَّ
وَأَنْزِلِ الْعَيْثَ ابْتِدَاءً كَرَمًا
وَاسْقِ مَا قَدْ مَاتَ مِنْ أَرْضِنَا
وَاحْتِمِ الْعُمَرَ بِإِيمَانٍ لَنَا
وَمَدِيحِي فِي الْحَبِيبِ قُرْبَةً

فِي ذُرَى الْفِرْدَوْسِ حَيْثُ الشُّهَدَا
كُنْ لَنَا فِي كُلِّ حَالٍ سَنَدَا
رَبَّنَا عَوْنًا وَنَصْرًا وَيَدَا
وَاجِلِ عَيْنِ الْقَلْبِ مِنْ كُلِّ صَدَا
يُضْلِحِ الْعَصْرَ الَّذِي قَدْ فَسَدَا
نَشْرِ دِينَ الْحَقِّ فِي كُلِّ مَدَا
فِي التَّلَقِّي وَالتَّرْقِي وَالهُدَى
يَحْمِلُوا الْعِلْمَ الشَّرِيفَ الْأَوْحَدَا
وَهَنٍ أَوْ حُبِّ تَقْلِيدِ الْعِدَا
عَمَلٍ لِلَّهِ يُفْضِي مَدَدَا
وَاعْفِرِ الْأَوْزَارَ وَاسْتُرْ مَا بَدَا
وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَعَ دُنْيَا الرَّدَى
وَاعِدْ لِلدِّينِ مَا كَانَ ابْتِدَا
يَجْمَعْ الْكُلَّ عَلَى دِينِ الْهُدَى
تَحْتَ ظِلِّ الشَّرْعِ فَالشَّرْعِ هُدَى
وَسِعَ الْمَاضِينَ خْتَمًا وَابْتِدَا
أُمَّةِ التَّوْحِيدِ فَالْحَطْبُ عَدَا
مِنْكَ يَا مَنْ تَمْنَحُ الْحَيْرَ ابْتِدَا
تَزْدَهِي بِالرُّزْقِ خَصْبًا رَعَدَا
وَتَبَاتٍ وَاجْعَلِ التَّقْوَى رِدَا
أَبْتَغِي الرِّضْوَانَ وَالصَّفْحَ عَدَا

وَأَرَى وَجْهَ الْحَبِيبِ رَاضِيًا فِي حَيَاتِي وَمَمَاتِي مُسْعِدَا
 وَخَتَامُ الْوَصْفِ صَلَّى رَبَّنَا كُنَّا حِينَ وَسَلَامِ سَرْمَدَا
 يَبْلُغُ الْمُخْتَارَ هَادِينَا إِلَى كُنَّا خَيْرٍ وَهُوَ بِالْحَقِّ حَادَا
 وَعَلَى آلٍ وَصَحْبٍ نَشْرُوا شَرَفَ الْإِسْلَامِ فَازْدَادُوا هُدَى
 وَلْتَجِدْ هَمَّةَ الْأَتْبَاعِ فِي مَنَهِجِ الدَّعْوَةِ يَمْضُوا سُعْدَا
 صَادِقِينَ مُخْلِصِينَ كُلَّهُمْ يَجْمَلُونَ الْهَمَّ هَمًّا وَاحِدَا
 وَاجْزِلِ الْمُنْحَ لَنَا يَا سَيِّدِي أَنْتَ أَهْلُ الْفَضْلِ دَوْمًا أَبَدَا

بفضل (سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على
 المرسلين. والحمد لله رب العالمين). الصلاة والسلام عليك يا سيد المرسلين،
 الصلاة والسلام عليك يا خاتم النبيين، الصلاة والسلام عليك يا من أرسله
 الله رحمة للعالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مقدمة الشارح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الذي اختص أمة الإسلام بأعظم رسول وأكرم مبعوث، من كملت صورته وتم معناه، وأوجب على الخلق محبته واتباعه والاهتداء بهداه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا رب لنا سواه، ولا معبود إلا إياه، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الرحمة المهداة، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد من شرفه ربه وفضله على من سواه، وعلى آله الذين شرفوا بالانتساب إلى من حباه ومولاه، وعلى صحبه الذين ارتضى المولى أن يصحبوا حبيبه ومصطفاه.

أما بعد فقد دفعني إلى تدوين هذه التعليقة المختصرة على المنظومة المباركة المسماة ب(الحديقة النضرة في نظم السيرة العطرة) . للسيد الداعي إلى ربه على منهج سلفه من آل رسول الله، والقائم بنشر الدعوة بإخلاص وصدق نية وصفاء سريرة وطوية، ومن حصل به النفع في بلادنا اليمنية، السيد الجليل أبي بكر بن علي المشهور حفظه الله وأبقاه، وإلى ميراث أهله وأجداده رقاہ . أني لما سمعت أبياتها المباركة وكان أول سماعي لها وهي تقرأ بصوت ناظمها وتلاميذه المباركين في مسجد القطب الشهير سيدي أبي بكر بن عبد الله بن أبي بكر العيدروس بمدينة عدن المشهورة، فهزنتني أبياتها وعجبت منها؛ لكون ناظمها أشار فيها إلى معظم سيرته عليه الصلاة

والسلام. وفي ذلك المجلس المبارك وفي ذلك المكان الطاهر هجم علي خاطر قوي أن يكون على هذه المنظومة شرح مقتضب يبين إشاراتها، ويشارك ناظمها في نشر سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، والتي أضحت بعيدة كل البعد عن حياة الكثير من أمته في هذا الزمان، بل إن الغالب الأكثر لا يعرف من سيرة نبيه شيئاً يذكر بل ولا يستطيع حتى أن يذكر نسبه عليه الصلاة والسلام الثابت في الصحيح عنه، والناظر الحصيف يرى أن هذا الأمر . وهو إبعاد الأمة عن سيرة نبيها وتعلمها وتعليمها وغرسها في نفوس أمة الإسلام . لم يكن أمراً اقتضته الأيام، أو أمراً ينسى بمرور الأزمان، لأنه عليه الصلاة والسلام لا إيمان لمؤمن إلا عن طريقه ولا نجاة لمسلم إلا من بابه، فهو مذكور في كل لحظات المؤمن فلا يتفوه بالشهادة متفوه إلا وِدَكُرُ أحمدَ على لسانه، ولا يدخل الداخل في الإسلام إلا إذا ذكره واعتقده بقلبه وجنانه، ولا يرتفع صوت المؤذن إلا بذكر محمد عليه الصلاة والسلام في أذانه، ولا يصلي مصلٍ إلا ويذكر في صلاته النبي ويسلم عليه ﷺ، وهكذا من يوم ولادة المسلم إلى نهاية خروجه من الدنيا ونبيه يكرر عليه ويدخل في جميع أوقاته ولحظاته في جنبات مسامعه وجوانح قلبه وخطرات هواجسه، إذاً فإن أمر الابتعاد عن سيرته لم يكن بالأمر الذي ينسى بتتابع طيات الزمن ومرور الأيام، بل هو أمر دُبِّرَ لبليل حتى إذا ما مر ذكره عليه الصلاة والسلام يكون ذكراً عابراً لا أكثر ولا أقل؛ لأن المذكور إما أن يكون له وقع في القلب، وصدى في النفس، وتعلق في الخاطر ينتج عنه بحث عن كل صغيرة وكبيرة عن ما يتعلق بذلك

المذكور وعندها يكون التأثر من الذاكر فما من خلة يتصف بها ذلك المذكور إلا حاكاه الذاكر له واشتغل بالاتصاف بأوصافه ومحبة ما يحبه والتعلق بما تعلق به فكان كمال الاتباع مع كمال المحبة، وهي الغاية من نشر سيرته عليه الصلاة والسلام بعد غرس محبته وتبيين الواجب على أفراد الأمة تجاهه صلى الله عليه وآله وسلم. وإما أن لا يكون له وقع في القلب بل هو مجرد ذكر يتكرر عادة دون ارتباط قلبي فمن أين سيقع البحث وما أسلفناه آنفاً.

نعم الحق أن الأعداء استطاعوا أن يصلوا بالأمة إلى الغفلة والتغافل عن ارتباطها القلبي، التي تنشئ عنه المحبة ثم الاتباع للحبيب صلى الله عليه وآله وسلم، وأفلحوا في ذلك حتى أصبح ذكر الحبيب لا يعني شيئاً عند الأكثر من أفراد الأمة.

وللإعلام دوره، فالدور الإعلامي الأول الذي كان يوجهه ويغرسه العلماء والدعاة، ومن ثم الأفراد والأسر ثم المجتمعات نحو محبة الحبيب والارتباط به ونشر سيرته تقلص أو قلص بطريقة أو أخرى. وكان النشر الإعلامي لنهج معاكس وارتباط لما يُروّجون له في إعلامهم من رموز سخيفة جسدت في ما وُجّهت الأمة إليه من لهو فارغ ومتع زائفة فجسدت ونشرت سير اللاعبين والعابثين واللاهين، وتتبّع أبناء الأمة أخبارهم وفرغوا لها أوقاتهم، فسقطت الأمة لما غفلت عن رمزها الحقيقي وعن نشر سيرته. وبقي الواعون من هذه الأمة . في خضم هذا الطوفان المتلاحق بإعلامه ودور نشره وتعدد وسائله . يأخذون بأيدي الأمة ما

استطاعوا ويعيدونها إلى ارتباطها بحبيبتها ورمزها عن طريق نشر سيرته، فنوعوا في نشرهم للسيرة في محيطهم ومجتمعهم بألوان علهم يدركون من لم يطله ذلك الطوفان فيأخذون بيده، لذلك نشروا الكتب، ووضعوا الأراجيز في سيرته عليه الصلاة والسلام، وعملوا الاحتفالات؛ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. وتعددت الوسائل للوصول إلى مقصد فقدته الأمة ولكن رغم ذلك كانت الحرب على هؤلاء المخلصين بالمقابل، فروح الأعداء أن هذه الوسائل مبتدعة، وخلطوا بين تبديع الوسيلة وتبديع المقصد، أي خلطوا على الأمة التي قد شلت أكثر جوانبها من أولئك المغرضين حتى يتم لهم شل جميع الجوانب ويحقق لهم صرف الأمة بالكلية عن نشر سيرة نبيهم، ومن ثم ارتباطهم به بعد تحقق محبته في نفوسهم وجعلوا لذلك صوتاً مضاداً قوياً ينعق بالتبديع والتفسيق والتكفير لأولئك الذين يجتمعون على قراءة سيرة ميلاده وحوادث سيرته ومن يجبب الأمة في نبيها ويربطهم به، (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون).

وقد شط بي القلم إلى ما ذكرته، والحاصل أنني قد أسررت للناظم حفظه الله تعالى بأن تشرح تلك المنظومة وأن يقوم بشرحها أحد من تلامذته، فعندما أتخفني بنسخة منها وتأملتها مرات وكررت قراءتها كرات جد العزم عندي وقوي الخاطر أن أعلق عليها هذه التعليقة التي كتبتها وسميتها: (غيث السحابة المطرة شرح الحديقة النظرة في نظم السيرة العطرة).

فإن كنت قد وفقت فيما كتبتة فيها فالتوفيق من عند الله تعالى،
وإن ظهر فيها نقص فهو مني والنقص من طبائع البشر، ومن لاحظ شيئاً
من الخلل وكان من أهل الإصلاح فليصلحه أصلحه الله تعالى.
إن تجد عيباً فسُدَّ الخللاً جل من لا عيب فيه وعلا
والله أسأل أن ينفع بهذا الشرح كما نفع بأصله وهو حسبي ونعم
الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله وسلم على سيدنا
محمد وآله وصحبه أجمعين.

المؤلف

(بسم الله الرحمن الرحيم)

بدأ بالبسملة كما هو ديدن العلماء ولم ينظمها للخلاف في كراهة نظمها وأتى بها تأسياً بالقرآن الكريم حيث بدأ بها في تنزلاته جميعاً. والقرآن له تنزلان جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا كما هو على صفته في المصحف الذي بين أيدينا الذي أوله بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين (سورة الفاتحة) إلى آخر قل أعوذ برب الناس. ونزوله الثاني منجماً على حسب الحوادث وذلك بنزول جبريل به على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والذي أول ما نزل منه {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} وآخر ما نزل قوله تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}.

ثم أتى بالصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل الحمد في نظمه وذلك لأن الموضوع في ذاته صلى الله عليه وآله وسلم فكان من براعة الاستهلال أن يبدأ بالصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم لأن ما ضمنه نظمه هذا. وهي السيرة العطرة. له أغراض جمّة ومنها:

- 1) الإشارة إلى سيرته في هذا النظم على جهة الشمول لا الإحاطة.
- 2) تنشئة الأبناء على معرفة سيرة نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم وتذكير العامة بهذه السيرة العطرة.
- 3) تحبيب الناشئة والعامة في نبيهم بسماع أخباره وذكر أخلاقه والتنويه على معجزاته عليه الصلاة والسلام.
- 4) الاجتماع على حضور سيرته وإدراك جوانب منها بقراءة هذه المنظومة.

5) الإكثار من الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم وهو ما ركز عليه في فصول هذه المنظومة وتعويد الأبناء عليها والعامّة حتى يكثرُوا من الصلاة عليه لما فيها من البركات والسعادات.

من أجل ذلك قال الناظم حفظه الله (براعة الاستهلال) أي بالصلاة عليه ﷺ والتي سماها الصلاة (المحمدية) وطلب من الله تعالى أن يصلي على نبيه إذعانا لأمره تعالى حيث يقول: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} وتلبيةً لقوله عليه الصلاة والسلام: "من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً...".

فقال (يا ربّ صلّ عليّ مُحَمَّدٌ) وجرّد اسمه عليه الصلاة والسلام عن لفظ يليق بالإتيان به قبل لفظ اسمه إذ لا ينبغي ذلك تأدباً معه لما سيستشفعه بعد ذلك من نعوتٍ وصفه بها عليه الصلاة والسلام لاثقة بمقامه العالي وجنابه الراقى وبما أنه هو عليه الصلاة والسلام مقصودنا وصفه الناظم بقوله: (قُدُوتِنَا الْحَقُّ) الذي أمرنا أن نقتدي به (في الدِّيَانَةِ) (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وهناك من يتبع غيره ويقتدي به فهي قدوة باطلة. وفيه تنبيه لأبنائنا وبناتنا أن يجعلوا اقتداءهم الحقيقي الحق بالرسول الأعظم ومن أجل ذلك لا بد من معرفته وسيرته وشمائله والذي من أجله كانت هذه المنظومة.

وهو عليه الصلاة والسلام أفضل الخلق على الإطلاق كما وصفه الناظم بقوله: (أَفْضَلُ عَبْدٍ رَعَى الْأَمَانَةَ) في كل شيء بمعناها العام الشامل وهي صفة واجبة له ملازمة له ملازمة الظل للشاخص،

وهو الذي (أَعْلَاهُ رَبِّي) على جميع الخلق على الإطلاق و(أَعَزُّ شَانَهُ) على سائر أقرانه من الأنبياء والمرسلين حتى أخذ عليهم العهد أن إذا برز إلى حيز الوجود يتركون ما عندهم من رسالة ويتبعونه ويكونون من أتباعه وبه الله رفع شأن أمته وجعلهم خير أمة أخرجت للناس وهو الذي (أَزَاحَ عَنَّا) معشر الأمة (ذُلَّ المَهَانَةُ) الكفرية والعبودية لغير الله تعالى (و) بذلك (أَكْبَتَ) الله به (الْكُفْرَ) حتى طهر الجزيرة العربية من عبادة الأوثان والأصنام وامتدت دعوته إلى الأسود والأحمر والأبيض. وقلص الكفر (بَلَّ) أَهَانَهُ) بكشف باطله أي من العبودية لغير الله تعالى فحرر العقول من ريقه العبودية للمخلوق وجعلها عبودية للخالق وبهذا يكون (أَشَادَ مَجْدًا) للإنسانية بهذا الدين و(أَعْلَا مَكَانَهُ) بإعلاء أتباعه على سائر الأمم.

وهو الذي (حَبَاهُ مَوْلَاهُ) بهذا الشرف العظيم والرسالة الخالدة التي تحمل أعباءها وتبليغها (بَلَّ أَعَانَهُ) على حملها وتبليغها وكان مؤيداً له بالمعجزات التي من أعظمها القرآن الكريم الحاوي سعادة البشرية و(سِرُّ المَثَانِي) أي سر القرآن الكريم، سماه كذلك لأن المسلم يتنبيه أي يُعيد تلاوته كلما انتهى منه (أُعْطِي) الحبيب عليه السلام (بَيَانَهُ) وأشار الناظم بهذا إلى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "أعطيت القرآن ومثله معه".

وبعد هذا فأقول (يَا فَوْزَ عَبْدٍ) محب معظم له عليه الصلاة والسلام (أُنْدَى لِسَانَهُ) أي بلها (شُكْرًا وَذِكْرًا لَللَّهِ صَانَهُ) بالإخلاص ثم ثنى بالصلاة على نبيه عليه الصلاة والسلام مع كون (صَلَاةً طَهُ) أي التي

صلاها على طه . وهو من أسمائه صلى الله عليه وآله وسلم . (تُحْيِي كَيَانَهُ) أي باطنه وظاهره ولم لا وهي تستدر بها الرحمة ويتصل بها المصلي بحبيبه ونبيه . ومن ثم ذكر جملة من فوائد الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله (وَمَنْ) أي والذي (يُصَلِّي) عليه عليه الصلاة والسلام (يَصْفُو جَنَانَهُ) أي قلبه لما يودعه الله تعالى فيه من أنوار وأسرار بفضل الصلاة والسلام على النبي المختار بل (يَزِيدُ) بتلك الصلاة (أَجْرًا) وإليه أشارت الأحاديث لما فيها من امتثال أمر الرب في قوله: (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين ءامنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) . و(كَذَا) يزداد (حَصَانَهُ) أي حفظاً من الله تعالى بسبب صلاته على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ويكفي هم الدنيا والآخرة . وأشار بهذا إلى حديثه عليه الصلاة والسلام لكعب بن عجرة حيث قال: قلت يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: "ما شئت"، قلت: الربع؟ قال: "ما شئت وإن زدت فهو خير لك"، قلت: النصف؟ قال: "ما شئت وإن زدت فهو خير لك"، قلت: إذا صلاتي كلها لك؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: "إذا تكفى همك ويغفر ذنبك".

لذلك قال الناظم بعد هذا (يا رَبِّ صَلِّ عَلَيَّ مُحَمَّدٌ) الذي (في الخافقين) أي في جميع الدنيا علوها وسفلها ملكها وملكوها (لَهُ) فيها (المكانة) الرفيعة فهو يذكر في كل مكان فيها . فيا رب صلِّ عليه (و) بهذه الصلاة (صَفِّ قَلْبِي) من الكدرات التي تعتريه (واجلِ رَأْنَهُ) من

سواد ما يدهمه من شواغل وخواطر وأمور دنيويات وهمم ساقطات وارفعه إلى قلوب أهل اليقين والتمكين، وهذا من فوائد الصلاة والسلام على الرسول الأمين عليه صلوات ربي وسلامه في كل وقت وحين. (و) بهذه الصلوات تكون الارتباطات بالحبيب صلى الله عليه وآله وسلم، فيها (أَهْزَمَ) يا (إِلَهِي أَهْلَ الْخِيَانَةِ) سواء خيانة بالكفر أو بالمعاصي أو بتفريق المسلمين وإبعادهم عن موارد رسولهم عليه الصلاة والسلام فيا رب صل عليه (وَاجْعَلْ صَلَاتِي) التي أصليها عليه (غَدًا) أي يوم القيامة (ضَمَانَةً) لي من أهوال ومصائب ذلك اليوم ثم ختمها بالصلاة والسلام عليه كما بدأها بها رجاء قبول ما دعا به ربه فإنه أكرم من أن يقبل الصلاة عليه . لأنها مقبولة عنده . ولا يقبل ما بينهما .

(شرف النعمة)

عقد هذا الفصل وما بعده توطئة وتهيئة للدخول على سيرته صلى الله عليه وآله وسلم والتي أولها ولادته الشريفة وفي هذه التوطئة والتهيئة الداخلة على سيرة الجناب المعظم عليه الصلاة والسلام بين وأوضح عظيم منزلته عند مولاه وأن خالقه وباريه أمر بتعظيمه وتفخيم أمره ومحبته وأوجب ذلك على سائر خلقه من إنسه وجنه وملائكته خاصهم وعامهم لأنه عليه الصلاة والسلام (مِنَّةُ اللَّهِ عَلَيْنَا) وعلى جميع المخلوقات (أَبْدَا) سرمدًا وظهرت هذه المنة ظهورًا لازمًا وواضحًا (يَوْمَ مِيلَادِ النَّبِيِّ أَحْمَدًا) وهو المسمى به في التوراة حيث قال: {وَمُبَشَّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} وبمولده (حَصَّنَا) من دون سائر الأمم (الْمَوْلَى بِفَضْلِ دَائِمٍ) لأنه حفظنا من الأنبياء ونحن حفظه من الأمم وبه كنا {خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}. (إِذْ هَدَانَا) مولانا (بِالْحَبِيبِ الْمُقْتَدَى) الذي يقتدي به كل سعيد ويتعد عن موارد كل شقي قال تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} قال ابن عباس: أما الكتاب فقد عرفناه وأما النور فمحمد بن عبد الله. والذي به (يهدى الله لنوره من يشاء) وهو صلى الله عليه وآله وسلم (شَرَفُ النِّعْمَةِ) أي من أشرف النعم التي خص الله بها بني البشر ومن ثم كان الانتماء له عليه الصلاة والسلام من أعظم النعم التي تمننتها حتى الأنبياء فمن أجل ذلك نشكر (شكرًا) واسعًا عظيمًا (لِلَّذِي هَيَّأَ) وهو الله (الْأَسْبَابَ خَتْمًا) يجعل هذا الرسول خاتم الأنبياء والمرسلين قال

تعالى { مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ }
 ختم برسالته الرسالات وجعل نبوته قفلاً للنبوات (و) هو عليه الصلاة
 والسلام كما كان ختماً كان (ابتداءً) إشارةً لحديثه عليه الصلاة والسلام
 حين سئل متى كنت نبياً؟ فقال: "وآدم مجنوداً في طينته"، وفي رواية: "قبل
 أن يخلق الله آدم بألفي عام"، ولقوله تعالى: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ
 وَمِنكَ وَمِنْ نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا
 غَلِيظًا }. فتقديم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية دليل على تقدمه
 في الخلق.

والمولى سبحانه وتعالى (مُسْتَحِقُّ الْحَمْدِ) لذاته العلية كما أنه
 مستحقه له من عبده (من) أي بسبب (إفضاله) سبحانه وتعالى على
 عبده بالفضائل الجمّة والنعم المتكاثرة التي لا تحصى (ومن الإفضال)
 الذي تفضل به المولى على عبده (إتماماً) لهم (الندى) أراد به بعثته عليه
 الصلاة والسلام لهم وإيمانهم به وتصديقهم له وتوحيدهم إياه وتعظيمهم له
 لذلك قال الناظم (أَيُّهَا الرَّاجِي) أي الذي يرجو من مولاه (ثواباً دائماً)
 أي في سائر الأوقات (وَجَّهَ الْقَلْبَ) نحو الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم
 واملاً قلبك به وأكثر من ذكره وطالع سيرته وتشبع بها حتى تبلغ الغاية في
 محبته واتباعه عند ذلك (تَنَالِ الْمَدَدَا) الذي رجوته من مولاك والارتباط
 بجيبك الذي تسعى إليه (و) من جملة ما تُحْصَلُ به ما أردت من سمو
 الروح وطهارة القلب مع سعيك لذلك حق السعي ما ذكره الناظم بقوله

(اجْعَلِ الْأُورَادَ) المأثورات عنه عليه الصلاة والسلام والتي أجزاها الله على يد الكمل من أتباعه (ذِكْرًا تَالِدًا) أي خالدا في جميع أوقاتك. والأوراد عليها معول كبير فهي تحفظ الإنسان في نفسه وأهله وماله وعليها المدار الكبير في الوصول إلى الله تعالى القائل: {فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}، والقائل: {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ} وهي التي غرسها النبي عليه الصلاة والسلام في أصحابه وبها يأمر المشائخ المريدين وملازمتها من طرائق أصحاب اليمين ولا يغفل عنها إلا من احتوشته الشياطين ولا ينهى عنها إلا إبليس اللعين وأعوانه من الجن والإنس أجمعين (و) من الأذكار المأمور بها والتي يحث عليها العلماء وهي ديدن الصالحين في ليلهم ونهارهم أن تجعل (صلاةً وسلاماً) كثيرين متلازمين (للهدى) أي لمن هدانا الله وأنقذنا به قال تعالى {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} إذاً فهو (سَيِّدُ النَّاسِ) على الإطلاق وكلمة سيد لها معان كثيرة وهي من الألفاظ المشتركة التي تطلق على الله سبحانه وتعالى وعلى غيره كما في الرحيم تقول الله رحيم وفلان رحيم قال تعالى في حق نبيه عليه الصلاة والسلام {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} والسيد إذا أريد بها المعنى المطلق فإنها تطلق على الله كما ورد: "إنما السيد" أي على الإطلاق "الله". وإذا أريد بها معانٍ أحر كالمطاع في قومه أو من كثر أتباعه أو من شرف عند عشيرته فتطلق على من قام به ذلك الوصف وقد ذكر تلك المعاني وإطلاقها في القرآن والسنة وكلام

الصحابة ومن بعدهم من أهل العلم فقد قال تعالى في سيدنا يحيى عليه السلام: {سَيِّدًا وَخَصُورًا} وقال عليه الصلاة والسلام في سيدنا الحسن: "إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين طائفتين عظيمتين من المسلمين"، وقال في سيدنا الحسن وسيدنا الحسين: "إنهما سيذا شباب أهل الجنة"، وقال لقوم سيدنا سعد بن معاذ رضي الله عنه: "قوموا لسيدكم" لما أقبل عليهم والنبي جالس معهم، وقال سيدنا عمر في حق سيدنا أبي بكر وسيدنا بلال رضي الله عنهم "سيدنا" يعني أبا بكر "أعتق سيدنا" يعني باللاً. وقد ورد أنه عليه الصلاة والسلام قال: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر"، ومن كان سيداً في ذلك اليوم العظيم ألا يكون سيداً في أيام الدنيا الفانيات بل هو أيضاً (إمامٌ عَلَمٌ) وكيف لا يكون وهو إمام المرسلين وقد تقدم عليهم في ليلة الإسراء بالصلاة بهم مع كونهم مجتمعين من سيدنا آدم إلى سيدنا عيسى عليهم السلام وتقديمهم للحبيب عليه الصلاة والسلام دليل على إمامته.

و(فَضْلُهُ) عليه الصلاة والسلام (في البَيِّنَاتِ) أي الآيات القرآنية (خُلِّدًا) أي أبداً على جميع من سواه وبذلك تكون (رُتْبَةُ الإِشْرَاقِ) لسائر الأنبياء (من أنوارِهِ) إذ ما من نبي إلا وأخذ عليه العهد بنبوته واتباعه عليه الصلاة والسلام فهو (بابٌ فَتَحَ) لمن آمن به وأحبه وعلق قلبه وجوارحه وأملاً فؤاده بسيرته فاشتاقت روحه له فتحقق فيه قوله تعالى: {وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ...} عندها فهو له (بَلَسَمٌ مِنْ كُلِّ دَا) من أدواء هذه الدنيا الفانية لأنه قدوته يتأسى بأخلاقه ويستن بسنته وسيرته نبراساً له في

حياته كلها فإن كان خيرا صرفه لرضا محبوبه مع الشكر الكثير وإن كان غير ذلك رضي بقضائه وصبر على مر مراده وإذا أردت الوصول إلى هذا المقام ف(مَكْنُ عَظِيمٍ) أي كبير (الشَّوْقِ) أي متعلقاً به مع ازدياد ذلك (في حَضْرَتِهِ) أي عند سماع سيرته وأوصافه مع الالتزام بأمره حتى يكون ما أمر به محبوباً لنفسك وإن كان شاقاً وما نهي عنه مُبْعَضاً لذاتك وإن كان محبوباً. فعندها (تَتَحَسَّنِي) أي تشرب علة من بعد نحلة (كَأْسٍ) أي شراب (ذَوْقِ السُّعْدَا) الذين قال فيهم مولاهم: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا}. ف(سَعِدَتْ نَفْسٌ) تقدم منها ما سبق مع كونها (أَحَبَّتْ أَحْمَدًا) أي قرنت الاتباع بالحببة فإذا انفك الاتباع عن الحببة فلن يظفر صاحبه بشيء مطلقاً ولكن يكفي الإنسان الاتباع في الأوامر والاجتناب عن النواهي وإقامته ذلك مع القيام بنوافل العبادات ما استطاع لذلك سبيلاً مع الحببة الخالصة الكاملة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتي يجسدها الحديث الذي كان بلسماً لكثير من نفوس الأمة وفي مقدمتها أنفس أصحابه تلاميذ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عندما وقف ذلك الأعرابي الذي تجسدت في جوانبه وجوانح قلبه محبة الرسول عليه الصلاة والسلام فما شعر إلا وهو يقول له المرء يحب القوم ولما يلحق بهم أي في كثرة أعمالهم وإقبالهم على الخير وكثرة الطاعات لكن مع قيامه بالواجب وترك المنهي ما استطاع لذلك سبيلاً فقال له عليه الصلاة والسلام: "المرء مع من أحب"، وفي أخرى:

"المرء مع من أحب يوم القيامة" (و) أما إذا (تَفَانَتْ) تلك النفس (في) اتِّبَاعِ الْمُفْتَدَى) مع كون ذلك الاتباع مقرونا بالرابط الحقيقي ألا وهو (عَايَةَ الْحُبِّ) له عليه الصلاة والسلام فإن تلك الأمور (تُنَادِي أَهْلَهَا لِيَنَالُوا مِنْ نَدَاهَا الْمَدَدَا) أي الاصطفاء الكامل والارتقاء إلى مصاف أهل الولاية والتمكين (فِإِنَّ حُبَّ الْمُصْطَفَى مَكْسِبُنَا) لنيل تلك الدرجات (وكذا) أي وكذلك حبه عليه الصلاة والسلام يقود إلى حب (الآل نجوم الإِهْتِدَا) فإن من أحبهم فحببه أحبهم ومن أبغضهم فببغضه أبغضهم كما في الحديث، وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام: "أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله عز وجل وأحبوا أهل بيتي لحبي"، (فهكذا الإسلام) أي الدين (يَدْعُو أَهْلَهُ) أي أهل الملة (لِيَصِيغُوا الْحُبَّ) لله ولرسوله ولآل بيته ولأولياء الله المقربين ولسائر المؤمنين (عَقْدًا مُفْرَدًا) أي فريداً (تَتَجَلَّى فِيهِ آيَاتُ الرِّضَا) بما جاء به الدين وحب من أمرنا الله بحبه من الأنبياء والمرسلين وعلى رأسهم سيد الأولين والآخرين وآل بيته الطاهرين والأولياء والصالحين، والاتباع لهم لأنهم نجوم هداية في كل عصر ووقت وفي كل مكان يحلون فيه فهم رموز الهداية ومنار الهدى (و) بذلك (يَسُوذُ الْأَمْنُ) على الناس قاطبة (دَوْمًا أَبَدًا) من غير انقطاع. فيا (رَبِّ حَقِّقْ) أي اجعل (حُبَّنَا فِي الْمُصْطَفَى) عليه الصلاة والسلام محققاً (واهدِنَا) أي دلنا وأرشدنا (لِلصَّالِحَاتِ) أي الأعمال الصالحات بجميع أشكالها وصورها (أَبَدًا) ما أحييتنا.

فصل في (البشارات) به عليه الصلاة والسلام

قد بشر به مولاه (من قديم الأزل الماضي) حيث جرى (حُكْم) أي قضاء (رَبِّ الخَلْقِ) أي خالقهم (جَزِيئاً) على حسب إرادته الأزلية (سَرْمِداً) أي أبداً (أَنَّ لِلْعَالَمِ) وهو كل ما سوى الله تعالى (طَهة مُرْسَلٌ) إليهم سابقهم ولاحقهم إنسهم وجنهم وملائكتهم فهو رسول رب العالمين للخلق أجمعين رسالة تكليف للإنس والجن وكذا الملائكة على ما اعتمده العلامة ابن حجر الهيتمي رحمه الله قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ فرسالته إذاً عامة لجميع الخلق ولا بد من اعتقاد ذلك واعتقاد أنه (خَاتَمٌ لِلرُّسُلِ) فلا رسول ولا نبي بعده (وَهُوَ) أيضاً (المُقْتَدَى) أي القدوة للجميع أما لأمته فلا قدوة لهم غيره وأما غيرهم فأخذ العهد على سائر الأنبياء والمرسلين ومن ثم ألزمهم أن يقتدوا به فإنه (كُلَّمَا جَاءَ نَبِيٌّ قَبْلَهُ أَخَذَ) الله (العَهْدَ) عليه أن يؤمن بمحمد وأن إذا ظهر أن يترك ما بيده من رسالة ويتبعه ويكون تابعاً له ومعه أمته، فإن لم تفعل فقد خالفت أمر الله عز وجل. (كما أُعْطِيَ) كل نبي (اليداء) على ذلك أي العهد والميثاق بل وفوقه أن (يُنْصَرُ الْمُخْتَارَ) أي يكون من جملة أتباعه الذين ينصرونه (لَوْ أَدْرَكَهُ) ويكون (تَابِعاً فِي رُكْبِ طَه) وتاركاً لرسالته وشريعته و(مُرْشِداً) لما جاء به نبينا عليه الصلاة والسلام. وهذا مما خص الله تعالى به رسوله محمداً وهو أخذ العهد على جميع الأنبياء والمرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام كما تقدم قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا

مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضُكُمْ وَأَخَذْتُكُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ}. ولهذا قال علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم وقتادة والسدي وقرئب منه قول الحسن وطاووس كما ذكر ذلك الطبري وابن كثير وغيرهما من أهل التفسير: ما بعث الله نبياً من الأنبياء . من لدن نوح . إلا أخذ ميثاقه ليؤمنن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ولينصرنه إن خرج وهم أحياء ولهذا فما من نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلا عنده علم به صلى الله عليه وآله وسلم وبمبعثه وزمانه ومهاجره وعلاماته وأوصافه قال عليه الصلاة والسلام: "إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمجنل في طينته وسأخبركم بأول أمري أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأيت حين وضعتني وقد خرج منها نور ساطع أضاءت منه قصور الشام" رواه أحمد وابن حبان والحاكم. فدعوة إبراهيم في قوله تعالى: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ} وبشارة عيسى في قوله تعالى: {وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} وذكر جماعة من علماء التفسير في قوله تعالى: {فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} أن آدم توسل بمحمد عليهما الصلاة والسلام إلى ربه في غفران ذنبه فغفر له. انتهى

ومن عظيم القدر والمنزلة أن (كَانَ طَهَ) عليه الصلاة والسلام (عَلَمًا) فرداً ليس له مثال (في عالم الدَّرِّ) لأن الله تعالى خلق أرواح العباد في عالم الذر وأشهدهم أنه ربهم وخالقهم ورازقهم وأعلمهم بذلك وعندما أتم خلقهم ناداهم ألسنت بريكهم فأحجمت الأرواح عن الرد لكن طه (كما

قدكان) علماً مفرداً كان أيضاً (رَمْزاً) فريداً (للنِّداء) أي في الرد على نداء ربه فتقدمت روحه من بين الأرواح فقالت بلى فتبعتها عند ذلك أرواح الأنبياء والمرسلين والموحدين وسائر الأرواح بالإجابة وفي ذلك يقول تعالى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ). بل إن من عظيم شرفه وقدره أن (بَشَّرَ) به سيدنا عيسى قومه كما تقدم وكتابه (الإنجيلُ و) بشر به أيضاً سيدنا موسى عليه السلام و كتابه (التوراةُ) قال تعالى على لسان سيدنا عيسى عليه السلام: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ}. وعلى أنه منصوص في توراة موسى أشار إلى ذلك القرآن بقوله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ} وهذا التبشير في التوراة والإنجيل هو أيضاً (ما بَشَّرْتُهُ) الرسل لأممهم في كتبهم التي هي (سابقَاتُ الإِهْتِدَاءِ) أي الكتب المنزلة على الأنبياء السابقين وقد تقدم أنه ما من نبي إلا وقد أخذ عليه العهد. ف(بهكذا كان) عليه الصلاة والسلام (عظيماً أزلأً) كما مر (و) يظل (عظيماً) عظمة ملازمة له حتى (يَوْمَ نَلْقَاهُ غَدًا) في يوم القيامة فهذه العظمة تظهر على سائر الخلق في يوم (يَصْمُتُ الْكُلُّ) خوفاً ووجلاً من الله المتجلي فيه بالغضب الأكبر فتحثوا الأنبياء والأمم على

الركب { وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلِّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا } { وَلَنْ تَلْقَى } أي تجد (سوى سيّد الكونين) أي الدنيا والآخرة فهو سيد ولد آدم ولا فخر لعظيم قدره وظهور فضله (يَدُنُو) من مولاه (ساجدا) متذلاً خاضعاً شافعاً لأهل الموقف من هول ذلك اليوم ويخلص الناس من العناء والخوف والوجل (فِينَادَى) من قبل الحق عندما يرى حبيبه ومصطفاه متشفعاً لأهل الموقف وهي الشفاعة العظمى (اشْفَعُ) يا محمد يا حبيبي (تُشَفِّعُ) فيمن أردت (وَلْتَقُمْ) من سجودك فقد أجبتك حال كونك (سائلاً) لأهل الموقف الشفاعة لفصل القضاء فأنت الذي (تُغَطِّي الْمَقَامَ الْأَوْحَاداً) فلا أحد غيرك له المقام هذا فإن (ذَا مَقَامُ الْحَمْدِ) أي المقام المحمود والذي قال فيه عليه الصلاة والسلام: "وإني لقاتم المقام المحمود". و(قد نازلته) أي ذلك المقام (سَيِّدُ الْعَالَمِ طَهَ أَحْمَداً) الذي يحمد عليه الأولون والآخرون.

وضح ذلك حديث الشفاعة قال العلامة محمد بن علوي المالكي في كتابه البيان والتعريف في ذكرى المولد النبوي الشريف: [وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة . رضي الله عنه . قال: أتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً بلحم، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه؛ فنهش منها نمشة وقال: "أنا سيد الناس يوم القيامة .. هل تدرون لم ذلك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فينظرهم الناظر، ويسمعهم الداعي، وتدنو منهم الشمس فيبلغ بالناس من الغم والكرب ما لا يطيقون، وما لا يهتملون؛ فيقول الناس: ألا ترون إلى ما أنتم فيه إلى ما بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع

لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم .. فيأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقتك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة .. ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى إلى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فقال: إن ربي غضب غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت .. نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح! فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً .. أما ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كان لي دعوة دعوت بها على قومي .. نفسي .. نفسي .. نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم! فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وحليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك .. أما ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني كنت كذبت ثلاث كذبات .. نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك .. أما ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلْتُ نفساً لم أؤمر بقتلها .. نفسي .. نفسي .. نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى! فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه،

وكلمت الناس في المهدي .. اشفع لنا إلى ربك .. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً .. نفسي .. نفسي .. نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد! فيأتون محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فيقولون: يا محمد أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر .. اشفع لنا إلى ربك .. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنتقل، فأتي تحت العرش، فأقع ساجداً للربي، ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، واسأل تعطه، واشفع تشفع .. فأرفع رأسي فأقول: أمّتي يا رب، أمّتي يا رب. فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيده إن ما بين المصرعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى". والأحاديث في ذلك كثيرة ظاهرة الدلالة على أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد أُعطي من الخصائص والفضائل ما فضل به جميع العالمين، وتقدّم به على الأولين والآخريين، ويكفيك ما حصل له من القرب ليلة الإسراء حتى كان قاب قوسين أو أدنى، وفاز من الكلام والرؤية بالمقام الأسنى. وفي قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "أنا سيد الناس" ما يشير إلى ذلك، ويبين فيه أوضح المسالك. فإن السيد من ساد غيره بجميع المناقب، وذلك مشعر بعلو المراتب. وفي قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "ما من نبي .. آدم فمن سواه إلا تحت لوائي"،

إشارة إلى التبعية والسيادة. إذ لا يحمل لواء القوم إلا أميرهم وسيدهم وقائدهم على ما عرف للعرب من العادة. وقوله في الحديث الآخر: "أنا خيرهم نفساً" صريح في التفضيل ومثبت لهذا الحكم بأوضح دليل. وكذلك قوله: "إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم"، والإمام أفضل من المأموم وكذلك الشافع. وهو صريح في التبعية، والمتبوع أفضل من التابع! وقوله في الحديث الآخر عند ذكر خصيصة كل شيء: "ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه ولا فخر" تحقيق للمعنى المتقدم من السيادة والتقدم. وقوله بعده: "وأنا أول من يحرك حلق الجنة" دليل على سبقه إلى الثواب ومرتبته بأنه أول من يُفتح له الباب. ثم إنه صلى الله عليه وآله وسلم أكد هذا المعنى بقوله في هذا الحديث: "وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر". وهو نص فيما أوردناه ودليل مثبت لما قلناه. وفي حديث الشفاعة من بيان فضله وخصوصيته على غيره ما لا يخفى. وفيه إثبات الشفاعة العظمى، وهي إحدى الشفاعات الخمس التي لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم التي لم يجمعها أحد سواه. وهي الشفاعة في الموقف لفصل القضاء، والشفاعة فيمن يدخل الجنة من أمته بغير حساب، ليدخلوا معه عند دخول الفقراء، والشفاعة في قوم ليخرجوا من النار، والشفاعة في قوم ليدخلوا الجنة ممن حبستهم الأوزار، والشفاعة في قوم لرفع الدرجات. ومجموع هذه الشفاعات لم يثبت لغيره في وقت من الأوقات. وفي الحديث دقيقة أخرى وهي أن كل نبي إنما يدل على من بعده من المذكورين في الحديث، ولا

يبتدئ بالدلالة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم لإظهار فضله ومرتبته على البقية، فلو دلّ عليه آدم ابتداءً ليشفع لم يظهر إحجام غيره عن الشفاعة، بل دلّ على من يحجم ليحجم ذلك المدلول عليه، ويدل على من يحجم بعده، إلى أن ينتهي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيقوم بما ويقول: "أنا لها". وفيه مما يحقق ذلك أن كل نبي يذكر له مانعاً إلا عيسى؛ فإنه يمتنع ولم يذكر ذنباً، وذلك دليل على أن امتناعه لكونها لغيره! وفي الحديث دقيقة أخرى يفهم من ذكر كل نبي لما يمنعه من الشفاعة أن الله سبحانه وتعالى لم يعلمهم ما أعلم به نبيه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم من غفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر، إذ لو أعلمهم لم يخشوا في ذلك المقام، ولم يجعل كل منهم ما ذكره سبباً للإحجام] اهـ.

فصل في (الاصطفاء)

أي اصطفاء الله للرسول صلى الله عليه وآله وسلم على سائر الخلق واصطفاء قومه على سائر الأقسام لذلك قال الناظم: (هياً الله قريشاً) لشرف عظيم وجعلها صاحبة مقام فحيم واصطفاهما على سائر القبائل باصطفائه لنبيه الكريم وأشار إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ومعنى (من أنفسكم) بضم الفاء أي منكم، وفي قراءة: (من أنفسكم) بفتحها أي من خياركم (واصطفى من قريش) وهم خيار العرب بل خيار الناس كلهم (خير فرع) وهم بنو هاشم وخيرهم هو ال(مقتدى) صلى الله عليه وآله وسلم فهو (من أصول زاكيات) أي ربيعات طيبات (كلها) أي جميعها (قد نمت) أي ترعرعت (صيداً) أي رفعت على غيرها (وطالت سؤوداً) أي على غيرها من بطون قريش فقد اتفق أهل الجاهلية والإسلام على أن قريشاً أفضل العرب وأن بني عبد مناف أفضل قريش وأن بني هاشم أفضل بني عبد مناف وأنه صلى الله عليه وآله وسلم أفضل بني هاشم كل ذلك (ليجيء المصطفى) عليه الصلاة والسلام (من دوحه) ربيعة وأرومة عالية (لم يصبها خلل) يعكر شرفها وسؤودها (طول المدى) أي الأوقات قال صلى الله عليه وآله وسلم: "بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى كنت من القرن الذي كنت فيه". رواه البخاري وقال صلى الله عليه وآله وسلم: "إن الله اصطفى من ولد إبراهيم اسماعيل

واصطفى من ولد اسماعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشاً واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم". رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح. وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: "إن الله عز وجل اختار خلقه فاختار منهم بني آدم فاختار منهم العرب ثم اختار منهم قريشاً فاختار منهم بني هاشم ثم اختار بني هاشم فاختارني منهم فلم أزل خياراً من خيار ألا من أحب العرب فبحي أحبهم ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم" رواه الطبري.

قال البخاري في كتاب فضائل الصحابة باب مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم: [وهو صلى الله عليه وآله وسلم أبو القاسم محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف . أي: بفتح الميم . ابن قصي . أي: بضم القاف مصغراً . ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي . أي: مصغراً . ابن غالب بن فهر . أي: بكسر الفاء . ابن مالك بن النضر . أي: بضاد معجمة . ابن كنانة بن خزيمة . أي: مصغراً بالمعجمتين . ابن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

وهذا النقاء لأصوله عليه الصلاة والسلام فيه (حكمة تغني اللبيب) أي صاحب العقل (إن درى سرّ رجوى الحق في أهل الهدى) لأن من شرفت أصوله لم تدنو نفسه للذائل ولم يستشرف للخسائس والمدنسات (فبقاء الأصل) إذاً (شرط لازم) أي محتتم (لنقاء الأمر) الخطير (من كل اعتداء) أي نقيصة ينتقصها به خصوم صاحب هذا الأمر الخطير لذلك لم يبعث الله نبياً إلا كان وسطاً في قومه أي أعلاهم نسباً

وشرفاً. وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أتاني جبريل فقال قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر رجلاً أفضل من محمد ولم أر بني أب أفضل من بني هاشم". يقول عم النبي عليه الصلاة والسلام أبو طالب :

إذا اجتمعت يوماً قريشٌ لمفخرٍ فعبد منافٍ سرُّها وصَمِيمُها
وإن حُصِّلَت أشراف عبد منافها ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوماً فإن محمداً هو المصطفى من سرِّها وكرمها
وهذا النقاء العظيم في أصوله عليه الصلاة والسلام (سرُّ ربي
وهو) النبي صلى الله عليه وآله وسلم (قد أودعه) أي نقله (في أصول)
له (وفروع) من آبائه وأمهاته وكلهم كانوا (سُجَّداً) أي مؤمنين موحدين لم
يصبهم كفر ولا شرك. وإليك طرفاً من سيرة أصوله صلى الله عليه وآله
وسلم بدءاً بأبيه عبد الله يقول العلامة بحرق في كتابه حقائق الأنوار
ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار: [وكان عبد الله بن عبد المطلب والد
النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخذ فتى في بني هاشم . أي: أرفعهم
وأصبحهم . وجهاً، وأحسنهم خلقاً وخلُقاً، وكان نور النبي صلى الله عليه
وآله وسلم يُلوح في وجهه، وهو أول من فُدي بمئة من الإبل كما سيأتي .

وأما عبد المطلب فاسمه: شيبة الحمد، وإنما سمي عبد المطلب لأن
عمه المطلب بن عبد مناف أخذه من أمه سلمى الأنصارية النجارية، فقدم
به (مكة) يردفه خلفه، وكان أسمر اللون، فظن الناس أنه عبد اشتراه
المطلب، فقالوا: قدم المطلب بعبد، فلزمه ذلك الاسم، وكان شريفاً في

قومه، مبعجلاً عندهم، مُعْظَمًا، يوضَع له بساط في ظل (الكعبة)، لا يجلس عليه غيره، وكانوا يسمونه: الفيّاض؛ لسماحته وكرمه، وله منقبتان عظيمتان، وهما: حفر بئر زمزم، وإهلاك أصحاب الفيل.

أما بئر زمزم: فإنها كانت قد دفتتها السيول، واندرس أثرها، فرأى عبد المطلب في نومه من نبهه عليها، فلما أراد حفرها حسدته بطون قريش، وهما أن يمنعوه، فكفاه الله شهرهم، فنذر لئن رزقه الله عشرة من الولد يمنعونه؛ أن يتقرب إلى الله تعالى بذبح أحدهم، فلما تم العدد عشرة أعلمهم بنذره، فقالوا له: اقض فينا أمرك وأوف بنذرك، فأسهم بينهم، فخرج السهم على عبد الله، فلما أراد أن يذبحه منعه قريش، لئلا يكون فيهم سنة، فأفتاه كاهن أن يسهم عليه وعلى عشر من الإبل. وكانت العشر عندهم دية الرجل. ففعل، فخرج السهم على عبد الله، فقال له الكاهن: زد عشرًا، فإن ريك لم يرض، فزاد عشرًا، فخرج السهم على عبد الله، فقال زد عشرًا، فزاد عشرًا، فلم يزل يخرج السهم على عبد الله حتى بلغ العدد مئة، فخرج السهم على الإبل، فقال له: أعد القرعة، فأعادها، فخرج السهم على الإبل، ثم أعادها فخرج على الإبل، فقال له: قد رضي ريك، فانخرها فداءً عن ابنك، ففعل، فاستمرت الدية في قريش مئة من الإبل، ثم جاء الشرع فقررها دية لكل مسلم من المسلمين. وأما أصحاب الفيل: فإن الحبشة لما ملكت (اليمن) وعليهم أبرهة الأشرم، وكانوا بنوا كنيسةً بـ(صنعاء) كالكعبة، وصرفوا حجاج (الكعبة) إليها، فدخلها ليلاً رجال من قريش ولطّخوها بالعدرة وهربوا، فلما علم بذلك أبرهة عزم على

هدم (الكعبة). فتجهز في جيش عظيم، فلما شارف (مكة) أغار على سرحها، فاستاق أموال قريش، ونزل بـ(عرفة)، فخرج إليه عبد المطلب، فلما رآه أبرهة نزل له عن سرير ملكه إجلالاً له، وسأله عن حاجته، فذكر أن له نحو مئة من الإبل فردها عليه، فقيل لعبد المطلب: هلاً كلمته في الانصراف عن (الكعبة)؟ فقال: أنا رب إبلي، والكعبة لها رب يحميها.

وامتاز بقريش إلى رؤوس الجبال، وجعل يدعو الله ويقول:

لَا هُمْ إِنْ الْمَرْءَ يَمْنَعُ ————— ع رَحْلَهُ فَمَنْعَ حِلَالِكَ
لَا يَغْلِبَنَّ صَالِيَهُمْ وَمِحَالُهُمْ عَدَوًّا مِحَالِكَ
مِحَالِكَ، أَي: مكرك، ومنه: (وهو شديد المحال).

ثم سار أبرهة إلى (مكة)، فلما كانوا بـ(محسر) . بمهمات، وهو واد بين (عرفة ومزدلفة) . نكص الفيل على عقبه، فردوه فأبى، فأدخلوا الحديد في أنفه حتى خرموه، فلم يساعدهم على التوجه إلى (مكة).
فبينما هم كذلك إذ أرسل الله عليهم طيراً، يحمل كل طير منها ثلاثة أحجار صغار، حجرتين بين رجليه، وحجراً في منقاره، إذا وقعت الحجارة على رأس أحدهم خرجت من دبره، فأهلكهم الله جميعاً.

وفي ذلك أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم مذكراً له بنعمته عليه وعلى قومه، لأنه كان يومئذ حملاً، وولد بعد الفيل بخمسين ليلة: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلْنَا رَبَّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ} أي: إبطال {وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ} أي: غضباً غضباً

{تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ} أي: من قعر جهنم، وهو أيضاً سجين {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّا كُوِّل} أي: كزرع أكلته البهائم.

ومن يومئذ احترمت الناس قريشاً، وقالوا: هم حيران الله، يُدافع عنهم. وأما هاشم: فاسمه عمرو، وإنما سمي هاشماً لكثرة إطعامه الشريد في المجاعة، وفيه يقول الشاعر:

عمرو الذي هشم الشريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف
وبلغ في الكرم مبلغاً عظيماً حتى إنه كان يطعم الوحش والطيور،
فينحر لها في رؤوس الجبال، وكان إذا وقع القحط جمع أهل (مكة) وأمر
الموسرين منهم بالإنفاق على فقرائهم حتى يأتي الله بالغيث.

ثم إنه وفد (الشام) على قيصر فأخذ منه كتاباً بالأمان لقريش،
وأرسل أخاه المطلب إلى (اليمن)، فأخذ من ملوكهم كتاباً أيضاً، ثم أمر
تجار قريش برحلي الشتاء والصيف، فكانوا يرحلون في الصيف إلى (الشام)
لشدة بردها، وفي الشتاء إلى (اليمن) فاتسعت من يومئذ معيشتهم
بالتجارة، وأنقذهم الله من الخوف والجوع ببركة هاشم.

وفي ذلك أيضاً أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وآله
وسلم: {لِإِيْلَافٍ قُرَيْشٍ} أي: لإنعام الله على قريش بإيلافهم {لِإِيْلَافِهِمْ}
أي: اعتيادهم {رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ}. فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ {أي:
الكعبة} الَّذِي أَطَعَهُمْ مِّن جُوعٍ وَأَمَنَّهُمْ مِّن خَوْفٍ}.

وأما عبد مناف: فكان يُسمى قمر البطحاء لصباحته، وهو الذي
قام مقام أبيه قصي بالسيادة وسقاية الحاج، وقام أخوه عبد الدار بسدانة

البيت والرفادة . أي: إطعام الحجيج في (دار الندوة) التي بناها قصي .
وأخوه عبد العزى بآلات الحرب من السلاح والكراع، بوصية إليهم من
أبيهم قصي .

وأما قصي: فكان يسمى مجمعاً، لأنه أول من جمع قريشاً من
البوادي إلى سكنى (مكة)، وأخرج خزاعة منها، وفيه يقول الشاعر :
أبوكم قصي كان يُدعى مُجْمَعاً به جمّع الله القبائل من فِهر
وذلك أن سيد خزاعة شرب ليلة مع جماعة فنغد شرابه، فقال:
من يشتري مني سدانة البيت بزق خمر، فاشترها قصي وأشهد عليه، وفي
ذلك يقول الشاعر :

باعت خزاعة بيت الله إذسكرت بزقّ خمر فبئست صفقة البادي
باعت سدانتها للبيت وانتقلت عن المقام وظل البيت والنادي
وأباؤه صلى الله عليه وآله وسلم كلهم سادات، ما منهم أحد إلا
وهو سيد قومه في عصره، من أبيه عبد الله إلى آدم عليه السلام، كما قيل
:

فأولئك السادات لم تر مثلهم عين على متتابع الأحقاب
زهر الوجوه كريمة أحسابهم يعطون سائلهم بغير حساب
لم يعرفوا رد العفاة وظالما ردوا أعاديهم على الأعقاب
حلموا إلى أن لا تكاد تراهم يوماً على ذي هفوة بغضاب
وتكرموا حتى أبوا أن يجعلوا بين العفاة وبينهم من باب
كانت تعيش الطير في أكنافهم والوحش حين يشح كل سحب

وكفاهم أن النبي محمداً منهم فمدحهم بكل كتاب [اهـ.

(ولهذا) النقاء في الأصول والفروع (امتن مولانا به) عليه الصلاة والسلام على معشر الأمة المحمدية فقال: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}. (و) لهذا المن الذي منه المولى علينا (دعانا) جميعاً (للصلاة) عليه عليه الصلاة والسلام (سرمداً) أي أبداً في سائر الأوقات فقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}.

فصل في (وجوب نشر السيرة العطرة)

فإذا علمت أيها المحب ما تقدم من أمور واصطفاء لهذا النبي فاعلم أنه يجب عليك أن تعلم الناس ومن توليت أمرهم سيرة حبيبهم صلى الله عليه وآله وسلم وأن تغرس ذلك في نفوسهم وتجعله لهم الرمز والقُدوة فإن الأمة ما وصلت إلى ما وصلت إليه في حاضر عصرها إلا لما فقدت القُدوة الحقيقية لها وهو نبيها صلى الله عليه وآله وسلم وسواء كان ذلك الفقد مرتباً له من قبل الأعداء أو هو تباطؤ وانشغال عن القُدوة الحقيقية حتى أصبح للناشئة رموز آخر يقتدون بها فترى الناشئة يعرفون أوصاف وأشكال وسير من لا خلاق لهم ولم يعرفوا عن نبيهم أو سيرته أو التعلق به شيئاً. بل هناك أيدٍ تعمل بجد واجتهاد في إبعاد الناس عن سيرة نبيهم وسماع أوصافه والتعلق به ومن هنا نجد أن الناظم حفظه الله ذكر ما قدمنا له في هذا الفصل ذكراً وافياً سنأتي على شرحها بعبارات وجيزات إن شاء الله تعالى.

وأول ما ينشر من سيرته عليه الصلاة والسلام بين أسماع الناس وخاصة الناشئة (قِصَّةُ الْحَمَلِ) به عليه الصلاة والسلام و(كُذَا مِيلَادُهُ) لأن تلك القصص قد (وَرَدَتْ نَصّاً صَرِيحاً مُسْنَدًا) عنه عليه الصلاة والسلام رواه أهل العلم. وقد (جمعت) هذه الروايات التي تضمنت قصة حمله وميلاده (سراً تَبَدَّى) أي ظهر ظهوراً (واضحاً) بيناً ينبئ ذلك السر عن علو صاحب الميلاد حيث كان حمله وميلاده يحوي غرائب وأموراً لم

تكن قد حصلت لغيره ممن سبقوه لكي يُظهرَ ذلك الاختلاف تمييزاً له عن غيره وقد روى ما كان من أمره في ذلك (في حكايات توالثُ سنداً) أي تابعت رواية عن الرواة الذين رووها حتى أن هذه الروايات المتتابعات (حملت للكون) كله (أجلى) أي أظهر (آية) أي معجزة مما حصل في الحمل والولادة من أمور خارقة تدل على عظيم ورفعة صاحبها عليه الصلاة والسلام فإنها قد (عَطَّرْتُ جَوَّ الزمانِ) عند مطالعتها بعطر الفرح والمحبة لصاحبها لأن المطالع لها يزيد ارتباطاً ومحبة له عليه الصلاة والسلام، وقوله (المفردا) أي أن زمانه تفرد عن أزمنة غيره من الأنبياء والمرسلين. ومن هنا يظهر ما عنون له الناظم من وجوب نشر السيرة العطرة لأن فائدتها عظيمة أي نشرها وبثها بين الناس لأن المطالع للسيرة والسامع لها يزيد محبة وارتباطاً وإيماناً وتثبيتاً وهو ما عناه القرآن من ذكر قصص الأنبياء السابقين وذكر حملهم وميلادهم فهذه قصة حمل عيسى وميلاده وكذا سيدنا يحيى عليهما السلام مسطرة مذكورة في كتاب الله تعالى وذكر المولى سبب قص سير الأنبياء على مسامع نبيه وأمه بأن ذلك يزيد ثبات القلوب على الإيمان بقوله: (وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) ولا شك أن فؤاده ثابت عليه الصلاة والسلام فهو هنا المخاطب والمراد أمته فإذا كان نشر سيرة الأنبياء السابقين من حملهم وولادتهم وسيرتهم يثبت فؤاد الأمة فسيرته ونشرها من باب أولى إذا فالسر في نشرها أنها (عَلَّمْتَنَا أَنَّ طَهَّ الْمُجْتَبَى) أي المختار (تحت سِرِّ الحفظِ) الإلهي من أول حملهِ وتحت رعاية مولاه منذ الحمل (حتّى وُلدا) أي إلى ولادته أي

وبعدها وإنما أظهر الناظم هنا سر التفرد الذي كان في الحمل والولادة والرعاية الخاصة التي لم تكن لأحدٍ بهذه الكيفية المغايرة لحمل وولادة غيره لما تبين هذه المغايرة عن عظيم رفعة وشأن صاحبها المحاط بالرعاية وإشارة إلى ما سيكلفه من عظيم الأمر في أطوار حياته.

(و) قد (رَوَى الْقُصَّاصُ مِنْهَا) أي من قصة حمله وميلاده (جُمْلَةً مِنْ صَحِيحٍ وَضَعِيفٍ) أي من حيث سند الرواية إلا أن الضعيف (فُنْدًا) أي ميز حتى عرف أن سنده ضعيف فلا ينبغي عليه حكم والأفضل تركه وعدم نشره وإشاعته وإن كان يتساهل في السير وفضائل الأعمال ما لا يتساهل في الأحكام، بعكس الصحيح الوارد في قصة حمله وميلاده فقد وضع الناظم الاعتناء به ونشره وإشاعته فقال: (فَالصَّحِيحُ صَحَّ نَشْرًا) بين جمهور أهل العلم (وَاعْتِنَا) بأمر نشره في كتبهم لتعلم الأمة سيرة نبيهم (إِذْ بِهِ) أي بنشره وإشاعته وتلقيه للناشئة (يَبْدُو) أي يظهر (الْمُنَى) وهو التعلق والمحبة للحبيب صلى الله عليه وآله وسلم (وَالْمُقْصِدَا) الذي من أجله تكرر سيرته وسجاياه وشمائله لتغرس في النفوس معنى الطهارة والحياة الكريمة والإيمان المفعم بالمحبة الكاملة لصاحب السيرة العطرة ويكون التأسي التام به في سائر الأحوال. (وخصوصاً) أننا (في زمانٍ مُظْلِمٍ) بالفتن والترويج للشائعات وصرف الناس عن سيرة نبيهم بل (وَيَتَقَصَّى) أي يتتبع هؤلاء (الْآثِمُونَ الْمَوْلِدَا) أي بصرف الناس عن الحضور لسماع قصة حمله وولادته وسيرته والصلاة عليه بترويجهم للشائعات وإصاق التهم بمن

يحضر المولد أي قراءة قصة مولده وسيرته ومدحه عليه الصلاة والسلام و(ليسَ هَمٌّ) أي غاية مراد (العِرِّ) أي المعرَّر به من هؤلاء من قبل أيد تلعب في الخفاء (غَيْرِ) أي سوى (مَطْعِنٍ) يتوصلون به للتشيع وصرف الناس عن حضور موائد نبهم عليه الصلاة والسلام (و) هذا الذي يقومون به إن كانوا يدرون أولاً يدرون أمر خطير إذ ما اجتمع المجتمعون على قراءة سيرته إلا تعظيماً له عليه الصلاة والسلام وحباً فيه وتقوية لإيمانهم من باب قوله تعالى: {وَكَلَّا تَقْصَّ عَلَيْنِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ} مع كماله صلى الله عليه وآله وسلم فأتمته من باب أولى يكون لها ذلك التثبيت بسرد أنبائه على مسامعهم، والخطاب في الآية وإن كان موجهاً إليه فهو أيضاً معني به أمته. وما يقوم به هؤلاء الأغرار هو حقيقة (انتقاصٍ في الحبيبِ المُقتدى) وذلك أنهم لا يرونه إلا رسولا أدى الرسالة فقط وأنه إذا اجتمع المسلمون لإحياء ذكره وتفخيم أمره وتعظيم شأنه فإنهم في منكر قال تعالى: {وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} وهل هناك أعظم شعيرة من رسوله عليه الصلاة والسلام فيا (أَيُّهَا الْأَحْبَابُ) له عليه الصلاة والسلام دعوا عنكم ذلك التخذيل وأصحابه و(صَلُّوا) عليه (جَهْرَةً) أي علناً فهو من باب إظهار الفرح المأمور به فقد قال تعالى: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ}. وما تلك الرحمة المأمورون بالفرح بها إلا حبيبه يقول تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}. (و) إذا علمتم ذلك (اسمِ عُوا الْعَالَمِ) كله (هذا

المشهدا) المجتمع لإحياء ذكر سيرة نبيه المادح له في أثناء تلاوة السيرة المترنم بالصلاة عليه فيها عليه الصلاة والسلام و**(سَنُّوْا سَمْعِي بِذِكْرِ المصطفى)** لأني محب له والمحب يجب سماع أوصاف محبوبه كل وقت وحين **(و)** من تمام ذلك **(ارْفَعُوا الأصواتَ ذِكْرًا)** بالصلاة عليه عند سماع أوصافه وسيرته **(أبدأً)** أي في جميع الأوقات ولا تلتفتوا لهذا التشويش الذي يقوم به هؤلاء واصرفوا هممكم للارتباط بنبينا والتزم بمدحه الذي فتح لكم بابه القرآن بقوله: **{نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَحْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مُمْنُونٍ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ}**. و بما أنه عليه الصلاة والسلام كان يرضى بمدح المداحين ويقرهم على ذلك فهي إذا سنته ، و سنته متبعة فاتبعوا ذلك و**(أخرسوا أصوات إبليس)** أي ترانيمه التي بثها بين الناس بالأغاني الماحنة **(التي غزت الواقع)** أي واقع حياتنا دون منكر لها وهي **(نُفْسي)** أي تنشر في طياتها **(كُلَّ ذَا)** خبيث لِمَا تدعو إليه من الفحش والرذيلة حتى **(رَفَعَ الشَّيْطَانُ أصواتَ الغنا والغواني)** وغزت البيوت المسلمة وحلت محل الذكر وتلاوة القرآن والترنم بمدحه عليه الصلاة والسلام **(و)** انتشرت **(ترانيم العدا)** الصاحبة الفاضحة التي يستمعها الناشئة، وانحل النشء عن قدوتهم وفرغت قلوبهم وتوجهت وجهتهم للغرب الآثم عبر ما يبثه في وسائل إعلامه المسموع والمرئي **(وعدى الباغون)** هؤلاء **(في أوطاننا)** أي في مجتمعاتنا المسلمة التي كانت نبراساً نيراً للعالم كله بما تحمله من تشريع وروح للشريعة وقدوة في الطريقة ولكن الأعداء

سعوا لإطفاء ذلك { يُرِيدُونَ لِيطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مِتِّمٌ نُورِهِ وَكُرْهَ الْكَافِرُونَ } سعوا لذلك (بتمثيل) يروجون لها في مرثيات إعلامهم وبث قنواتهم والتي تحمل مختلف صور (الخناء) أي الفحش والزنا ومقدماته (والرذى) أي موت القلب بظلم المعاصي والآثام التي يشونها، و(كم ضحايا) بهذه السموم (ذهبت في عصرنا) أي من أبناء الأمة عندما اغتروا بما روج له الأعداء (وأضاعوا العمر) أي أعمارهم عندما تبعوهم (نزفاً) أي وثباً وراء النزوات والشهوات (وسدى) أي ضياعاً في غير مرضاة الله تعالى.

فيا (لَيْتَ مَنْ يَسْمَعُ مَدْحَ الْمُصْطَفَى) عليه الصلاة والسلام وذلك بسماع أوصافه وسيرته وحالاته يكون بسببه (قانتاً لله) تعالى أي خاضعاً متأثراً بما سمعه (مصقول الصدا) بما تردد على أسماعه حتى يتم هداه ويتحقق منه جانب الاتباع لمحبوبه عليه الصلاة والسلام. فيا إخواني (قد كفانا ما بنا) أي ما حل بنا (من حالة) مردية (وشتات) تشاهدونه في أمة الإسلام (وصراع) في الآراء وتشتت في المفاهيم (واعتدا) على بعضنا البعض يؤدي إلى تفريق الأمة وذهاب ريحها بسبب أولئك الذين يطلقون ألسنتهم طعناً في علماء الأمة والدين ويقذفون الآخرين بالبدعة مرة وبالشرك أخرى وبالفسق تارة وهكذا حتى فتنوا المجتمع وأصبح يعاني من صراعات واختلافات وآراء متفرقات. ولكن (أسأل الرّحمن) سبحانه وتعالى (أن يهدينا) جميعاً (لطريق العدل) وهو طريق

الحبيب الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته وأهل بيته وسلف
الأمة (حتّى) نعيش في هذه الدار مجتمعين متآلفين و(نُسعدا) في الأخرى
بسبب حبنا لحبيبنا واجتماع كلمتنا.

فصل في (البروز الشريف)

(حَيِّ أُمًّا) أي خُصَّصَهَا بالتحية والإعظام والتكريم لكونها (حَمَلَتْ طَةَ الْهُدَى) أي من هدى الله به الأمة بعد ضلالها ووحيد صفها بعد تفرق كلمتها وهو عليه الصلاة والسلام (طَابَ حَمَلًا فِي الْوَرَى) أي في الناس حيث لم يكن أحد على مثال حمله مطلقاً (و) لم يكن أحد في مثال (الْمَوْلِدَا) أي عند الوضع به أبداً فأمه آمنة رضي الله عنها (بِنْتُ وَهْبٍ) ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب وهنا يلتقي نسب أبيه وأمه عليه الصلاة والسلام (شَرُفَتْ) أي أصبحت ذات شرف أضيف إلى شرف محتدها كونها حملت (بِالْمُصْطَفَى) عليه الصلاة والسلام (و) بهذا الحمل (رَأَتْ) أي شاهدت وأحست (بُرْهَانَ طَه) عليه السلام وهو الدليل الواضح (قَدْ بَدَأَ) أي ظهر وهو أي ذلك البرهان (خَفَّةٌ فِي الْحَمْلِ حَتَّى إِنَّهَا) من خفته (لَمْ تَجِدْ شَيْئًا) تعانيه من الحمل كما (يُعَانِي أَبَدًا).

روى يزيد بن عبد الله بن وهب بن زمعة عن عمته قالت: كنا نسمع أن آمنة لما حملت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت تقول ما شعرت أُنِي حملت ولا وجدت له ثقلاً كما تجد النساء إلا أُنِي أنكرت رفع حيضتي. اهـ صفة الصفوة.

ومن بركات ذلك الحمل وبرهانه الساطع أنها (مدة الحمل) أي أثناء حملها به (رَأَتْ مَا سَرَّهَا) أي ما أدخل السرور على قلبها وبشرها بحملها وأنه ميمون الطلعة مبارك الناصية فقد قالت . أي أمه . أتاني آتٍ

وأنا بين النوم واليقظة فقال: هل شعرت أنك حملت فكأني أقول ما أدري فقال: إنك حملت بسيد هذه الأمة ونبينا وذلك يوم الإثنين قالت: فكان ذلك مما يئنّ عندي الحمل فلما دنت ولادتي أتاني ذلك الآتي فقال: قولي أعينه بالواحد من شر كل حاسد. اه من صفة الصفوة. (و) قد (علت قدراً) أي منزلة بما رأت مما سرها من حملها به عليه الصلاة والسلام (وزادت) به (مددا) ضاعف مسرتها فقد ذكر ابن هشام أن أمه عليه السلام رأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام. فإن أردت أن تعرف مقدار رفعة هذه الأم وعلو شأنها (فهي أم المصطفى) أعظم الناس قدراً وأرفعهم شأنًا (فمن مثلها) في هذا الشرف وهذا العلو والرفعة (بين كل الأمهات) فقد ارتفعت وعلت عليهن (سؤدداً) يقول الإمام البوصيري رحمه الله في همزته:

لم تنزل في ضمائر الكون تختاً ر لك الأمهات والآباء
يقول العلامة الصاوي: [والمعنى كما طابت ذاتك بما أوتيته من
الكمال الأعلى كذلك طاب نسبك، فلم يكن في أمهاتك من لدن حواء
إلى أمك آمنة ولا في آبائك من لدن آدم إلى أبيك عبد الله إلا من هو
مصطفى مختار. وقد كان نوره صلى الله عليه وآله وسلم في آدم ظاهراً
يلمع في جبهته ثم انتقل ذلك النور لولده شيث فلما قربت وفاة آدم وصى
شيثاً أن لا يضع هذا النور إلا في المطهرات من النساء وكذلك وصى شيث
بنيه وهكذا لم تنزل تلك الوصية معمولاً بها حتى وصل ذلك النور إلى عبد
المطلب ثم إلى ولده عبد الله وطهر الله هذا النسب الشريف من سفاح

الجاهلية بكسر السين أي زناهم كما ورد في الأحاديث كحديث البيهقي في سننه: "ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء ما ولدني إلا نكاح الإسلام". ويؤخذ من كلامه ما صرحت به الأحاديث أن آباء النبي وأمّهاته إلى آدم وحواء ليس فيهم كافر لأن الكافر لا يقال في حقه أنه مختار ولا كريم ولا طاهر بل نجس وهذا صريح في أن أبوي النبي صلى الله عليه وآله وسلم آمنة وعبد الله من أهل الجنة لأنهما أقرب المختارين له صلى الله عليه وآله وسلم وهذا هو الحق بل في حديث صححه غير واحد من الحفاظ أن الله أحياهما له فأما به خصوصية لهما وكرامة له صلى الله عليه وآله وسلم وكون الإيمان به لا ينفع بعد الموت محله في غير الخصوصية والكرامة فإن قلت إذا قررتم أنهما من أهل الفترة

وأنهم لا يعذبون فما فائدة الإحياء قلت فائدته إتحافهما بكمال لم يحصل لأهل الفترة لأن غاية أمرهم أنهم ألحقوا بالمسلمين في مجرد السلامة من العذاب وأما مراتب الثواب العلية فهم بمعزل عنها فأتحفا بمزيد الإيمان زيادة في شرف كمالهما بمحصل تلك المراتب لهما ولا يرد على الناظم آزر فإنه كافر مع أن الله تعالى ذكر في كتابه العزيز أنه أبو إبراهيم وذلك لأن أهل الكتابين أجمعوا على أنه لم يكن أباه حقيقة وإنما كان عمه والعرب تسمي العم أباً اهـ.

ولما قرب أوان وضعه عليه الصلاة والسلام (وضعتة) أمه رضي الله عنها (قبل فجرٍ) أي قبل بزوغه وذلك يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة حلت من شهر ربيع الأول عام الفيل وكان حال ولادته (ساجداً) فقد

وُضِعَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ وَاضِعاً يَدَيْهِ عَلَى الْأَرْضِ رَافِعاً رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ مَخْتُوناً مَسْرُوراً لَيْسَ عَلَيْهِ مِنْ أَقْدَارِ الْوِلَادَةِ شَيْءٌ. أَهْ بِهَجَّةِ الْحَافِلِ. وَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ: وَلَدَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَخْتُوناً مَسْرُوراً فَأَعْجَبَ ذَلِكَ عَبْدَ الْمَطْلُبِ وَحَظِي عِنْدَهُ وَقَالَ: لِيَكُونَنَّ لِابْنِي هَذَا شَأْنٌ مِنْ شَأْنٍ فَكَانَ لَهُ شَأْنٌ. أَهْ صِفَةُ الصَّفْوَةِ.

ف(نوره) عليه الصلاة والسلام عندما وضعت به أمه (الوضاحُ) أي بيّن الإشراق حتى أنه (في الكون بدا) ظاهراً غامراً له، روي عن الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف وهي التي تولت ولادته قالت: لما سقط صلى الله عليه وآله وسلم على يدي واستهل سمعت قائلاً يقول: رحمك الله، وأضاء لي ما بين المشرق والمغرب حتى نظرت إلى قصور الروم. ف(مظهر) وجوده عليه الصلاة والسلام أكبر من مظاهر (العفة) والظهر والسمو للأخلاق والأفعال والأقوال والهداية بجميع أشكالها وهذا (يبدو مبهرًا) أي للعقول ومصقلاً للنفوس على الطهارة الكاملة (من نبي الطُّهْرِ) أي الذي طهر الله به الأرض من عبادة الأوثان وتحقيق ذلك لما يؤول إليه أمره واتضح (لما سجدا) أي حال كونه ولد على السجود فقد روي: "أنها لما وضعت نظرت إليه فإذا هو ساجد قد رفع أصبعه إلى السماء كالمترضع المبتهل". وفي سجوده إشارة إلى طهارته وطهارة أمته من العبودية لغير الله إلى عبودية كاملة لله تعالى. حتى (أشرق العالم) بنور التوحيد وتطهير الأنفس التي سيدعوها هذا الحبيب عليه الصلاة والسلام وكَبَّتِ الشُّرْكُ

وأهله والمعبودات التي تعبد من دون الله تعالى والذي بدا (بالميلاد) الحمدي الذي خبت به نار فارس وكان وقودها مستمراً من عهد موسى عليه السلام واضطرب منه إيوان كسرى فسقطت منه أربع عشرة شُرَافة وكان في ذلك إشارة إلى عدد من ملك منهم بعد ذلك إلى أن نسخ ملكهم في خلافة عمر بن الخطاب وغاضت بحيرة ساوة وتنكست الأصنام في آفاق الأرض وسقط عرش إبليس ورميت الشياطين بالشهب ومنعت من استراق السمع (إذ) كل تلك الحوادث للكفر وأهله علامة واضحة ودلالة ناصحة بانحساره وإيداناً بزوال دولته.

وبولادته يكون قد (جدد الرحمن فيه المددا) للكون كله بالطهارة من برائن الشرك وهذه كلها (معجزات بهرت) عقول أصحاب الكفر فقد روي عنهم وعن كهنتهم أنواع العجب منها فكانت (مظهرة) أي مبدية (سر ما أعطى الإله أحمددا) من أول خلقه إلى يوم اللقاء ودخول الجنان ووضوح أمره وعلوه على سائر الخلق أجمعين وبهذا الميلاد (كل فج في محيط الأرض) شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً (لم يتمالك) من شدة فرحه واستبشاره بظهور النور المبين (بل تسامى) أي ارتفع (وشدا) طرباً بذلك الميلاد الميمون (ولهذا) كله الذي تقدم (سن أهل العلم) أي استحسناوا استشعار فرحة الكون كله بأحمد عليه الصلاة والسلام عندما يتحدد لديهم قراءة سيرة ميلاده ووصولهم إلى هذا الموضع (أن يقف الأحباب) له عليه الصلاة والسلام المشغفون بحبه قياماً (صفاً واحداً)

تجديداً لذكرى الفرحة وعملاً بقوله تعالى: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} وقد تقدم أن الرحمة هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وما هذا القيام إلا تعبير عن الفرح ولكل حق في أن يعبر كيف شاء بقيام أو قعود أو احتفال طالما أن ذلك لا يصادم الشريعة ولا يدخل تحت طائل المحرم أو المكروه. وكثير هي تلك المناسبات التي يعقدها الناس لأغراض عدة تتنوع بتنوع تلك المناسبة قد تكون أسرية أو اجتماعية أو وطنية ونحوها ويعبر كل من اجتمع من أولئك في مناسباتهم بأساليب مختلفة من قيام وقعود وعروض وكلمات وأناشيد وأهازيج ولا بد للشريعة فيها من حكم ولا بد للمسلم من موقف والذي يقرر حكم الله تعالى في مثل ما ذكرناه هم من أمر الله تعالى سؤالهم فقال: {فَأَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} أي إن لم يكن عندكم علم بدليل واضح من كتاب أو سنة فهم الذين يستخرجون الأحكام من مصادرها وعندها فإن للوسائل حكم المقاصد فإن كان المقصد من ذلك التعبير حسناً ولا يرتكب فيه ما يخالف الشريعة من محرم أو ترك واجب من الواجبات فلا تمنعه الشريعة وأمر الإباحة واسع وقد أتى الأحباش إلى مسجده عليه الصلاة والسلام وعبروا عن فرحهم بالعيد بأسلوبهم وبطريقتهم فرقصوا ولعبوا وفرحوا ونظر إليهم صاحب الشريعة وأقرهم حيث لا مصادم في فعلهم للشرع من ارتكاب محرم أو ترك مأمور به وهكذا الحال هنا في إنشاء الأهازيج في حالة القيام أو القعود أو غير ذلك والتعبير بالفرحة بالنهوض أو الجلوس لا يصادم

الشرع فأقل ما فيه أنه مباح وإذا تعارف الناس على فعله ولا مصادم للشرع
فيه واستحسنوه فهو حسن ولا يجوز لأحد إنكاره البتة.

فصل في (ذكرى القيام)

أراد به الناظم أن القيام عند ذكر ولادته صلى الله عليه وآله وسلم ذكرى تتجدد لكل محب له عليه الصلاة والسلام يعبر عن فرحه بها المؤمن المحب بذلك القيام. وتقدم أن التعبير بالفرح بأي شكل من أشكال التعبير أمر مباح وإن استحسنه مَنْ فعله فهو عنده حسن وإن كان قد ارتبط بتعظيم لشعيرة من شعائر الله فلا شك في كونه مرغباً فيه عند من فعله. و(كان ميلاد الحبيب) صلى الله عليه وآله وسلم كما أسلفنا ذكرى تتجدد و(آيةٌ) تحرك المحب للارتباط بمحبوبه وقد (برزت) هذه الذكرى (في الكون) وظهرت (لما وَفَدَا) الحبيب إلى الكون بوضع أمه له عليه الصلاة والسلام لذلك (سنّ) أي استحسّن (أهل العلم) والفضل والصلاح المحبون لحبيبتهم المستشعرون قدر نعمة بروزه وظهوره إلى هذا العالم (فيها) أي في ذكرى ولادته عند قراءة سيرته (وقفة) يقفونها على أقدامهم ولو وقف المؤمن المحب في ذكرى محبوبه الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم على العيون لكان ذلك قليلاً (لعظيم الفضل) الذي تفضل به المولى سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين بل وعلى الكون كله (لما أن بدا) أي ظهر الحبيب ببروزه إلى الكون يوم ولادته فإذا وصل قارئ السيرة إلى موضع الولادة عبر عن فرحه بالقيام مع الأهازيج وأول من عبر عن ذلك واصطف قائماً فرحاً بالحبيب عليه الصلاة والسلام الأنصار في المدينة وقرنوا قيامهم بالأهازيج أي الأناشيد والترانيم وهنا أي في موضع ذكر

الولادة قد (قام جمع) كثير واستحسنوه (من رجال العلم في ساعة الميلاد) أي عند قراءة السيرة ووصولهم إلى ذكرى ميلاده وكان قيامهم (شكراً) لله تعالى أن هداهم وجعلهم من أتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمحبين له (واقترداً) بمن ذكر من أهل العلم تقوم كما قاموا لكن (دون إلزام) أي كون ذلك القيام واجباً أو مندوباً (ولكن شرفاً) أي استشعاراً (واحتراماً للنبي) عليه الصلاة والسلام (المقتدى) أي الذي يقتدى به في الأقوال والأفعال قال مفتي الأنام ببلد الله الحرام العلامة سيدي أحمد زيني دحلان في سيرته: [جرت العادة أن الناس إذا سمعوا ذكر وضعه صلى الله عليه وآله وسلم يقومون تعظيماً له صلى الله عليه وآله وسلم وهذا القيام مستحسن لما فيه من تعظيم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد فعل ذلك كثير من علماء الأمة الذين يقتدى بهم قال الحلبي في السيرة: فقد حكى بعضهم أن الإمام السبكي اجتمع عنده كثير من علماء عصره فأنشد قول الصرصري في مدحه صلى الله عليه وآله وسلم :

قليل لمدح المصطفى الخط بالذهب على ورق من خط أحسن من كتب
 وإن تنهض الأشراف عند سماعه قياماً صفوفاً أو جثياً على الركب

فعند ذلك قام الإمام السبكي وجميع من بالمجلس فحصل أنس كبير في ذلك المجلس اه المراد.

يقول العلامة محمد بن علوي المالكي في كتابه البيان والتعريف في ذكرى المولد النبوي الشريف: [وقد جرت العادة بالقيام عند قراءة مولده .

عليه الصلاة والسلام . لدى ذكر الوضع الشريف، وما يتبعه من حسن التوصيف.. وهذا القيام لم يفعله السلف، وإنما عمِلَ به مَنْ بعدهم من الخلف، وليس هو في الحقيقة للذات المحمدية كما توهمه قوم من البرية، فاعترضوا وأطنبوا، وإلى إنكار فعله ذهبوا، وإنما هو قيام فرح وسرور، وابتهاج وطرب وحبور، ببروزه صلى الله عليه وآله وسلم لهذا الوجود، وإشراق نوره فيه على كل موجود، وشكراً لله تعالى على ما به أولى من هذه النعمة العظيمة، والمنة الجسيمة، التي هي منة الإنعام به على الخليقة، ومن غير استحقاق منهم، ولا سبب ظاهر، ولا عمل طريقة، والقيام فرحاً بالمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، أو بما هو منه، أو راجع إليه، له أصل أصيل في الشرع الشريف، يعتمد ويعول عليه. فقد لعبت الحبشة بجراهم المستلزم لزنهم واضطرابهم لما قدم . عليه الصلاة والسلام . المدينة فرحاً بقدم طلعتة المباركة.. أخرج ذلك أبو داود في سننه من حديث أنس بن مالك. وكذلك لعبوا في المسجد النبوي في يوم عيد من الأعياد بالدرق والحراب لعبهم المعتاد، وجعلوا يزنون . أي يرقصون . والنبي صلى الله عليه وآله وسلم وعائشة ينظران إليهم وهو . عليه الصلاة والسلام . يقول تنهيضاً لهم، وتنشيطاً: "دونكم يا بني أرفدة"، يعني جدوا فيما أنتم فيه من هذا اللعب المباح، الذي لا حرج فيه ولا جناح! والأحاديث بذلك في الصحيحين وغيرهما مسطرة، ولدى كل إمام من أئمة الحديث معلومة مقررّة. وفي حديث أحمد وابن ماجه عن قيس بن سعد بن عبادة أنه عليه الصلاة والسلام كان يُقلس له . أي يضرب بين يديه بالدف والغناء . يوم

الفطر! ذكره في الجامع الصغير. وما كان ذلك في الحقيقة إلا فرحاً بالحضور عنده، والمثل بين يديه في هذا العيد المبارك الذي يغبط فيه بوجوده بينهم، ويحن إليه .. وليس المقصود من لعب الحبشة في المسجد مجرد التدريب. كما ادعاه بعضهم. لأن المسجد ليس محلاً لذلك، ولا جرت العادة فيه بما هنالك. وكذلك لما قدم عليه الصلاة والسلام المدينة، خرج جوارٍ من بني النجار في الطرقات .. يضربن بالدفوف، ويقلن بالأصوات المرتفعات:

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار
وزاد بعضهم :

فمرحباً بذا النبي المختار ومرحباً بسيد الأبرار
الحديث ذكره أبو سعد النيسابوري في (شرف المصطفى) وغيره، وأخرجه البيهقي وشيخه الحاكم عن أنس .. وما ذاك أيضاً إلا فرحٌ وابتهاج برؤية جماله، وابتهاج بقدومه وإقباله، وفي ابن ماجه عن أنس أنه عليه الصلاة والسلام مرَّ ببعض أزقة المدينة، فإذا هو بجوارٍ يضربن بدفهن ويغنين ويقلن:
نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار
فقال عليه الصلاة والسلام: "الله يعلم أني لأحبكن". وقد ورد عن عدة من الصحابييات أن كل واحدة منهن نذرت لله تعالى. إن رده الله سالماً من بعض أسفاره، أو من بعض الغزوات. أن تضرب بالدف على رأسه الشريف فرحاً برجوعه سالماً آمناً مطمئناً.. فأمرهن. عليه الصلاة والسلام. بأن يفين بنذرهن بالتتمام! وفي ذلك روايات عن غير ما واحد من الرواة في سنن أبي داود، وجامع الترمذي وغيرها. ولفظ رواية الترمذي في مناقب

عمر بن بريدة قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض مغازيه، فلما انصرف جاءت جارية سوداء فقالت: يا رسول الله إني كنت نذرت إن رذك الله صالحاً أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إن كنت نذرت فاضربي، وإلا فلا .. فجعلت تضرب!" الحديث قال الترمذي حديث حسن صحيح غريب من حديث بريدة. ومن نحو هذا ما أخرجه العقيلي، وأبو نعيم من حديث جابر بن عبد الله قال: لما قدم جعفر من أرض الحبشة، تلقاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما نظر جعفر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حجل .. قال سفيان بن عيينة أحد رواة يعني مشى على رجل واحدة إعظاماً منه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ فقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين عينيه. الحديث

وفي مسند أحمد من حديث علي بسند لا ينزل عن درجة الحسن .. حجل زيد بن حارثة، وجعفر وعلي بين يديه صلى الله عليه وآله وسلم لما قال للأول: أنت مولاي، وللثاني: أنت اشبهت خلقي وخلقتي، وللثالث: أنت مني وأنا منك! وعند ابن سعد في طبقاته من مرسل محمد الباقر بإسناد صحيح إليه .. فقام جعفر فحجل حول النبي صلى الله عليه وآله وسلم دار عليه.

والحجل: قال في النهاية: أن يرفع رجلاً، ويقفز على الأخرى من الفرح. وقال الحافظ: هو رقص بهيئة مخصوصة، ولا شك أن حجل سيدنا جعفر عند قدمه من الحبشة كان إجلالاً له، وإعظاماً وفرحاً برؤياه

وإكراماً. وحججه مع الاثنين المذكورين معه كان فرحاً بشائه عليهم، وتلذذاً بخطابه لديهم، وشكراً على ما أولاهم، وبه أكرمهم وحباهم من الإضافة إليه، التي هي أجل شيء يعتمد عليه. وقد أقرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم على فعلهم. وما أنكر بقول ولا فعل عليهم. ويصح أن يكون هذا القيام الذي يقع عند ذكر ولادته، لتصور السامع في تلك اللحظة أن الكون كله في فرح وسرور بولادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وخروجه إلى الدنيا، فيقوم السامعون جميعاً فرحاً وسروراً وابتهاجاً بهذه النعمة، معبرين بذلك عن شعورهم وحبهم، فهي مسألة عادية محضة، وليست عبادة ولا شريعة ولا سنة [اهـ].

وبعد ما سبق (ساعة الميلاد) أي وقت بروزه على ما تقدم من أنها قبيل الفجر وقيل بعد الفجر وما كان فيها فهي (ذكرى عفة) أي نزاهة وطهارة وهي ذكرى لكل من كانت نفسه كذلك عفيفة طاهرة فإن الشيء ينجذب إلى مثيله وهذه الذكرى العفيفة قد (برزت) أي ظهرت (في الكون) ورويت لنا و(صحت سنداً) أي الوقائع التي وقعت فيها ومنها ما رواه الطبراني أنه لما وقع إلى الأرض وقع مقبوضة أصابع يديه مشيراً بالسبابة كالمسبح بها وروى ابن الجوزي في الوفا بأحوال المصطفى عن ابن الحسين بن البراء مرسلاً قال: قالت آمنة: ولدته جاثياً على ركبتيه ينظر إلى السماء ثم قبض قبضة من الأرض وأهوى ساجداً.

(ولنا) أي نحن الذين عقدنا احتفالات بقرآته سيرته وسيرة ذكرى ولادته (فيما نوبنا) من فعل ذلك عندما فعلناه بنية صادقة صالحة وهي

تعليم كل مسلم سيرة نبيه وتذكيره بأدوار حياته عليه الصلاة والسلام وحثه على الارتباط به ومحبته واتباعه (حجة) واضحة (تنجلي) أي تظهر هذه الحجة ظهوراً واضحاً (إذ) أي حين (عرفنا المقصدا) من ذلك الاجتماع، (نية المرء) المسلم (جزيء) أي جزء من عمله وهذا (ثابت) بالنص فقد قال عليه الصلاة والسلام: "إنما الأعمال بالنيات". فالنية (تنطوي في العمل) الصالح (المرجو) قبله (غدا) أي في يوم القيامة وقد بين العلامة محمد بن علوي المالكي في كتابه البيان والتعريف في ذكرى المولد النبوي الشريف المقصد الحق من عمل المولد فقال: [فإن عمل المولد النبوي الشريف من أعظم الأعمال المشكورة ومن أشرف سبل الدعوة المبرورة .. فيه تتجدد ذكرى مولد سيد الوجود؛ وخلاصة كل موجود، الذي أفاض على العالم من أنواره ما ساروا به في صراط مستقيم؛ وشملمهم من أسرارهم؛ فنالوا به الفضل العظيم. وما زال الناس من قديم وحديث يحتفلون بمولد سيد الكائنات بطريقة شرعية سلفية وصورة شريفة مرضية يجتمع فيها كبار العلماء والوجهاء وعامة الناس ويعطرون مجلسهم ذلك بالصلاة والسلام على سيد السادات محمد بن عبد الله صلى الله عليه أفضل الصلوات.

قال الحافظ ابن حجر: وقد ظهر لي تخريجه على أصل ثابت، وهو ما ثبت في الصحيحين من أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قدم المدينة، فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء؛ فسألهم .. فقالوا: هو يوم أغرق الله فيه فرعون؛ ونجى موسى. فنحن نصومه شكراً لله تعالى .. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: "نحن أولى بموسى منكم". فيستفاد منه فعل الشكر على

ما منَّ به في يوم معين؛ من إسداء نعمة، أو دفع نقمة .. ويُعاد في نظير ذلك اليوم من كل سنة. والشكر لله يحصل بأنواع العبادة.. كالسجود، والصيام، والصدقة، والتلاوة. وأي نعمة أعظم من بروز هذا النبي . نبي الرحمة . في ذلك اليوم، قال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ}.

وقال السيوطي: قد ظهر لي تخريجه على أصل آخر؛ وهو ما أخرج به البيهقي، عن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عَقَّ عن نفسه بعد النبوة، مع أنه قد ورد أن جده عبد المطلب عَقَّ عنه . في سابع ولادته .. والعقيقة لا تعاد مرة ثانية، فيحمل ذلك على أن الذي فعله النبي صلى الله عليه وآله وسلم .. إظهار للشكر على إيجاد الله إياه رحمة للعالمين، وتشريع لأُمَّته. فيستحب لنا أيضاً .. إظهار الشكر بمولده صلى الله عليه وآله وسلم؛ وقال تعالى . مخاطباً نبيه الكريم . {كُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ} . فإذا كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي ملئ قلبه إيماناً، محتاجاً إلى تثبيت القلب .. بما يقصه الله عليه من أخبار من تقدمه من الرسل، فيجد عزاءً وسلوةً بما يصيبه من قومه، فنحن أرباب الضعف . من الإيمان . أولى بالتثبيت؛ وأحوج منه عليه الصلاة والسلام، لا سيما في هذا الزمان الذي بُعد عنا نور النبوة، فأصبحنا نتخبط في دياجير مظلمة من الجهل .. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . فتعمهم بركاته وخيراته؛ لا سيما إذا كان على طريقة شرعية مرضية. فرحم الله امرأةً أظهر السرور والابتهاج والفرح التام بمولده الشريف

في كل الليالي والأيام، وخصوصاً في مناسبة ذكرى مولده . عليه الصلاة والسلام . التي تتكرر في كل عام، والتي يجتمع الناس فيها على حضور مولد سيد الأنام، فيُذَكِّرُهُمْ قارئ قصة المولد الشريف بسيرته وأخلاقه، ويسرد لهم طرفاً من أعماله وأحواله؛ فيحصل لهم التأسي المشار إليه بقوله عز وجل: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} .

وقد قال إمام القراء الحافظ شمس الدين الجزري في كتابه (عرف التعريف بالمولد الشريف): رؤي أبو لهب بعد موته في النوم؛ فقيل له: ما حالك؟ فقال: في النار .. إلا أنه خفف عني كل يوم اثنين؛ فأُصِّبُ . من بين إصبعي هاتين . ماءً؛ بقدر هذا وأشار برأس إصبعيه، وإن ذلك بإعتاقي ثوية جاريتي، عندما بشرتني بولادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبارضاعها له . رواه الإمام البخاري في صحيحه معلقاً .

فإذا كان أبو لهب الكافر . الذي نزل القرآن بدمه . جُوزي في هذا بفرحه ليلة مولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ فما حال المسلم الموحد من أمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي يعنى بنشر مولده؛ ويبدل ما تصل إليه قدرته في محبته صلى الله عليه وآله وسلم إننا لا نشك في أن الرجاء في الله، أن يكون جزاؤه من الله الكريم أن يدخله بفضل جنات النعيم . وقال الحافظ شمس الدين محمد بن ناصر الدمشقي في كتابه (مورد الصادي في مولد الهادي) وقد صح أن أبا لهب قد خفف عنه عذاب النار في يوم الاثنين، بإعتاقه ثوية سروراً بميلاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم أنشد :

إِذَا كَانَ هَذَا كَافِرًا جَاءَ دَمُهُ بَيَّنَّتْ يَدَاهُ فِي الْجَحِيمِ مُخَلَّدًا
أَتَى أَنَّهُ فِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ دَائِمًا يُخَفِّفُ عَنْهُ لِلسَّرُورِ بِأَحْمَدَا
فَمَا الظَّنُّ بِالْعَبْدِ الَّذِي كَانَ عَمْرَهُ بِأَحْمَدِ مَسْرُورًا وَمَاتَ مُوَحَّدًا
وَقَدْ سُئِلَ . شَيْخُ الْإِسْلَامِ حَافِظُ الْعَصْرِ . أَبُو الْفَضْلِ ابْنُ حَجْرٍ

عن المولد؟ فأجاب: أصل عمل المولد بدعة؛ لم تنقل عن أحد.

وقد اختار أن عمل هذا المولد من البدع الحسنة، والعوائد المستحسنة .. الحافظ أبو شامة الدمشقي الشافعي . شيخ الإمام النووي .
والحافظ شمس الدين أبو الخير ابن الجزري؛ وألّف فيه (عرف التعريف بالمولد الشريف). والحافظ أبو الخطاب ابن دحية؛ وألّف فيه (التنوير بمولد البشير النذير). والحافظ ابن رجب الحنبلي، والحافظ شمس الدين محمد بن ناصر الدمشقي؛ وألّف فيه (مورد الصادي بمولد النبي الهادي). والحافظ زين الدين العراقي الأثري، والحافظ ابن حجر العسقلاني؛ وخرّجه على أصل ثابت في الصحيحين. والحافظ جلال الدين السيوطي؛ وخرّجه على أصل آخر، وألّف فيه (حسن المقصد في عمل المولد). وقد أطل فيه في الاستدلال؛ على أن عمله بشرطه محمود مثاب عليه. والشيخ الإمام الفقيه الأوحّد أبو الطيب السبتي . نزيل قوص . وهو من أجلاء المالكية. والعارف بالله بل سيد العارفين به في زمانه أبو عبد الله سيدي محمد بن عباد النفري في (رسائله الكبرى) في مواضع منها؛ وغيرهم ممن يكثر جدًّا] اهـ.

فإذا علمت هذا (فتجاوز يا محب المصطفى) ما يقوله أولئك المنكرون على عمل المولد (وادراً) أي اترك (الفتنة) التي يشغلون بها الناس عن أمثال هذا الخير وموائده الممدودة التي اشتملت على سيرة خير الأنام ومدح من أحبه الله واصطفاه (واذكر أحمداً) في صبحك ومساك وشنف الآذان بسماع سيرته وعطر مجالسك بالصلاة والسلام عليه (وادع مولاك) أيها المحب الصادق فإن دعوة المحب مستجابة فادعوه (لنا) حيث بينا لك الحق (إذ إن) الدعاء (في ظاهر الغيب) من الأخ لأخيه لا شك أن فيه (استجابات) من الله تعالى لذلك (النداء) في ظهر الغيب لقولهم إن من أفضل الرغائب دعاء غائب لغائب.

و(كل) وهي من أدوات العموم (أعمال العباد) سواء أكانت تعبدية أو عادية، فالتعبدية كالصلاة والصيام والصدقة ومدارسة العلم وتعليمه والذي منه قراءة سيرته عليه الصلاة والسلام والعادية كالأكل والشرب ونحوهما، كلها (قربة) أي يتقرب بها إلى الله تعالى ويثاب عليها صاحبها (إن صفا) أي خلص (القصد) من الفعل وكانت هناك نية من وراء فعل تلك الأعمال وهي منوطة بالنيات وخلوصها لله تعالى، أما في الأعمال التعبدية فالنية مطلوبة فيها بلا شك ولا ريب بل إن تجردت عن النية فلا تصح تلك العبادات والأصل الأصيل في ذلك حديثه عليه الصلاة والسلام: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى".

(و) أما الأمور العادية فإن (رام) أي طلب وأراد العامل لها (المددا) من الله تعالى بالثواب ونوى بها التقرب إليه أتيب عليها فمثلاً لو نوى بالأكل الذي يأكله التقوي على طاعة الله تعالى فله أجر تلك النية وهكذا (و) لكن يشترط كون تلك الأعمال (خلت) أي تجردت (من كل فعل منكر) أي ينكره الشرع ويأباه لكونه محرماً (كاختلاط) للرجال بالنساء في مكان واحد (وغناء) مصحوب بآلته المحرمة فلو حصل اجتماع وحصل فيه شيء من الأمور المنكرة كما تقدم حرم ذلك الاجتماع وإن كان لعقد مجلس علمي أو قراءة سيرة ونحو ذلك وقد (ردّدا) أن المجتمعين على المولد أي قراءة السيرة يفعلون ذلك وحاشا لله

أن يكون وإنما هو محض افتراء الغرض منه تغيير الناس عن قراءة سيرة نبيهم عليه الصلاة والسلام أو الترم بمدحه بالأناشيد التي تذكر أخلاقه وتمدح شخصه الكريم وعلى كل حال فلو وجد ما يقولون لقلنا بجرمة ذلك الاجتماع المصحوب بما جعله محرماً .. هذا إن وجد.

ولذلك قال الناظم راداً على أولئك الذين يلصقون التهم بالآخرين وقصدهم تغيير الناس عن الاجتماع والحضور لقراءة قصة المولد (وادع بالحسنى) كما أمر الله تعالى سيد أحبائه فقال له {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} مع كمال الأخلاق والاتصاف بالأوصاف الحميدة والصدق فيما تقوله وتحكيه عن الخصوم (وكن) عند دعوتك للآخرين (مستبشراً) أي صاحب بشر وسماحة (و)

مع كونك (بشوشاً) أي باشاً في حال دعوتك للآخرين (صادقاً) فيما تقوله لهم (مسترشداً) أي صاحب رشد وصواب وعقل وحكمة ولا تكن بنقيض ذلك من عبوس الوجه وقساوة الطبع والتعنيف والكذب فيما تنقله عن الخصوم فإن ذلك كله ليس من صفات المؤمن الحق الداعي إلى الله تعالى (إنما الإسلام دين الاصطفاء) أي الصفا والمودة واللين والتواضع لا الخصومة والجدال والفرقة وهذا الذي أمر الله به رسوله والمؤمنين من أمته (ومجال) أي مكان (الفصل) أي القضاء بين كل متنازعين في الرأي وغيره يكون (في العقبى غدا) أي في الآخرة يوم القيامة كما دلت عليه الآيات منها قوله تعالى: {فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ}. وقوله تعالى: {وَسَيَعْلَمَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ}.

وبعد أن ذكر الناظم نصحه وإرشاده لأولئك المتصددين للدعوة وبين منهجه في هذا الأمر عاد إلى التروح واسترسل في الذكرى بالحبيب الذي تحن له القلوب وتطرب بذكره النفوس فقال: (ذكروني) أي أعيدوا على مسامعي ذكرى (ما جرى) أي ما حدث (من آية) أي معجزة وأراد بها ما حصل من إرهاصات يوم حمله وولادته وبروزه الشريف (و) إن الذكرى إذا أعيدت على المسامع ووصلت إلى القلوب تفاعلت النفوس ويكون ما يكون من (انفعال) أي حركة يعبر عنها صاحبها (في المقام) أي بالقيام لأن حروف الجر تنوب بعضها عن بعض وذلك الانفعال وهو تحرك الجالس إلى القيام لذكرى (جددا) وقوعه بسماعها ف (كل إعجاز

جری) أي حدث (في لحظة الإهلال) أي البروز الشريف وقد تقدم عدة من تلك الإعجازات رواها أصحاب السير ومنها جملة ذكرها صاحب الأنوار المحمدية والتي اختصرها من المواهب اللدنية أذكر بعضها قال: روى الطبراني أنه لما وقع إلى الأرض وقع مقبوضة أصابع يديه مشيراً بالسبابة كالمسبح بها. وروى عن عثمان بن أبي العاص عن أمه فاطمة قالت: لما حضرت ولادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأيت البيت حين وقع امتلاً نوراً ورأيت النجوم تدنو حتى ظننت أنها ستقع عليّ، وعن العرياض بن سارية رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "إني عبد الله وخاتم النبيين وإن آدم لمجنوداً في طينته وسأخبركم عن ذلك إني دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأيت وكذلك أمهات النبيين يرين". وإن أم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأته حين وضعت نوراً أضاءت له قصور الشام وإلى هذا أشار عمه العباس بقوله :

وأنت لما ولدت أشرفت الأَرْضَ وضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي النور وسبل الرشاد نَحْتَرَقُ
وبعد هذا كله فإن ما ذكرته كتب السيرة عند إهلاله (أدعى) أي
أوجب (أن يصاغ مولداً) ليقراً ويعلمه كل فرد من أفراد أمته ثم أخذ الناظم
يتساءل وسؤاله هنا تقريرى بقوله فيه (خبروني) أي أخبروني (أي إنسان)
من سائر الإنس أو غيرهم (له مثل) ما كان له (طه في الوجود محتداً) أي
شرفاً عظيماً وأمرأً جسيماً كان بهذه الكيفية في الحمل والبروز فلن تجدوا

غيره بهذه الصفة وهذه المكانة فعندها (رددوا أخبار طه) من حمله إلى انتقاله إلى جوار ربه (في الورى) أي في أمته عليه الصلاة والسلام لكي يرتبطوا به ويكون لهم قدوة في سائر دروب حياتهم ف(إن في أخباره) وترديد سيرته واقتداء أمته به ومحبتهم له (كبت العدا) ودحرهم ولذلك فهم لا يحبون أن تتعلم الناشئة ما كان من أخبار وصفات وحقائق ووقائع نبيها فيا معشر الأمة المحمدية دعوا ما يريده الأعداء (وانهضوا) وليكن نحوضكم (بالأخذ بالعلم) بما كان عليه أمر نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم ودراسة سيرته من جميع جوانبها. ف(عسى عن طريق العلم) بسيرة وأخلاق وصفات هذا الحبيب (نقفوا) أي نتبع (أحمدا) عليه الصلاة والسلام وقد أمرنا بذلك في قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} . وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: "كل الناس يدخلون الجنة إلا من أبي، فقالوا: ومن يأبي يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى".

فصل في (ظواهر التنشئة والتربية)

(غرة المختار) أي لما ظهرت للدنيا عليه صلوات ربي وسلامه
أبد الآبدين ودهر الداهرين (كانت) تلك الغرة الشريفة (مظهراً هائلاً) أي
من الهناء المصاحب للأمن (في أهله لما بدأ) كلهم ابتداءً بأمه عليه
الصلاة والسلام فقد هنتت به لما حملته ورأت من البشارات التي بشرتها
بأنها حملت خير الخلق كلهم، وكذا يوم ولادته واستهلال غرته وما شاهدته
أيضاً عند الوضع به.

[وروى أبو نعيم أن آمنة أتتها آت بعد ستة أشهر من حملها
وقال: يا آمنة إنك حملت بخير العالمين فإذا وضعتيه فسميه محمداً، واكتمي
شأنك. ثم لما أخذها الطلق وكانت وحدها رأت كأن طائراً أبيض قد مسح
فؤادها، فذهب روعها، ثم أُتيت بشربة بيضاء فتناولتها فأضاء لها نور عال
ثم رأت نسوة كالنخل طولاً، فأحدقن بها، فقالت: من أين علمتن بي؟ وفي
رواية: فقلن لي: نحن آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران وهؤلاء الحور
العين. ثم رأت ديباجاً أبيض مُدَّ بين السماء والأرض، ورجالاً بأيديهم
أباريق فضة، وقطعة من الطير أقبلت حتى غطت حجرتها، مناقيرها من
الزمرد، وأجنحتها من الياقوت، ورأت مشارق الأرض ومغارها، وثلاثة
أعلام منصوبات علماً بالمشرق، وعلماً بالمغرب، وعلماً على ظهر الكعبة،
فأخذها النفاس فوضعتته صلى الله عليه وآله وسلم فإذا هو ساجد قد رفع
أصبعيه إلى السماء كالمتضرع المبتهل ثم رأت سحابة بيضاء وغشيتها فغيبته
عنها. فسمعت منادياً يقول طوفوا به مشارق الأرض ومغارها، وأدخلوه

البحار ليعرفوه باسمه ونعته وصورته، ويعلموا أنه سمي " الماحي " لأنه لا يبقى شيء من الشرك إلا محي في زمنه صلى الله عليه وآله وسلم ثم أنجلت عنه في أسرع وقت.

وروى الخطيب البغدادي بسنده: أنها لما وضعته رأته سحابة عظيمة لها نور يسمع فيها صهيل الخيل، وخفقان الأجنحة وكلام الرجال حتى غشيتها وغيب عنها، فسمعت منادياً يقول: طوفوا به جميع الأرض، واعرضوه على كل روحاني من الجن، والإنس، والملائكة، والطيور، والوحوش، واغمسوه في أخلاق النبيين ثم أنجلت عنه وقد قبض على حريرة بيضاء مطوية طياً شديداً، ينبع منها ماء، وإذا قائل يقول: بخ بخ. قد قبض محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الدنيا كلها، حتى لم يبق أحد من أهلها إلا دخل طائعاً في قبضته، ثم رأته ثلاثة نفر بيد أحدهم إبريق فضة، والثاني طست من زبرجد أخضر، والثالث حريرة بيضاء أخرج منها خاتماً يحار الناظرون دونه، فغسله سبع مرات ثم ختم به بين كتفيه، ثم احتمله فأدخله بين أجنحته ساعة ثم رده إلى أمه [اه المنح المكية في شرح الهمزية للعلامة ابن حجر.

وأما الهناء الذي حصل لسائر أهله من قريش كلهم ببركته عليه الصلاة والسلام أن حفظ لهم بلدهم وبيتهم الحرام من أصحاب الفيل لما أرادوه بسوء وكان لهم بذلك سؤدداً ورفعةً وعلواً ومقاماً عند الناس كلهم ومن أجل ذلك ذكر الله تعالى تلك القصة في القرآن النازل على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم مذكراً بتلك النعمة الكبرى لهم فمَنَّ عليهم

بذلك الفضل الذي نالوه ببركته صلى الله عليه وآله وسلم، وكيف أنه تعالى تولى بنفسه الدفاع عن هذا البيت الذي سيكون قبلة لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ومن جلال أنواره وشروق محياه سماه الله تعالى نوراً **ف(كل من شاهده)** من أول ظهوره عليه الصلاة والسلام في ليلة ميلاده رأى أنواراً كما سبق وأن ذكرنا، ولا مانع من ذكر بعض الأخبار في ذلك فعن عثمان بن أبي العاص عن أمه أم عثمان الثقفية الصحابية واسمها فاطمة بنت عبد الله قالت: لما حضرت ولادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأيت البيت حين وقع . أي نزل من بطن أمه . قد امتلأ نوراً ورأيت النجوم تدنو حتى ظننت أنها ستقع عليّ فلما وضعته آمنة خرج منها نور أضاء له البيت والدار حتى جعلت لا أرى إلا نوراً. رواه البيهقي والطبري وابن عبد البر كما قاله الزرقاني، وبقي ذلك النور يتلألأ فيه حتى أنه ما **(من وافدٍ)** يفد عليه صلى الله عليه وآله وسلم إلا ويرى النور. **(و)** إذا **(رأى النور استهاب)** أي وقعت له هيبة من رؤيته **(المشهدا)** الذي تلوح فيه الأنوار فقد أتى في السير أن أعرايياً دخل عليه فوقعت له هيبة عظيمة فقال له عليه الصلاة

والسلام على إثرها: "هون عليك إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد في قريش".

والحاصل **(إنَّ في أنوارِ طه)** عليه الصلاة والسلام التي ظهرت عند ولادته واستفاض خبرها عند قريش واشتهر ذكرها عندهم حتى قال العباس رضي الله عنه كما تقدم :

وأنت لما ولدت أشرقت ال أرض وضاءت بنورك الأفق
 فإن في أنواره (مظهراً) من المظاهر (لمراد الله) أي لما أَرَادَهُ اللهُ
 تعالى (في الكون غداً) ظاهراً وواضحاً فإن في ظهور هذا النور عند ولادته
 إشارة إلى ما يجيء به من ذلك النور الذي يهدي به العالم ويزيل به
 ظلمات الكفر قال تعالى: { قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي
 بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } .
 وبذلك النور الذي جاء به من عند الله تعالى نَوَّرَ البصائر وأحيا
 القلوب الميتة وفتح الأعين العمياء والآذان الصماء .

ف(إنَّ هذا) كله (فضلٌ مبعوث الورى) أي من أرسله الله تعالى
 للعالمين (وختامُ الأنبياءِ السُّعَدَا) أي من ختم الله به النبوة . فهو وإن كان
 آخرهم بعثاً فهو أولهم وجوداً وأفضلهم وأعلاهم منزلة . (طبت يا طه
 وجوداً) أي حال وجودك فإنه ولد ولم يكن عليه من أقدار الولادة شيء
 كما تقدم وولد محتوناً مسروراً صلى الله عليه وآله وسلم وقد مر معنا ما
 كان من أمر ولادته وما كان فيها من أمور (وكذا طبت حملاً) وقد مر
 إيضاح ذلك (ومقاماً أرغداً) في الحياة الدنيا رغم ما قاساه عليه الصلاة
 والسلام من شدائد في تبليغ رسالته لكن لم ينقص ذلك من مقامه العالي
 شيئاً بل زاده علواً إلى علوه ورفعة إلى رفعته وكمالاً إلى كماله، لأن ما لاقاه
 في سبيل ذلك إنما لاقاه ليتأسى به بعد ذلك الدعاة والعلماء والمبلغون عنه
 صلى الله عليه وآله وسلم من أمته ويصبروا وهو دليل كمال صبره وجهاده

في سبيل نشر دين الله تعالى فإنه قد (أثبت التاريخ والسيره) من كمالته في سائر أحواله (ما يُثْلَجُ الملهوف) أي المتلهف لأخباره وصفاته (علماً) حيث أثبت كل ما كان من أمره في جميع شؤون حياته (وهدي) أي لأجل الاهتداء بسيرته تلك والسير على منوالها في سائر الأحوال والتعرف على عظيم فضله عليه الصلاة والسلام وأنه كان في حال حياته الدنيوية فرداً ليس له مثال كما كان ذلك في حال حمله ووضعه فهو أول المسلمين فقال تعالى مبيناً ذلك بقوله: {قُلْ إِيَّايَ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ}. وهو خاتم النبيين كما قال تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} وقال عليه الصلاة والسلام: "مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين" متفق عليه. وهو عليه الصلاة والسلام أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ويحرم نكاحهن رضي الله عنهن بعده صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى: {النَّبِيِّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ} وقال تعالى: {وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا} وفي الحديث: "ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة". اقرؤا إن شئتم: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) رواه البخاري ومسلم ومسلم: "أنا أولى بكل مؤمن من نفسه". وهو عليه الصلاة والسلام خير خلق الله على الإطلاق وسيد

ولد آدم وقد مر من الأحاديث ما يؤيد ما ذكرناه ونذكر أيضاً حديث
 وائلة بن الأسقع رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله
 وسلم يقول: "إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشاً من
 كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم" رواه
 مسلم.

ومن علو قدره ورفعة منزلته وكونه فرداً لا مثال له في الخلق أبداً
 أن طاعته هي طاعة الله وأن مبايعته مبايعة الله قال تعالى: {مَنْ يُطِيعِ
 الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ}. وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ
 اللَّهَ}. ومن ذلك أن جعل الله تعالى الإيمان به مقروناً بالإيمان برسوله صلى
 الله عليه وآله وسلم فمن آمن بالله ولم يؤمن برسوله فلا إيمان له قال تعالى:
 {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} ومن ذلك إنه رحمة للعالمين كما
 قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}. ومن ذلك إنه أمان لأُمَّته
 كما قال تعالى {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ
 وَهُمْ يَسْتَعْفِفُونَ}. ومن ذلك إن الله تكفل بحفظه وعصمته من الناس فقال
 تعالى {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} وقد كان بعض الصحابة رضي الله عنهم
 يحرسه فلما نزلت هذه الآية صرفهم عن حراسته صلى الله عليه وآله وسلم.
 ومن ذلك إن المولى تكفل بحفظ دينه من التغيير والتبديل إكراماً له فقال
 تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}. ومن رفيع منزلته أن مولاه
 أقسم بحياته عليه الصلاة والسلام فقال تعالى: {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ
 يَعْمَهُونَ} قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ما حلف الله تعالى بحياة

أحد إلا بحياة محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال: لعمر ك روه البهقي وابن أبي شيبة. وكما أقسم بحياته أقسم له تعالى وفي هذا غاية التقدير والتعظيم والتفخيم فقال تعالى { وَالصَّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى } . وأقسم أيضاً ببلده فقال: { لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ } . ومن عظيم قدره ورفعة مكانه عليه الصلاة والسلام عند ربه تعالى أنه لم يناده باسمه ولم يخاطبه بشخصه إنما كان يخاطبه بالنبوة والرسالة بخلاف ما خاطب به تعالى الأنبياء السابقين عليه وعليهم أركى الصلاة وأتم التسليم فقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ } ، { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ } ، بينما قال لأنبيائه: { يَتُوحَّاهِبُ بِسَلَامٍ مِّنَّا } . ولآدم عليه السلام: { يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ } ولموسى عليه السلام: { يَمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ } ، ولإبراهيم عليه السلام: { يَا إِبْرَاهِيمَ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا } ، والآيات في هذا كثيرة .

ومن عظيم قدره ورفعة مكانته عند ربه عز وجل ما أمر الله به هذه الأمة من تبجيله وتشريفه واحترامه وتقديره بحيث لا ينادونه باسمه بل ينادونه ب: يا رسول الله .. يا نبي الله، ولا يذكرون اسمه مجرداً، فقال تعالى: { لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ، قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبیر رضي الله عنهم: كانوا الناس يقولون: يا محمد ويا أبا القاسم فنهاهم الله عز وجل

عن ذلك إعظاماً لنبية صلى الله عليه وآله وسلم وأمرهم أن يقولوا: يا نبي الله يا رسول الله . ومن ذلك التبجيل والاحترام أنه تعالى نهاهم أن يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا يجهروا له بالقول عند المخاطبة أو في المكان الذي هو موجود فيه فقال تعالى: {يَأْيَيْهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} . ومن ذلك أن تولى الله سبحانه وتعالى الإجابة والدفاع عنه عليه الصلاة والسلام عندما اتهمه قومه وقالوا عنه: أنه ساحر ومجنون وهكذا.... بخلاف من تقدمه من الأنبياء عليهم السلام حيث كانوا هم الذين يدافعون عن أنفسهم ويردون على أعدائهم وهذا دال دلالة واضحة قاطعة على علو مكانته عند ربه عز وجل ورفعة قدره وزيادة حب الله تعالى له عليه الصلاة والسلام وكونه مفرداً عن غيره من سائر الخلق. فقال تعالى عن نوح: {قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنِّي لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} وقال تعالى عن هود عليه السلام: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنِّي لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنِّي لَأَنتُظَنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} وهكذا بينما قال تعالى مدافعاً هو بنفسه عن نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لما قالوا عنه أنه مجنون قال: {وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ} ولما قالوا أنه شاعر قال: {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ} ولما قالوا أنه ساحر وكاهن قال تعالى: {وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ} وهكذا . بل من عظيم قدره ورفعة مكانته

أنه تعالى لما ذكره مع الأنبياء في أخذ العهد والميثاق وفي الوحي ذكره أولاً ثم أتى بغيره بعده رغم تأخره عنهم في الزمن والفترة فقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا}. وقال سبحانه وتعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا}.

فصل في رضاعه صلى الله عليه وآله وسلم

ومما أثبتته السير والتواريخ رضاعه صلى الله عليه وآله وسلم وقد أرضعه عدة مرضع الأولى منهن أمه عليه الصلاة والسلام السيدة الجليلة آمنة أرضعته سبعة أيام والثانية ثوية مولاة أبي لهب وهي التي أعتقها أبو لهب عندما بشرته بولادة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وقد رؤي أبو لهب بعد موته في النوم رآه أخوه العباس بن عبد المطلب فقال له : ما حالك؟ قال: في النار إلا أنه يخفف عني في كل ليلة اثنين وأمص من بين أصبعي هاتين ماءً وأشار برأسي أصبعيه وإن ذاك بإعتاقي لثوية عندما بشرتني بولادة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبارضاعها له. الثالثة امرأة من بني سعد غير حليلة على ما ذكره ابن سعد في طبقاته والرابعة خولة بنت المنذر أم بردة الأنصارية ذكر ذلك صاحب السيرة الحلبية. الخامسة أم أيمن بركة الحبشية ذكرها القرطبي وكذلك صاحب السيرة الحلبية والمشهور أنها من الحواضن. السادسة والسابعة والثامنة قال القرطبي أنه مَرَّ به على نسوة ثلاث من بني سليم فوضع منهن واسم كل واحدة منهن عاتكة¹. قال في شرح بهجة المحافل لابن الأشعر: [نقله السهيلي عن بعضهم في تأويل قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "أنا ابن العواتك من سليم" وهو حديث خرجه سعيد بن منصور في سننه والطبراني في الكبير عن شبابة بن عاصم قيل إنه مر بهن وهو صغير فوضعت كل واحدة منهن ثديها في فيه فدر عليه وذكر ابن عبد البر والهروي وغيرهما أن العواتك من سليم اللاتي انتسب إليهن

¹ انتهى نقلاً من حاشية المنح المكية شرح الهمزية بتصرف يسير مع زيادة.

صلى الله عليه وآله وسلم عاتكة بنت هلال بن قاسم بن ذكوان أم عبد مناف بن قصي وعاتكة بنت مرة بن هلال المذكور وهي أم هاشم بن عبد مناف وعاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال المذكور وهي أم وهب أبي أمينة أم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فالأولى عمه الوسطى والوسطى عمه الأخرى وبنو سليم تفخر بهذه الولادة. [التاسعة أم فروة ذكرها المستغفري والعاشرة ذكرها الناظم بقوله (بِنْتُ سَعْدٍ) وهي حليلة السعدية وهي أشهر مرضعته عليه الصلاة والسلام وكان من عادة العرب إذا ولد لهم مولود يلتمسون له مرضعة من غير قبيلتهم ليكون أنجب للولد وأفصح له وقيل لأنهم كانوا يرونه أنه عار على المرأة أن ترضع ولدها أي أن تستقل برضاعه ويدل للأول ما جاء أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول لأصحابه: "أنا أعريكم - أي أفصحكم عربية- أنا قرشي واسترضعت في بني سعد." وكان من سعادة الله لحليمة أن أرضعت أشرف الخلق على الإطلاق وذلك أن جده عبد المطلب ضمن به أن يرضعه غير حليلة لما سمع هاتفاً يقول له:

إن ابن أمينة الأمين محمداً خير الأنام وخيرة الأختيار
 ما إن له غير الحليلة مرضع نعم الأمينة هي على الأبرار
 مأمونة من كل عيب فاحش ونقية الأثواب والأوزار
 لا تسلمنه إلى سواها إنه أمر وحكم جاء من جبار
 ولعل المرضع كانوا أول ما توافدوا توافدوا على بيت السيادة
 والشرف على بيت بني هاشم لما علموا أن عندهم رضيع فكان جده عبد

المطلب يسأل عن أسمائهن فإذا عرف اسم المرضع صرفها بقوله: إنه يتيم، ومعنى ذلك أن أباه غير موجود وذلك على القول بأنه لم يزل على قيد الحياة وكان في المدينة، أو أنه يتيم حقيقة وهو على القول بأنه مات وهو عليه الصلاة والسلام حمل في بطن أمه. فلما عرضت حليلة نفسها على عبد المطلب تطلب إرضاعه عليه الصلاة والسلام فاستقبلها عبد المطلب وقال لها: من أنت؟ فقالت: امرأة من بني سعد فقال: ما اسمك؟ فقالت: حليلة فتبسم عبد المطلب وقال: بخ بخ سعد وحلم حصلتان فيهما خير الدهر وعز الأبد . يقول مولانا الحبيب علي بن محمد الحبشي: [تسابقت إلى رضاعه المرضعات وتوفرت رغبات أهل الوجود في حضانة هذه الذات فنفذ الحكم من الحضرة العظيمة بواسطة السوابق القديمة بأن الأولى بتربية هذا الحبيب وحضانتها السيدة حليلة، وحين لاحظته عيونها وبرز في شأنها من أسرار القدرة الربانية مكنونها نازل قلبها من الفرح والسرور ما دل على أن حظها من الكرامة عند الله حظ موفور] اه .

وحليمة هذه لما أرضعته (كَم رَأَتْ) أي كثيراً ما رأت (من مَوْقِفٍ) أي أمور خارقة للعادة تُظهر بركات من ضمته إليها لإرضاعه لترويتها على مسامع البشرية جيلاً بعد جيل يتناقلها الرواة ليروا عظمة خير الأنام صلى الله عليه وآله وسلم، وهذه المواقف قد (جَمَدَدَ) بها مولاي (البُشْرَى) أي البشارة والفرح والسرور وتفريج الكرب عمن انضم إليه الهادي الأمين (وَأَوْفَى المَوْعِدَا) أي وافاه ربه ما وعده من شرف الدنيا والآخرة في سائر أطوار حياته وأول بشارة لها رضي الله عنها ترويتها هي

وتقول: فذهبت . أي لأخذه بعد مشاورة زوجها واستئذانها له في ذلك . فإذا به . أي عليه الصلاة والسلام . مدرج في ثوب صوف أبيض من اللبن يفوح منه المسك الأذفر وتحتته حريرة خضراء راقدة على قفاه يغط فأشفقت أن أوقظه من نومته لحسنه وجماله فدنوت منه رويداً فوضعت يدي على صدره فتبسم ضاحكاً وفتح عينيه ينظر إليّ فخرج من عينيه نور حتى دخل خلال السماء وأنا أنظر قبلته بين عينيه وأعطيته ثديي الأيمن فأقبل عليه بما شاء من لبن فحوّلتته إلى الأيسر فأبى وكانت تلك حالته بعد . وحليمة هذه رضي الله عنها (يَوْمَ جَاءَتْ) إلى مكة لطلب رضيع تُرضعه تقص خبرها بنفسها عندما أخذت المصطفى لإرضاعه وما رأت من عجائب بركاته تقول: إن أحد ثدييها كان لا يدر منه لبن فلما وضعته في فم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دَرَّ اللبن منه قالت: وشرب معه أخوه حتى رُوي ثم نام وما كنا ننام معه قبل ذلك . أي أن عدم نومته ونومهم بسبب صياحه من الجوع . فقام زوجي إلى شارفنا تلك . أي التي كانت معه ولا تنض بقطرة لبن . فإذا هي حافل أي ممتلئة الضرع من اللبن فحلب منها ما شرب وشربت حتى انتهينا رياً وشبعاً فبتنا بخير ليلة يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليلة لقد أخذتِ نسمة مباركة قلت: والله إني لأرجو ذلك، وقد كان ذلك فهي قد أتت (بِالْأَتَانِ أَعْجَفًا) أي هزيلة لا تقوى على المشي حتى كان الركب كله يسبقها (ثُمَّ) ببركته عليه الصلاة والسلام (عَادَتْ) تلك الأتان (وهي أَفْوَى جَسَدًا) لما ركبت فوقها حليلة وحملته صلى الله عليه وآله وسلم معها على الأتان تقول حليلة عن أتانها

تلك لما أحست بالمصطفى على ظهرها: فوالله لقطعت الركب . أي صيرته خلفها . ما يقدر عليها . أي على مرافقتها ومصاحبته في المشي . شيء من حمهن حتى أن صواحي يقرن لي: يا بنت أبي ذؤيب ويحك أرفقي . أي اعطفي . علينا بالرفق وعدم الشدة في السير أليس هذه أتانك التي كنت خرجت عليها تخفضك طوراً وترفعك أخرى فأقول لمن: بلى والله إنها لمهي فيقرن: والله إن لها لشأناً فقالت حليلة: فكنت أسمع أتاني تنطق وتقول: والله إن لي لشأناً ثم شأناً بعثني الله بعد موتي وردَّ لي سمعي بعد هزالي، ويحك يا نساء بني سعد إنكن لفي غفلة وهل تدرين من على ظهري؟ على ظهري خير النبیین وسيد المرسلین وخير الأولین والآخريين وحبيب رب العالمين اه السيرة الحلبية.

(ورأت) أي حليلة من بركاته (في قومها من ظلّه) أي لما قدمت به عليهم (كلّ خيرٍ مُخصِبٍ) لها حيث قالت: ثم قدمنا أرض بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله تعالى أجذب منها فكانت غنمي تسرح ثم تروح لي شباعاً لُبناً فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضر من قومنا يقولون لرعاتهم: ويحكم انظروا حيث تسرح غنم حليلة فاسرحوا معها، فيسرحون مع غنمي فتروح أغنامهم جيعاً ما فيها قطرة لبن وتروح غنمي شباعاً لُبناً. و(قد أسعدا) أي قدومه عليه الصلاة والسلام حليلة وقومها حيث قالت أيضاً: ولما دخلت به إلى منزلي لم يبق منزل من منازل بني سعد إلا شممنا منه ريح المسك وألقيت محبته صلى الله عليه وآله وسلم في قلوب الناس حتى إن

أحدهم كان إذا نزل به أذى في جسده أخذ كفه صلى الله عليه وآله وسلم فيضعها على موضع الأذى فيبرأ بإذن الله تعالى وكذلك إذا اعتل لهم بعير أو شاة فعلوا ذلك.

(ورأت) حليلة رضي الله عنها (عدلاً) منه عليه الصلاة والسلام (إذا ما أرضعت) أي حينما أرضعته وقد تقدم أنه يقبل على الثدي واحد ويترك الآخر لأخيه من الرضاعة وهكذا كان حاله معها، بل لما بلغ سن الفطام لم يرض أن يقبل على الثدي وبه علمت حليلة بلوغه ذلك بل (ورأت) رضي الله عنها (مُزَنَ الرِّضَا) أي سحب الرضوان والخير والبركة (في المُتَنَدَى) أي في ربوعها بل وسمعت منه حين فطم أول كلام تكلم به: الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً وهو الذي تكلم به عند خروجه من بطن أمه وأتى في بعض الروايات أن أول كلام تكلم به في بعض الليالي وهو عند حليلة: لا إله إلا الله قدوساً قدوساً نامت العيون والرحمن لا تأخذه سنة ولا نوم. وكان لا يمس شيئاً إلا قال: بسم الله، وتقول حليلة: لم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتان وفصلته فكان يشب شاباً لا يشبه الغلمان فلم يبلغ سنتين حتى كان غلاماً جفراً فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على بقاءه عندنا لما نرى من بركته فقلنا لأمه: لو تركته عندنا حتى يغلظ فإننا نخشى عليه وباء مكة ولم نزل بها حتى رده معنا فرجعنا به، ولما رجعت به كانت في أشد الفرح برجوعه ولم تقل ما قالت لأمه إلا حرصاً منها على بقاءه عندها حتى (خَشِيتُ مِنْ بَعْدُ) أي حليلة (أمرأً) جلاًلاً تخوفت منه عليه وذلك

(عندما شَقَّتِ الأَمَلَاكُ) أي الملائكة (صَدْرًا جُرْدًا) أي بعد تجريد صدره الشريف وإضجاعه وشق صدره.

حادثة شق صدره الشريف

تقول حليلة: (فوالله إنه لبعد مقدمنا بشهرين أو ثلاثة وهو مع أخيه من الرضاعة لفي بهم لنا خلف بيوتنا جاء أخوه يشتد فقال ذاك أخي القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضحعا وشقا بطنه فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائماً منتعماً لونه فاعتنقه أبوه وقال أي بني ما شأنك؟ قال جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضحعاني فشقا بطني ثم استخرجوا منه شيئاً فطرحاه ثم رداه كما كان فرجعنا به معنا فقال أبوه يا حليلة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب فانطلقني نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوفه. فلما قال لها ذلك حملت على نفسها وهي غير سخية على فراقه ولكن لما قويت عندها دواعي الخوف عليه (فأعادته) أي حليلة (إلى أطنابه) أي إلى بلاده وأهله (بعد أن شب) لأنه كان يشب في اليوم شباب الصبي في الشهر ويشب في الشهر شباب الصبي في سنة (وأبدى رشداً) أي في تلك السن ولما رجعت به حليلة إلى مكة لترده بعد قصة شق صدره وبلغت به أعالي مكة أضلته. فأتت جده وقالت إني قدمت بمحمد في هذه الليلة فلما كنت بأعالي مكة أضلني فوالله ما أدري أين هو فقام عبد المطلب يدعو الله أن يرده عليه وأنشد:

يا رب ردّ ولدي محمداً
ارده ربي واصطع عندي يدا

فسمع هاتفاً من السماء يقول أيها الناس لا تضجوا إن لمحمد رباً لن يخذله ولن يضيعه فقال عبد المطلب من لنا به فقال إنه بوادي تامة عند الشجرة

اليمنى. فركب عبد المطلب نحوه وتبعه ورقة بن نوفل فوجداه صلى الله عليه وآله وسلم تحت شجرة يجذب غصناً فقال له جده مَنْ أنت يا غلام؟ فقال: أنا محمد بن عبد الله قال عبد المطلب: وأنا جدك فدتك نفسي واحتمله وعانقه وهو يبكي ثم رجع إلى مكة وهو قدامه على قربوس فرسه ونحر الشاء والبقر وأطعم أهل مكة وعلى هذه القصة حمل بعض المفسرين قوله تعالى: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى} وقيل إن هذه القصة تكررت وأنه حصل له ضياع مرة أخرى فوجده أبو جهل فأركبه بين يديه على ناقته وجاء به إلى جده وقال ما تدري ما وقع من ابنك؟ فسأله فقال أنخت الناقة وأركبته من خلفي فأبت أن تقوم فأركبته أمامي فقامت. قالت حليلة لما قدمت به قالت أمه ما ردكما به فقد كنتما حريصين عليه فقلنا: لا والله إلا إنا كفلناه وأدبنا الذي علينا من الحق فيه ثم تخوفنا عليه الأحداث فقلنا: يكون عند أمه. فقالت: والله ما ذاك بكما فأخبراني خبركما وخبره قالت: فوالله ما زالت بنا حتى أخبرناها خبره قالت: أتخوفتما عليه لا والله إن لابني هذا شأنًا ألا أخبركما عنه: إني حملت به فلم أحمل حملاً قط هو أخف منه ولا أعظم بركة منه لقد وضعته فلم يقع كما يقع الصبيان لقد وقع واضعاً يده في الأرض رافعاً رأسه إلى السماء دعاه والحقا بشأنكما.

وحليمة هي بنت أبي ذؤيب واسمه عبد الله بن الحارث ابن شحنة بن جابر السعدية. قدمت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد تزوج خديجة رضي الله عنها فشكت إليه جذب البلاد فكلم خديجة فأعطتها أربعين شاة وأعطتها بعيراً ثم قدمت عليه بعد النبوة فأسلمت

وبايعت وأسلم زوجها الحارث بن عبد العزى. وشق صدره الشريف قد تكرر وذلك من إرهابات النبوة قال ابن حجر وحكمة شق صدره الشريف في حال صباه واستخراج ما مر منه تطهيره عن نقائص الصبا ليكون حينئذٍ على أكمل صفات الرجولية ولذلك نشأ على أكمل الأحوال . وورد في صحيح مسلم أنه أخرج من قلبه حظ الشيطان وأظن على ما في تلك الروايات من طرح علقة سوداء أو علقتين أو حظ الشيطان أو نحو ذلك أي حظ الشيطان من الرحمة له يوم الشفاعة لأنه صلى الله عليه وآله وسلم رحمة للعالمين كلهم بدليل قوله تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } وعلى هذا فإنه في يوم الشفاعة يتناول إبليس لعنه الله لتناله - أي الرحمة - ولكن قد طرح من قلبه عليه الصلاة والسلام حظ الشيطان من الرحمة لذا يقول الإمام علي بن محمد الحبشي:

وما أخرج الأملاك من قلبه أذى ولكنهم زادوه طهراً على طهره وقد ذكرنا أن شق صدره تكرر عدة مرات والمرة الثانية شق صدره الشريف وعمره عشر سنوات فعن أبي بن كعب أن أبا هريرة كان جريئاً على أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أشياء لا يسأله عنها غيره فقال: يا رسول الله ما أول ما رأيت في أمر النبوة؟ فاستوى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالساً وقال: لقد سألت أبا هريرة ... إني لفي صحراء ابن عشر سنين وأشهر وإذا بكلام فوق رأسي وإذا رجل يقول لرجل أهو هو؟ قال: نعم. فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق الله قط وأرواح لم أجد لها لخلق الله قط وثياب لم أرها على أحد قط فأقبلا إليَّ بمشيان

حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد لأحدهما مساً فقال أحدهما لصاحبه أضجعه، فأضجعاني بلا قصر ولا هصر وقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره فهوى أحدهما إلى صدري ففلقها فيما أرى بلا دم ولا وجع فقال له: أخرج الغل والحسد فأخرج شيئاً كههيئة العلقة ثم نبذها فطرحها فقال أدخل الرأفة والرحمة فإذا مثل الذي أخرجه يشبه الفضة ثم هز إبهام رجلي اليمنى فقال اغد واسلم فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ورحمة للكبير. وهذه الرواية لا تصادم ما قدمناه من كلام عن موضوع شق صدره الشريف فإن حوادث شق الصدر كلها أمور معنوية تؤدي في معناها إلى علو مقامه وارتفاع منزلته بعدم مماثلة غيره له من الأمة وانه طاهر مطهر في ذاته وصفاته .

وثالث المرات في شق صدره وثبت ذلك عند مجيء جبريل له بالوحي وهو بغار حراء روى أبو نعيم أن جبريل وميكائيل شقا صدره وغسلاه ثم قال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} والحكمة فيه كمال التهيو والتقوي على ما يلقي إليه من القول الثقيل بقلب قوي في أكمل أحوال التطهير قاله ابن حجر في شرح الهمزية. والمرة الرابعة لحادثة شق صدره ما تواترت به الروايات كما قاله ابن حجر خلافاً لمن أنكرها ليلة الإسراء ففي البخاري وغيره أنه شق قلبه فيها وهو بالمسجد قبل أن يخرج به إلى ركوبه البراق فشق من ثغرة نحره إلى نحو عانته فاستخرج قلبه ثم غسل في طست من ذهب مملوء حكمة وإيماناً ثم حشي ثم أعيد. وحكمة هذا الشق التهيو للرفي إلى الملأ الأعلى والتقوي على استجلاء ما شاهده تلك الليلة .اهـ

(ف) لما ردت حليمة (رعته بنتٌ وهبٌ أمُّه) رعاية الوالدة الحانية على ابنها إلى أن بلغ ست سنين لم تفارقه حضراً ولا سفيراً حتى خرجت به معها إلى المدينة إلى أخواله بني عدي بن النجار تزورهم به ومعها أم أيمن تحضنه فأقامت عندهم شهراً وخافت عليه اليهود وقد جاء في رواية لأبي نعيم قال صلى الله عليه وآله وسلم فنظر إليَّ رجل من اليهود يختلف ينظر إليَّ فقال يا غلام ما اسمك؟ قلت أحمد ونظر إلى ظهري فسمعتة يقول هذا نبي هذه الأمة ثم راح إلى أخواله فأخبرهم فأخبروا أمي فخافت عليَّ فخرجنا من المدينة فلما كانت بالأبواء توفيت ودفنت فيها . والأبواء بين مكة والمدينة . وأشار الناظم إلى موتها رضي الله عنها بقوله (ثم ماتت في الطريق) أي مرجعها به إلى مكة خوفاً عليه من اليهود (دون دا) أي مرض بما (بعد أن زارت به أخواله) صلى الله عليه وآله وسلم (من بني) عدي بن (النجار في أرض الندي) أي يثرب وهي مهاجرة وعند موتها رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند رأسها فنظرت إليه ثم قالت هذه الأبيات:

يا ابن الذي من حومة الحمام	بارك الله فيك من غلام
فودي غداة الضرب بالسهم	نجا بعون الملك العلام
إن صح ما أبصرت في المنام	بمائة من إبل سوام
تبعث في الحل وفي الحرام	فأنت مبعوث إلى الأنام
دين أيبك البر إبراهيم	تبعث في التحقيق والإسلام
أن لا توالياها مع الأقوام	فالله أنحاك عن الأصنام

ثم قالت: كل حي ميت وكل جديد بال وكل كبير يفنى
وأنا ميتة وذكرى باق وولدت طهراً.

حضانة جده له عليه الصلاة والسلام

(و) بعد موت أمه عليه الصلاة والسلام (تولى جده) عبد المطلب واسمه شيبه الحمد (من أمره) أي من حضنته والاعتناء به (ما تولى) أي ما جعله يتولاه بحرص شديد وحنو زائد على حنوه على أبنائه قال ابن الجوزي في صفة الصفوة: روى محمد بن سعد عن جماعة من أهل العلم منهم مجاهد والزهري أن آمنة لما توفيت قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جده عبد المطلب وضمه إليه ورق له رقة لم يرقها على ولده وقربه وأدناه (إذ رأى) أي جده (فيه) صلى الله عليه وآله وسلم (الهدى) الذي سيهدي به الله العالم كله، لأن قوماً من بني مدلج قالوا لعبد المطلب: احتفظ به فإننا لم نر قدماً أشبه بالقدم التي في المقام منه فقال عبد المطلب لأبي طالب: اسمع ما يقول هؤلاء، بل كان عند عبد المطلب خَبْرُهُ من سيف بن ذي يزن لما وفد عليه.

ولما استسقى القوم بعد أن جذبوا بعبد المطلب خرج به واستسقى به فسقاهم الله تعالى وذكر ابن الجوزي أنه صلى الله عليه وآله وسلم في سنة سبع من مولده أصابه رمد شديد فعولج بمكة فلم يفد فقبل لعبد المطلب إن في ناحية عكاظ راهباً يعالج الأعين فركب إليه فناداه وديره مغلق فلم يجبه فترزّل ديره حتى خاف أن يسقط عليه فخرج مبادراً فقال: يا عبد المطلب إن هذا الغلام نبي هذه الأمة ولو لم أخرج إليك لخرب عليّ ديري فارجع به فاحفظه لا يقتله بعض أهل الكتاب. وفي رواية أن الراهب أخرج صحيفة وجعل ينظر إليها وإلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

ثم قال: هو والله خاتم النبيين ثم قال: يا عبد المطلب هذا رمد قال: نعم قال: إن دواءه معه خذ من ريقه . عليه الصلاة والسلام . وضعه على عينيه -صلى الله عليه وآله وسلم- فبرأ لوقته ثم قال الراهب يا عبد المطلب وتالله هذا الذي أقسم على الله به . يعني النبي صلى الله عليه وآله وسلم . فأبري المرضى وأشفى الأعمى من الرمد.

(ثم مات) أي عبد المطلب وهو ابن اثنتين وثمانين سنة وقيل ابن مائة وعشر سنين ويقال وعشرين سنة وسئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أتذكر موت عبد المطلب قال: "نعم وأنا يومئذ ابن ثمان سنين" قالت أم أيمن: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ يبكي خلف سرير عبد المطلب عند موته . ولما مات عبد المطلب بكى الناس عليه بكاء كثيراً قال بعضهم: ما بكى الناس على أحد بعد موته ما بكى على عبد المطلب. ولما حضرته الوفاة أوصى أبا طالب يحتفظ به عليه الصلاة والسلام.

(حضانة أبي طالب ورعايته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم)

(و) بعد جده (انتهى الأمر) كما تقدم (إلى عمه) أبي طالب

وهو (الساعي) في تربيته وحضانته ورعايته (بصدق) وإخلاص ومحبة

عظيمة (وافئدا) له بالأهل والمال والعيال فكان أبو طالب لا ينام إلا إلى

جنبه عليه الصلاة والسلام وكان يخصه بأحسن الطعام وكان أبو طالب

مقللاً من المال فكان عياله إذا أكلوا لوحدهم جميعاً أو فرادى لم يشبعوا

وإذا أكل معهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم شبعوا فكان أبو طالب إذا

أراد أن يغذيهم أو يعشيهم يقول لهم: كما أنتم حتى يأتي ابني فيأتي رسول

الله صلى الله عليه وآله وسلم فيأكل معهم فيشبعون فيفضلون من طعامهم

وإذا كان لبناً شرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أولهم ثم تناول

العيال القعب . أي القدح من الخشب . فيشربون منه فيروون من عند

آخرهم أي جميعهم من القعب الواحد وإن كان أحدهم وحده يشرب قعباً

واحداً فيقول أبو طالب إنك مبارك . ف(قد رعى) أبو طالب (المختار)

عليه الصلاة والسلام (في سن الصبا) وتقدم أنه كان يحبه حباً شديداً

حتى أنه ينام إلى جنبه وإذا خرج خرج به معه حتى أن قريشاً لما ألم بهم

القحط وأجدبت عليهم استسقوا بأبي طالب فقالوا له يا

أبا طالب أقحط الوادي وأجدب العيال فهلم فاستسق فخرج أبو طالب

ومعه النبي صلى الله عليه وآله وسلم . يقول راوي الخبر: كأنه شمس دجى

تجلت عنها سحابة قتماً وحوله أغيلمة . فأخذه أبو طالب فألصق ظهر

الغلام بالكعبة ولاذ الغلام أي أشار بأصبعه إلى السماء كالمترضع الملتجئ وما في السماء قزعة فأقبل السحاب من ههنا وههنا واغدودق الوادي أي أمطر وكثر قطره وأخصب النادي والبادي وفي هذا يقول أبو طالب يُذَكِّر قريشاً . حين تمالؤا على أذيته صلى الله عليه وآله وسلم بعد البعثة . يده وبركته عليهم من صغره:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل
(و) كذلك رعاه أبو طالب في سن (الشباب وحماه) ودافع عنه
(وفداً) ه حين أجمع القوم على عداوته بنفسه ولسانه وأهل بيته ومن
أطاعه من قومه وعرض نفسه للشر دونه كما قال في قصيدته المشهورة :
حدبت بنفسي دونه وحميته ودافعت عنه بالذراري والكلاكل
وسياتي تنمة ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

(حديث بحيرا الراهب)

ولما بلغ صلى الله عليه وآله وسلم ثنتي عشرة سنة وقيل تسع سنين سافر عمه أبو طالب إلى الشام وصحبه معه في سفره ذلك. روى ابن الجوزي في صفة الصفوة: [عن داود بن الحصين قال: لما خرج أبو طالب إلى الشام وبها راهب يقال له: بحيرا في صومعة له، وكان علماء النصارى يكونون في تلك الصومعة يتوارثونها عن كتاب يدرسونه. فلما نزلوا ببخيرا وكانوا كثيراً ما يمرون به لا يكلمهم حتى إذا كان ذلك العام ونزلوا منزلاً قريباً من صومعته قد كانوا ينزلونه قبل ذلك كلما مروا، فصنع لهم طعاماً ثم دعاهم. وإنما حمله على دعوتهم أنه رآهم حين طلوعوا وغمامة تظل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من بين القوم حتى نزلوا تحت الشجرة. ثم نظر إلى تلك الغمامة أظلت تلك الشجرة وأخضلت أغصان الشجرة أي كثرت أغصانها وأوراقها على النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين استظل تحتها. فلما رأى بحيرا ذلك نزل من صومعته وأمر بذلك الطعام فأتي به، وأرسل إليهم فقال: إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش وأنا أحب أن تحضروه كلكم ولا تخلفوا منكم صغيراً ولا كبيراً، حراً ولا عبداً، فإن هذا شيء تكرموني به. فقال رجل: إن لك لشأناً يا بحيرا، ما كنت تصنع بنا هذا فما شأنك اليوم؟ قال: فإني أحببت أن أكرمكم فلکم حق.

فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من بين القوم لحداثة سنه ليس في القوم أصغر منه في رحالهم تحت الشجرة، فلما نظر

بحيرا إلى القوم فلم ير الصفة التي يعرف ويجدها عنده، وجعل ينظر فلا يرى الغمامة على أحد من القوم، ورآها متخلفة على رأس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال بحيرا: يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي. قالوا: ما تخلف أحد إلا غلام هو أصغر القوم سنأ في رحالهم. فقال: ادعوه فليحضر طعامي فما أقبح أن يتخلف رجل واحد مع أبي أراه من أنفسكم. فقال القوم: هو والله أوسطنا نسباً وهو ابن أخي هذا الرجل، يعنون أبا طالب، وهو من ولد عبد المطلب فقال الحارث بن عبد المطلب: والله إن كان بنا للوأم أن يتخلف ابن عبد المطلب من بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه وأقبل به حتى أجلسه على الطعام، والغمامة تسير على رأسه، وجعل بحيرا يلحظ لحظاً شديداً، وينظر إلى أشياء في جسده قد كان يجدها عنده من صفته، فلما تفرقوا عن طعامهم قام إليه الراهب فقال: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا تسألني باللات والعزى، فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما، قال: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، قال: سلني عما بدا لك فجعل يسأله عن أشياء من حاله حتى نومه، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخبره فيوافق ذلك ما عنده، ثم جعل ينظر بين عينيه، ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على الصفة التي عنده، فقبل موضع الخاتم وقالت قريش: إن لمحمد عند هذا الراهب لقدراً، وجعل أبو طالب لما يرى من الراهب يخاف على ابن أخيه، فقال الراهب لأبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال أبو طالب: ابني. قال:

ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً. قال: فابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: هلك وأمه حبلى به. قال: فما فعلت أمه؟ قال: توفيت قريباً. قال: صدقت، ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما أعرف ليبغنه بغياً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم نجده في كتبنا وما روينا عن آبائنا، واعلم أي قد أديت إليك النصيحة.

فلما فرغوا من تجارتهم خرج به سريعاً وكان رجال من يهود قد رأوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعرفوا صفته فأرادوا أن يغتالوه فذهبوا إلى بحيرا فذاكروه أمره فنهاهم أشد النهي وقال لهم: أتجدون صفته؟ قالوا: نعم. قال: فما لكم إليه سبيل، فصدقوه وتركوه.

ورجع به أبو طالب فما خرج به سفراً بعد ذلك خوفاً عليه، قال الشيخ رحمه الله: وما زال صلى الله عليه وآله وسلم في صغره أفضل الخلق مروءة وأحسنهم خلقاً وأصدقهم حديثاً وأبعدهم عن الفحش والأذى حتى سماه قومه الأمين [اهـ].

ذكر خروجه إلى الشام مرة أخرى

ولكنه لما بلغ عليه الصلاة والسلام من العمر خمساً وعشرين سنة قال له عمه أبو طالب: أنا رجل لا مال لي وقد اشتد عليّ الزمان وهذه غير قومك قد حضر خروجها إلى الشام وخديجة تبعث رجالاً من قومك فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك، وبلغ خديجة ما قال له أبو طالب فقالت: أنا أعطيك ضعف ما أعطي رجالاً من قومك، فقال أبو طالب: هذا رزق قد ساقه الله إليك فخرج مع غلامها ميسرة وجعل أعمامه يوصون به أهل العير و(في طريق الشام كانوا رفقة) حتى قدموا بصرى من الشام فنزل عليه الصلاة والسلام في ظل شجرة (إذ رأى نسطور) الراهب ذلك النازل ورأى (فيه الرشد) أي النبوة حتى قال: ما نزل تحت هذه الشجرة قط بعد عيسى إلا نبي، ثم قال لميسرة: أفي عينيه حمرة؟ قال: نعم لا تفارقه. فقال: هو نبي وهو آخر الأنبياء، وكان ميسرة يرى في الهاجرة ملكين يظانه من الشمس، (قال:) أي نسطور كما قال بحيرى من قبل (أخشى من يهود قتله) وفي سيرة ابن هشام ذكر أن نسطورا قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: احذر على نفسك من كيد اليهود والنصارى وأوصى ميسرة به فقيل له: كيف عرفت أنه فينا؟ قال: إنكم لما أقبلتم لم يبق شجر ولا حجر إلا وسجد إلى جهتكم. وما رآه أحد من الذين عندهم علم من أهل الكتاب إلا قال ذلك (غير أن الله) تعالى (يحمي أحمداً) عليه الصلاة والسلام لأنه نبيه وحبيبه ومصطفاه

وهو الذي أراده أن يكون خاتم الأنبياء والمرسلين. (واستمر الحفظ) له من الله تعالى أن تناله يد بسوء والرعاية (والتوجيه) له عليه الصلاة والسلام (من عمه) أبي طالب ولا زال راعياً له (حتى أتى ما أوعدا) الله به من النبوة لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولم تنقطع رعاية عمه عنه بل استمر على ذلك، وسيأتي إن شاء الله بيانه في موضعه.

فصل في (زواجه صلى الله عليه وآله وسلم

من خديجة الكبرى)

وقال عنها الكبرى تمييزاً لها عن غيرها ممن سمي باسمها في زمانها أو بعدها وهي أفضل نسائه عليه الصلاة والسلام فهي خديجة بنت خويلد بن عبد العزى بن قصي. وكانت خديجة من أفضل نساء قريش حسباً ونسباً وجمالاً ومالاً وفي الصحيحين أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: "خير نسائها مريم ابنة عمران وخير نسائها خديجة". أي مريم خير نساء زمانها وخديجة خير نساء زمانها. وأنه قال عليه الصلاة والسلام: "أتاني جبريل فقال: هذه خديجة فإذا أتتك فاقراً عليها السلام من رها ومني وبشرها بيت في الجنة من قصب لا نصب فيه ولا صحب" أخرجه البخاري وزاد الطبراني أنها قالت: هو السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام. القصب: اللؤلؤ المحوف، والنصب: التعب، والصحب: الصراخ.

(عاش طه) حياة الطفولة والشباب (علماء في مكة) معروفاً بالعفة والأمانة والصدق حتى لقب بالصادق الأمين (راعياً) لتلك الجوانب الكريمة الجليلة (أو ساعياً) في خير (أو منجداً) من استنجد به، يقول سيدي أحمد دحلان في سيرته: وقد حفظ الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم مما كان عليه الجاهلية من أقدارهم ومعايهم بحسب ما آل إليه شرعه لما يريد الله تعالى به من كرامته حتى صار أحسنهم خلقاً وأعظمهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزهاً وأفضل قومه مروءة وأكرمهم مخالطة

وخيرهم جواراً وأكثرهم حلماً وأحفظهم أمانة وأصدقهم حديثاً فسموه
 الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة الحميدة والفعال السديدة من
 الحلم والصبر والشكر والعدل والزهد والتواضع والعفة والجود والشجاعة
 والحياء والمروءة اهـ وبهذه الأخلاق أصبح (كل من عاشره) أي اختلط به
 (يلقى به) أي المخالط له عليه الصلاة والسلام (كل أنس) لما يلمسه من
 كريم الخصال وجميل المعاشرة (وارتياحٍ) أي راحة (واهدتدا) وهداية فهو
 صلى الله عليه وآله وسلم (شب) أي ترعرع (في عزٍّ) أي شرف (وفضل
 باذخ) أي عظيم فهو من بيت أرومة ومعشر كرام طبعوا على المكارم
 والفضائل ولعل المستقري لأجداده يجدهم سادة القوم وأفاضل الناس
 وأماجدهم (ويد القدرة) أي صاحب القدرة المطلقة الذي خلقه وبرأه
 وهياه لما أراد (ترعى الولدا) أي يحيطه بالرعاية في جميع أطواره وتقلباته
 وإليه الإشارة بقوله: (وتقلبك في الساجدين). ومن بعض هذه الأخبار
 تستوحي الرعاية التي أحاطها به مولاه في حياته الأولى أي قبل مبعثه ففي
 الصحيحين: أنه صلى الله عليه وآله وسلم حضرهم يوماً في بناء الكعبة
 فذهب هو وعمه العباس ينقلان الحجارة فقال له العباس اجعل إزارك على
 عاتقك كما يفعلون ففعل فخرَّ إلى الأرض مغشياً عليه وطمحت عيناه إلى
 السماء وقال: "أرني إزاري فشده عليه". ومعنى طمحت أي شخصت
 وارتفعت، ومعنى أرني أعطني. ومن ذلك ما جاء عن علي رضي الله عنه
 وكرم الله وجهه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ما

هممت بقبح مما هم به أهل الجاهلية حتى أكرمني بالنبوة إلا مرتين من الدهر كلتاهما عصمني الله عز وجل من فعلهما قلت لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في غنم لأهله يرعاها: أبصر لي غنمي حتى أسمى هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان قال نعم . وأصل السمر الحديث ليلاً . فخرجت فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء وصوت دفوف ومزامير فقلت من هذا قالوا فلان تزوج فلانة فلهوت بذلك الصوت حتى غلبتني عيناى فنمت فما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت فأخبرته ثم فعلت الليلة الأخرى مثل ذلك. ومن ذلك ما جاء عن أم أيمن قالت: كانوا في الجاهلية يجعلون لهم عيداً عند بوانة . وهو صنم تعبده قريش وتعظمه وتنسك أي تذبح له وتحلف عنده وتعكف عليه يوماً إلى الليل في كل سنة . فكان أبو طالب يحضر مع قومه ويكلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يحضر ذلك العيد معه فيأبى ذلك، قالت: حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ورأيت عماته غضبن عليه أشد الغضب وجعلن يقلن: إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا وما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعاً فلم يزلوا به حتى ذهب معهم ثم رجع فرعاً مرعوباً يقلن: ما دهاك؟ فقال: إني أخشى أن يكون بي لم وهو المس من الشيطان فقلن: ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك فما الذي رأيت قال: إني كلما دنوت من صنم منها . أي من تلك الأصنام التي عند ذلك الصنم الكبير الذي هو بوانة . تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح: وراءك يا محمد لا تمسه قالت: فما عاد إلى

عيدهم حتى تنبأ صلى الله عليه وآله وسلم. ومن ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يعيب كل ما ذبح لغير الله فكان يقول لقريش: الشاة خلقها الله وأنزل لها الماء من السماء وأنت لها من الأرض الكلاء ثم تذبحونها لغير اسم الله قال: فما ذقت شيئاً ذبح على النصب. أي الأصنام. حتى أكرمني الله برسالته.

تنبية: قول الناظم حفظه الله (راعياً) ربما أشار فيه لرعيه صلى الله عليه وآله وسلم للغنم في شبابه فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم"، قال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: "وأنا رعيته لأهل مكة بالقراريط". يقول العلماء: ومن حكمة الله عز وجل في ذلك أن الرجل إذا استرعى الغنم التي هي أضعف البهائم سكن قلبه الرأفة واللطف تعظفاً فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان قد هُذَّبَ أولاً من الحدة الطبيعية والظلم الغريزي فيكون في أعدل الأحوال وما قالوه إشارات وإلا فهو مجبول ومفطور على ذلك صلى الله عليه وآله وسلم.

بناء قريش الكعبة

يقول أهل السير: والذي حمل قريشاً على بناء الكعبة بعد أن هدمها السيل وكانت رضمًا من حجارة فوق القامة مدة ما تأتي لها من الآلة، وذلك أن قيصر بعث إلى النجاشي بمركب فيه ضروب من الآلات وأمره أن يبني له كنيسة تعظمها النصارى بالحبشة فانكسرت المركب وألقاه البحر على ساحل جدة وأيضاً كان بمكة صانع من القبط وأيضاً كان في البئر التي كانت في جوف الكعبة حية عظيمة تخرج كل يوم إذا طلعت الشمس فتشرف على جدار الكعبة ولا يقرب الكعبة أحد من هيبتها فلما تهيئوا للبناء طلع لها عقاب فاحتملها ومع ذلك قد تهيئوا وفرقوا من هدمها وبدأ الوليد بن المغيرة فأخذ المعول وقال: اللهم إنا لا نريد إلا الخير ثم هدم من ناحية الركنين وتربصوا به تلك الليلة فلما لم يصبه شيء تهادوا في الهدم حتى انتهوا إلى حجارة خضر كالأسنمة أخذ بعضها ببعض أساس إبراهيم فأراد أحدهم أن يفصل بين حجرين فانتفضت مكة بأسرها فانتهوا عن ذلك وجعلوه أساس بنائهم إلا أنهم قد نقصوا من بنائها قدر ستة أذرع أو سبعة أذرع لقصور نفقتهم . أي من مال حلال كما تعاهدوا على ذلك . وجعلوا لها باباً واحداً ورفعوه عن الأرض ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا كما ثبت في صحيح البخاري اه بحجة المحافل . وكان ذلك في السنة الخامسة والثلاثين من عمره عليه الصلاة والسلام وتقاسمتها قريش أربعاً فكان جانب الباب لبني عبد مناف وزهرة وكان ما بين الركن الأسود واليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم وكان ظهر الكعبة لبني

جمع وسهم وكان جانب الحجر لبني عبد الدار ولبني أسد ابن عبد العزى
ولبني عدي. (حجر الكعبة) أي موضع الحجر الأسود (لما) انتهوا إلى
موقعه في البناء (اختلفوا) وتنازعت القبائل فيما بينها أيها يضعه في
موضعه حتى كادوا يقتتلون ثم اتفقوا أن يحكموا أول داخل عليهم من بني
هاشم من باب بني شيبه فكان صلى الله عليه وآله وسلم أول داخل
وقعت أبصارهم عليه فقالوا هذا محمد هذا الصادق الأمين رضينا به
فحكموه (حسم الأمر) بينهم بأن بسط رداءه ووضع الحجر فيه وأمر
أربعة من رؤساء القبائل الأربع أن يأخذوا بأرباع الثوب فرفعوه إلى موضعه
فتناوله بيده المباركة فوضعه في موضعه (فكان) هو (السيدا) الذي حقن
دماءهم وحفظهم الله به من الفتنة وهم (أكبروا موقفه) أي ما أتى به من
حل (واستشعروا في الأمين مظهراً للاقتدا) حيث رضوا به لما رأوه
وانقادوا لحله ذلك. ولو أن الناظم ختم الفصل بهذه الأبيات التي أشار بها
إلى قصة وضع الحجر الأسود ووضع مكانها قصة زواجه من خديجة لكان
حسناً لأنه حين زواجه من خديجة كان عمره خمساً وعشرين سنة وقصة
وضع الحجر وعمره خمس وثلاثون سنة حيث كانت ولادة ابنته فاطمة
رضي الله عنها فيها. (وخديج) أي خديجة رضي الله عنها وأرضاها
(خطبته) أي عرضت نفسها عليه فقالت: يا بن عم قد رغبت في
نكاحك، قالت ذلك رضي الله عنها (رغبة في منال) أي نيل (الفضل)
الذي عرفته وزادها فيه (حباً وفداً) دعاها أن تعرض نفسها عليه للزواج

منها وكانت رضي الله عنها امرأة حازمة عاقلة أفضل قريش حسباً ونسباً ومالاً وجمالاً، كل رجل من قومها قد كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه، فلما رأت وسمعت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما سمعت ورأت (أرسلت) للتحقق من ذلك معه غلامها (ميسرة في إثره) أي معه في تجارة لها (نحو أرض الشام) ليخبرها بما يرى ويسمع وقد رأى وسمع من أخباره ما تقدم ونقلها إليها مع ما شاهدت هي بنفسها حيث رآته لما عاد من الشام وكانت في عليه لها وكان دخوله الى مكة وقت الظهيرة وملكان يظلاله (فازدادت ندى) أي رشدأ من أمرها وقدمت على ما أسلفنا، قال البيهقي في دلائل النبوة: "وكانت خديجة رضي الله عنها امرأة حازمة شريفة لبيبة مع ما أراد الله تعالى بها من كرامته فلما أخبرها ميسرة عما أخبرها به بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت له فيما يزعمون: يا بن عم إني قد رغبت فيك لقربتك مني وشرفك في قومك ووسيطتك فيهم وأمانتك عندهم وحسن خلقك وصدق حديثك ثم عرضت عليه نفسها وكانت خديجة . رضي الله عنها وأرضاها . يومئذ أوسط قريشاً نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً....".

ولما عرضت نفسها عليه صلى الله عليه وآله وسلم ذكر ذلك لأعمامه فخرج معه عمه حمزة رضي الله عنه حتى دخل على أبيها خويلد فخطبها إليه فأجاب فتزوجها وأصدقها عشرين بكرة وحضر أبو بكر ورؤساء مضر وعمرها آنذاك ثمانٍ وعشرون سنة وعمره عليه الصلاة والسلام خمس وعشرون سنة، وخطب عمه أبو طالب فقال: الحمد لله

الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئى . أصل . معد وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته . أي الكافرين له . وسواس حرمه . أي المتولين أمره . وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً وجعلنا الحكام على الناس ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح به فإن كان في المال قليلاً فإن المال ظل زائل وأمر حائل ومحمد من قد عرفتم قرابته وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله من مالي كذا وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل فزوجها أبوها منه .

وبهذا (حقق الله لها) أي لخديجة (أمنيةً) أي ما تمنته من الزواج منه عليه الصلاة والسلام ونالت به الشرف والكرامة في الدنيا والآخرة وبقيت معه خمساً وعشرين سنة عشرًا بعد المبعث وخمس عشرة قبله .

(و) رزقها الله منه عليه الصلاة والسلام (بنين وبناتٍ رشداً) أي في غاية وكمال العقل والشرف والسؤدد فهي أم أولاده كلهم رضي الله عنها وهم القاسم وعبد الله الطاهر ورقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة إلا إبراهيم فأمه مارية القبطية .

وهي رضي الله عنها (هيات) له عليه الصلاة والسلام (بيتاً كريماً) حيث ضم أشرف الخلق (هائناً) أي غامراً بالسعادة . حتى (صار) هذا البيت المبجل (مهدي) أي مستقر ومهبط (النور) الإلهي والهداية الربانية (في طول المدى) أي الأوقات . (و) هي رضي الله عنها (افتدت طه) صلى الله عليه وآله وسلم (بما تملكه) من مال وأنفقته في الدعوة إلى الله

تعالى وبذلته في محاب الله ومرضاته على يد زوجها المصطفى الكريم صلى
الله عليه وآله وسلم وهي التي (أسلمت في أول الأمر) من نبوته ورسالته
(ابتدا) حيث لم يسبقها إلى ذلك أحد مطلقاً على وجه الأرض.

فصل في تحنثه صلى الله عليه وآله وسلم (في غار حراء)

لقد حبيت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم الخلوة منذ صغره حيث كان يخرج إلى الصبيان لما ترعرع وهم يلعبون فيجتنبهم وهذه حالة لا تكون إلا لكرام الناس وأشار إلى ذلك صاحب الهمزية بقوله :

ألف النسك والعبادة والخلوة طفلاً وهكذا النجباء
وإذا حلت الهداية قلباً نشطت في العبادة الأعضاء

وكان المتألهون المتعبدون من قريش يتحنثون في غار حراء وأول من

تحنث فيه منهم جده عبد المطلب فكان إذا دخل شهر رمضان صعد حراء وأطعم المساكين ثم تبعه بعد ذلك من تعبد منهم، ولما كان عليه الصلاة

والسلام ميالاً لذلك التحنث منذ صغره وألف النسك كما تقدم (لمعتُ

في ذهن طه لمعةً) تحنثه إلى الخلوة وفراغ النفس وكان ذلك (من لطيفِ

المنح) الذي منحه الله إياه والهداية التي حلت قلبه (وهو المهتمدي)

المعصوم من الذنوب صغيرها وكبيرها جلها وحقيرها قبل النبوة (و) بعدها

حتى (سرى سرٌّ) وهذا السر (عجيبٌ) أي يدعو للعجب حيث كان قومه

كلهم في عبادة الأوثان والانحدار في سفاسف الأمور ورغم ذلك فهذا

السر الذي سرى (نحوه) كان (يرغب) لذاته الشريفة (الخلوة ذاتاً

مفرداً) أي منفرداً معتزلاً الناس حتى يأنس بربه تعالى ويدور (فكره في

الكون) حتى يتعرف على من خلقه وأوجده بهذه الكيفية ويجول فكره

(ويرقى سابحاً باحثاً عن سر هذا الابتداء) أي ابتداء الكون الفسيح وما

فيه من أرض وسماء وأفلاك ونجوم ومخلوقات وهذا الفكر يحتاج إلى حلوة حتى يهيم فيه عليه الصلاة والسلام فكان (مكمن الغار) أي الاختباء في الغار عن أنظار الناس مكاناً لائقاً حتى يتفرغ فيه صلى الله عليه وآله وسلم للعبادة بفكره فالغار (مقام رائق) هادئ لذلك، وكان عليه الصلاة والسلام يتزود للمجاورة في الغار الليالي ذوات العدد حتى إذا نفذ ما معه عاد للتزود مرة أخرى (إذ رأى طه) عليه الصلاة والسلام الأُنس والانقطاع عن الناس و فراغ القلب عن الشواغل في تلك (الليالي) فقضاها (معبداً) أي متعبداً لله تعالى، واختلفوا هل كان يتعبد بشرع من قبله؟ الجمهور من العلماء لم يقولوا بذلك لأنهم لو قالوا بذلك لنقل إلينا ولم ينقل وعليه قيل: كان يتعبد إلهاماً من الله تعالى وقيل بشرع نوح وقيل إبراهيم وقيل موسى وقيل عيسى، قال ابن حجر: قال السراج البلقيني: ولم يجئ في الأحاديث التي وقفنا عليها كيفية تعبده عليه الصلاة والسلام لكن روى ابن إسحاق وغيره أنه كان يخرج إلى حراء شهراً في كل عام يتنسك فيه وكان من نسك قريش في الجاهلية أن يطعم الرجل من جاءه من المساكين حتى إذا انصرف من مجاورته لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة اه .

والظاهر أن تعبده في الغار بالفكر كما ذكره الناظم حفظه الله ونقله الصالح في سبيل الهدى والرشاد عن القدوة أبي الصبر أيوب قال: سألت سيدي أبا السعود ابن أبي العشائر بم كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتعبد في حراء؟ قال: بالتفكر وقيل بالفكر والذكر والله أعلم.

وحال كونه عليه الصلاة والسلام في الغار (نزل) عليه (الوحي) بواسطة جبريل عليه السلام (وطه) عليه الصلاة والسلام (موغل) أي متوغل في تفكره (في بديع الصنع) أي في صنع الله تعالى في هذا الكون الفسيح.

(و) لما نزل جبريل بالوحي على طه الأمين (الغار ارتدا) وهو تشبيه (من جلال الأمر ما لا ينتهي وصفه) على مر الأيام والسنين وقد ذكر الحلبي في سيرته أنه لما أراد أن يخلو ناداه جبل حراء: إِيَّيَا رَسُولَ اللَّهِ لَمَّا قَالَ لَهُ تَبِيرٌ وَهُوَ عَلَى ظَهْرِهِ: اهْبِطْ عَنِّي فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَقْتُلَ عَلَيَّ ظَهْرِي فَأَعَذَبَ اهـ.

وقول الناظم (لكن طه أرشدا) أي إلى ذلك الأمر المنزل عليه حيث قد أوري ذلك في المنام كما ذكره بعض أهل السير وأن أول ما بدأ به الرؤيا الصادقة حتى أنه عليه الصلاة والسلام ما رأى رؤيا إلا وكانت مثل فلق الصبح . فلما جاءه عليه الصلاة والسلام ما رأى رؤيا إلا وكانت لم يكن لغيره من الأنبياء وهي خصوصية اختص بها على غيره من الغطّات التي غطّها جبريل عليه السلام له صلى الله عليه وآله وسلم.

وهي أنه قال: " لما جاءني جبريل فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ ، فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ

الإنسانَ ما لم يَعْلَمْ} ". فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: "زملوني زملوني" فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر: "لقد خشيت على نفسي" فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكلّ وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأً تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمي فقالت له خديجة: يا بن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى يا ليتني فيها جذعاً يا ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أَوْ مخرجي هم"؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي قيل ثلاث سنين وقيل غير ذلك. ومعنى الغط المار الذكر بالطاء أو بالتاء كما في بعض الروايات: العصر والضم والخنق كما صرحت بها بعض الروايات.

والحكمة من ذلك كما قاله أهل العلم شغله عن الالتفات لشيء آخر وإظهار الشدة والجد في الأمر تنبيهاً على ثقل القول الذي سيلقى إليه وإبعاداً لظن التخيل والوسوسة لأنهما ليسا من صفات الأجسام فلما وقع

ذلك بجسمه علم أنه من أمر الله. وقوله عليه الصلاة والسلام: " ما أنا بقارئ: في أول أمر من جبريل عليه السلام له بالقراءة كان جواباً ينفي فيه معرفة القراءة ويدل لذلك رواية الحديث بأن جبريل عليه السلام أخرج له قطعة نمط من حرير مرصعة بالجواهر ووضعها في يده وقال اقرأ، وفي الثانية كان نفيًا لأن يكون في ذلك الرقعة كتابة حيث كان معنى نفيه لن اقرأ في شيء غير مكتوب فيه، وفي الثالثة كان استفهاماً أي أراد: أي شيء تريد مني قراءته فقال له: (اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم).

(و) بما حصل في الغار (بدا) أي ظهر (عهدٌ جديد) أي غير الأول الذي هو عهد الكفر والضلال فقد ظهر عهد الرسالة (في الورى) أي في الناس وهو (عهد {اقرأ}) {بِاسْمِ رَبِّكَ} أي لا يحولك ولا قوتك ومعرفتك {الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ} وهو إيدانٌ بأن الإنسان أشرف المخلوقات {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ} وفيه تذكير بأفضل النعم بعد الخلق وفيه إشارة إلى حصول العلم له عليه الصلاة والسلام بلا واسطة فإنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يكتب حتى يتعلم بالقلم {عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} وهو المراد عليه الصلاة والسلام هنا إذ صور الإنسان كله في ذاته عليه الصلاة والسلام وأشار إلى العلم اللدني الحاصل بدون واسطة. وبهذا كله كان (عهدٌ) نبوته ومن ثم رسالته عهد (علم) بالمعنيين الكسي والوهي (وهدي) إلى الخير والعمل الصالح الخالص فكان (مطلع) أي بداية طلوعه ويزوغ نور (الإيمان في الكون)

كله قد (سرى) سريان الماء في العود الأخضر (وانجلى) أي ظهر ظهوراً واضحاً (الحق) أي دين الحق الذي أكبت الكفر والإلحاد وكان ذلك (لأمر حُدِّداً) من قبل المولى سبحانه وتعالى وهو أن يظهر دين التوحيد ويختتم به الرب الكريم جميع الأديان (و) لهذا (توالى) أي تتابع (الفيض) والمدد بالوحي على نبينا عليه الصلاة والسلام (من رب السما) سبحانه وتعالى بعد أن فتر عنه كما ذكرت حتى أنه عليه الصلاة والسلام كان يتردد إلى غار حراء ويجاور فيه كما كان يصنع قبل رجاء لقاء الملك ونزول الوحي، قال سيدي أحمد زيني دحلان في سيرته عن يحيى بن بكير قال: سألت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن ابتداء الوحي أي بعد فترته فقال: لا أحدثك إلا ما حدثنا به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً فنظرت عن شمالي فلم أر شيئاً فنظرت من خلفي فلم أر شيئاً فرفعت رأسي فرأيت شيئاً بين السماء والأرض، وفي رواية فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي فرعبت منه فأتيت خديجة فقلت: دثروني دثروني . وفي رواية: زملوني زملوني . وصبوا عليّ ماءً بارداً فنزلت هذه الآية: {يَأْتِيهَا الْمُدَّثَّرُ} أي المتلفف بشيابه {قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ} ولم يقل بعد قوله فأنذر "وبشر" مع أنه كما بعث بالندارة بعث بالبشارة لأن البشارة إنما تكون لمن آمن ولم يكن أحد آمن من قبل وهذا يدل على تقدم نبوته على رسالته وأن نبوته كانت بنزول (اقرأ) ورسالته بنزول (يا أيها المدثر) اهـ.

(و) بعدها (تتالي) أي تتابع عليه نزول ما ذكر وهو (الوحي) من ربه (والطير شدا) أي غرد طرباً بهذا الرحمة المهداة الذي قال الله تعالى فيه: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}. فهو إذاً رحمة للعالم كله إنسه وجنه مؤمنه وكافره علوه وسفله شجره وحجره، حيوانه وطيره، حتى روي أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال لجبريل: "هل أصابتك من هذه الرحمة شيء؟" قال: نعم كنت أخشى العاقبة فأمنت لثناء الله عز وجل عليّ بقوله: {ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مَّطَّاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} وبهذه الرحمة التي عمت الكون بأكمله (رددي يا رقعة الأرض) نشيد الفرح فلن يعمك عذاب كما قد سبق في عصور الأنبياء السابقين ولن يقع فيك عموم هلاك لأحد (فذا عصر طه) عليه الصلاة والسلام الذي هو (خاتم الرسل بدا) أي ظهر رحمة للكون أجمع.

فصل في (المعانة) التي لاقاها رسول الله صلى الله عليه وآله في سبيل نشر الدعوة

فإنه عليه الصلاة والسلام (منذ فجر البعثة الغراء) أي من ابتدائها
(غدا) مشمراً (سيد الخلق) عليه الصلاة والسلام (مُجِداً في النداء) أي
مناداة الناس إلى التوحيد ونبذ عبادة الأوثان والأصنام ولكن ابتداء دعوته
صلى الله عليه وآله وسلم سراً ودخل في الإسلام بدعوته عليه الصلاة
والسلام رجال ونساء حتى كمل السابقون الأولون وأولهم على الإطلاق
السيدة خديجة رضي الله عنها وهي أول من صلت خلفه صلى الله عليه
وآله وسلم فقد روي أن جبريل عليه السلام بدا للنبي صلى الله عليه وآله
وسلم في أحسن صورة وأطيب رائحة فقال: يا محمد إن الله يقرئك السلام
ويقول لك: أنت رسولي إلى الجن والإنس فادعهم إلى قول لا إله إلا الله
ثم ضرب برجله الأرض فنبعت عين ماء فتوضأ منها جبريل ثم أمره أن
يتوضأ وقام جبريل يصلي وأمره أن يصلي معه فعلمه الوضوء والصلاة ثم
عرج إلى السماء ورجع صلى الله عليه وآله وسلم لا يمر بحجر ولا مدر إلا
وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله حتى أتى خديجة فأخبرها فغشي
عليها من الفرح ثم أمرها فتوضأت وصلى بها كما صلى به جبريل فكان
ذلك أول فرض الصلاة ركعتين قبل الإسراء.

ثم من الرجال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، أسلم ولم تكن له
وقفة أي تلجج لما دعاه إلى الإسلام بل بادر إلى الإسلام والتصديق. ومن
الفتيان الإمام علي رضي الله عنه فهو قد تربى في بيت رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم وكان لا يفارقه حتى أنه لما آخى بين المهاجرين والأنصار
في المدينة أخذ الحبيب عليه الصلاة والسلام بيد الإمام علي وقال: "هذا

أخي"، وأكرم بهذه مزية و خصوصية. ومن الموالي زيد بن حارثة، ومن الأرقاء بلال رضي الله عنهم، وروي أن ورقة بن نوفل أسلم فعليه فإن صح فيكون أول من أسلم من الرجال، وأسلم بدعوة أبي بكر عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله.

وما زال صلى الله عليه وآله وسلم مستخفياً هو والمسلمون في دار الأرقم ثلاث سنين حتى نزل عليه قوله تعالى: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ} فجهر هو وأصحابه وأخذ (ينشرُ الدعوةَ) جهراً (في الأفجاج) فكان يذهب إلى منازلهم وإلى أماكن تجمعهم (لا يتوانى) في دعوتهم وبالغ في إظهار الحجّة حتى كأنه صدّع قلوبهم بما أورده عليهم من الحجج والبراهين التي عجزوا عن دفعها كما أمره الله تعالى ومع ذلك لم يبعد منه قومه ولم يناؤوه ولم يردوا عليه بل كانوا غير منكرين لما يقول وكان إذا مر عليهم في مجالسهم يقولون: هذا ابن عبد المطلب يكلم من في السماء، واستمروا على ذلك حتى ذكر آهتهم وعابها لما دخل المسجد يوماً فوجدهم يسجدون للأصنام فنهاهم وقال: أبطلتم دين أبيكم إبراهيم فقالوا: إنما نسجد لها لتقرينا إلى الله تعالى فلم يرض بذلك منهم وعاب صنعهم فأجمعوا على مخالفته وعداوته إلا من عصمه الله بالإسلام وهم قليلون مستخفون وهم أربعون أو أكثر بقليل وعطف عليه عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه وسيأتي بيان ذلك عند إشارة الناظم لهذا الأمر.

واشتد الأمر والرسول قائم بالدعوة (رغم ما أبدا) أي أظهره (العدا) من قريش من العداوة (فقريش كذبت ما جاءه) من الوحي والدين (ورأوا دعوتَه ضداً) لدينهم وعدوا ذلك (عدا) على آلهتهم وما دانوا به من الشرك فتشاورت في أمر من أسلم منهم وأجمعوا على التعذيب، ف(عدُّبُوا أتباعه) عليه الصلاة والسلام (في شدة) متناهية من أنواع العذاب وكان ذلك بإغراء من أبي جهل لعنه الله فكان إذا سمع برجل أسلم وله شرف ومنعة لأمه وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك لنسفهن حلمك ولنعيين رأيك ولنضعن شرفك، وإن كان تاجراً قال لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك (واستهانوا الفقراء السجدا) المؤمنين الموحدون فمن عذب في الله لأجل أن يفتر عن دينه ويرجع عن إيمانه كثير.

أشار الناظم إلى بعض منهم فقال: (كبلال) بن رباح رضي الله تعالى عنه وكان مولى لأمية بن خلف الجمحي، روى ابن إسحاق أن أمية بن خلف كان يخرج باللاً إذا حميت الظهيرة بعد أن يجيعه ويعطشه ليلة ويوماً فيطرحه على ظهره في الرمضاء أي الرمل إذا اشتدت حرارته ولو وضعت عليه قطعة لحم لنضجت ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيأبى ذلك بل تجاوزوا في تعذيبه بأنواع وصنوف العذاب حتى اشتراه أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وكان حين اشتراه يعذب تحت الحجارة وهانت نفسه عليه في الله تعالى فلم يبالي بتعذيبهم وكانوا يعطونه

للولدان فيربطونه بجبل ويطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أحد أحد، فمزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان وهذا المزج وقع له عند موته عندما قالت امرأته وهو في سياق الموت: واكرباه فقال: واطرباه غداً ألقى الأحبة محمداً وحزبه فمزج مرارة الموت بحلاوة اللقاء وتحقق وعد الله بقوله: {وَإِن جُنَدْنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ} فلقد قتل أمية بن خلف بلالاً يوم بدر عندما أخذ عبد الرحمن بن عوف أمية أسيراً واستبقاه عنده لكي لا يقتل لصداقة بينهما في الجاهلية فرآه بلال فصاح: يا معشر أنصار رسول الله هذا أمية بن خلف رأس الكفر لا نجوت إن نجأ.. فلحقوه وتبادروه بالسيوف حتى وصل سيف بلال إلى قلبه فقده.

وذكر الناظم حفظه الله أيضاً بعضاً ممن عذبوا بقوله (وكعمار) ابن ياسر (الفتى) ووصفه بالفتوة لتحمله أنواع العذاب وقتل أبيه وأمه في العذاب أمامه وهو صابر وكان يعذب بالنار وكان صلى الله عليه وآله وسلم يمر به وهو يعذب فيمر يده على رأسه ويقول: يا نار كوني برداً وسلاماً على عمار كما كنت على إبراهيم وكشف عن ظهر عمار فوجد به أثر النار أبيض كالبرص ولعل ذلك قبل أن يدعو له عليه الصلاة والسلام أن تكون النار برداً وسلاماً عليه. وعن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها قالت: إن عمار بن ياسر وأباه وأخاه عبد الله وسمية أم عمار رضي الله عنهم كانوا يعذبون في الله فمر بهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة، فمات ياسر في العذاب وأعطيت سمية لأبي جهل يعذبها أعطائها له عمه أبو حذيفة بن

المغيرة حيث كانت مولاته فأخذها وعذبها عذاباً شديداً رجاء أن تفتن عن دينها فلم تجبه فطعنها طعنة في موضع عفتها فماتت رضي الله عنها وأرضاها. وكانت سابع سبعة في الإسلام ولما استشهدت على يد عدو الله كانت عجوزاً كبيرة وكان أبو جهل يجعل لعمار درعاً من حديد في اليوم الصائف وفيه نزل: {أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}. وورد أن عماراً قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: بلغ منا العذاب كلِّ مبلغ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: صبراً أبا اليقظان. بل ورد أنه كان يعذب حتى كان لا يدري ما يقول ثم فرَّج الله عنه وعاش سعيداً حميداً بعد أن أمد الله في عمره إلى خلافة الإمام علي فمات رضي الله عنه حميداً شهيداً تحت راية الإمام علي رضي الله عنه في صفين.

(وصهيب) كذلك عذب لأنه كان من المستضعفين وهو صهيب بن سنان بن مالك بن النمر بن قاسط، سبي وهو غلام فنشأ بالروم فابتاعته منهم قبيلة كلب فقدمت به مكة فاشترته عبد الله بن جدعان فأعتقه وأسلم قديماً وعذب مع من عذب ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدرًا والمشاهد كلها، وهو سابق الروم، وأمره عمر أن يصلي بالناس في زمن الشورى فقدموه فصلى على عمر بعد أن قضى نحبه وكان رضي الله عنه أحر شديد الحمرة ليس بالطويل ولا بالقصير كثير شعر الرأس يخضب بالحناء ولما هاجر اعترضته قريش فنزل عن راحلته وانتحل ما في كنانته من السهام ثم قال: يا معشر قريش لقد علمتم أني من أركم رجلاً وأيم الله لا تصلون إليَّ حتى أرمي بكل سهم معي في كنانتي ثم أضرب بسيفي ما بقي

في يدي منه شيء افعلوا ما شئتم وإن شئتم دللتكم على مالي وثيابي بمكة وخليتم سبيلي قالوا: نعم فلما قدم صهيب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة قال له: ربح البيع أبا يحيى ربح البيع أبا يحيى ونزلت: {وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ}.

(وأبو ذر) رضي الله عنه أيضاً ممن أودى في الله تعالى ووصفه الناظم بقوله (الهدى) لأنه كما قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أصدق الناس لهجة" وقال عنه: "يحيي أمة وحده ويموت أمة وحده ويبعث أمة وحده".

وأما قصة إسلامه وتعذبه فقد رواها ابن الجوزي في صفة الصفوة فقال: [أبو ذر جندب بن جنادة وفي اسمه خلاف كثير قد ذكرته في كتابي المسمى (بالتلقيح). وكان أبو ذر طوالاً آدم، وكان يتعبد قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأسلم بمكة قديماً وقال: كنت في الإسلام رابعاً. ورجع إلى بلاد قومه فأقام بها حتى مضت بدر وأحد والخندق، ثم قدم المدينة. قال خفاف بن إيماء: كان أبو ذر شجاعاً ينفرد وحده فيقطع الطريق ويُغير على الصرم - الجماعة ينزلون بإبلهم على ناحية من الماء - كأنه السبع، ثم إن الله تعالى قذف في قلبه الإسلام وسمع بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم بمكة فأتاه.

وعن عبد الله بن صامت قال: قال أبو ذر: لقد صليت يا ابن أخي قبل ألقى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بثلاث سنين. قال فقلت: لمن؟ قال: لله. قلت: فأين تتوجه؟ قال: حيث وجهني الله عز

وجل. قال: وأصلي عشاءً حتى إذا كان من آخر الليل أُلقيت كأني خفاء - أي كساء - حتى تعلوني الشمس.

قال أبو ذر: فانطلقنا حتى نزلت بحضرة مكة وانطلق أخي أنيس فراث - أي أبطأ - علي فقلت: ما حبسك؟ قال: لقيت رجلاً يزعم أن الله عز وجل أرسله على دينك. قال فقلت: ما يقول الناس فيه؟ قال: يقولون إنه شاعر وساحر وكاهن.

قال أنيس: قد سمعت قول الكهان فما يقول بقولهم وقد وضعتُ قوله على أقرء الشعراء فوالله ما يلتام، ووالله إنه لصادق وإنهم لكاذبون. قال: فقلت له: هل أنت كافيٌّ حتى أنطلق فأنظر؟ قال: نعم فكن من أهل مكة على حذر فإنهم قد شنفوا له وتجهموا له. فانطلقت حتى قدمت مكة فتضعفت رجلاً منهم فقلت له: أين هذا الرجل الذي يدعونه الصابئ؟ قال: فأشار إلي. قال الصابئ. قال: فمال أهل الوادي عليّ بكل مدرة وعظم حتى حررت مغشياً علي، فارتفعت حين ارتفعت كأني نُصب أحمر، فأتيت زمزم فشربت من مائها وغسلت عني الدم فدخلت بين الكعبة وأستارها فلبثت به يا بن أخي ثلاثين، من بين ليلة ويوم، مالي طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عُكن بطني وما وجدت في كبدي سخفة جوع - رفته وهزاله - .

قال: بينما أهل مكة في ليلة قمراء . أي مضيئة . إضحيان . أي مضيئة مقمرة . وضرب الله على أضمخة أهل مكة . أي أنامهم . وما يطوف بالبيت غير امرأتين فأنتا عليّ وهما تدعوان إسافاً ونائلة. فقلت

أنكحوا أحدهما الآخر قال: فما ثناهما ذلك. قال: فأتنا علي فقلت: هن مثل الخشبة غير أني لم أكن. فانطلقنا تولولان وتقولان: لو كان ها هنا أحد من أنفارنا. قال: فاستقبلهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر وهما هابطان من الجبل فقالا: مالكما؟ قالتا: الصابئ بين الكعبة وأستارها. قالا: فما قال لكما؟ قالتا: قال لنا كلمة تملأ الفم.

قال: فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو وصاحبه حتى استلم الحجر فطاف بالبيت ثم صلى ركعتين. قال: فأتيته فكنت أول من حيّاه بتحية الإسلام، فقال: وعليك السلام ورحمة الله ممن أنت؟ قال قلت من غفار. قال: فأهوى بيده فوضعها على جبهته. قال: فقلت في نفسي: كره أن انتميت إلى غفار. قال: فأردت أن آخذ بيده ففقدعني. أي كفني. صاحبه وكان أعلم به مني، قال: متى أنت ها هنا؟ قال: قلت: كنت ها هنا منذ ثلاثين من بين يوم وليلة. قال: فما كان يطعمك؟ قلت ما كان لي طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكن بطني وما وجدت على كبدي سخفة جوع. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنها مباركة إنها طعام طعم.

قال أبو بكر: ائذن لي يا رسول الله في طعامه الليلة قال ففعل فانطلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم وانطلقت معهما حتى فتح أبو بكر باباً فجعل يقبض لنا من زيب الطائف. قال: فكان ذلك أول طعام أكلته بها.

فلبثت ما لبثت ثم قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:
إني وجهت إلى أرض ذات نخل فلا أحسبها إلا يثرب فهل أنت مبلغ عني
قومك لعل الله عز وجل ينفعهم بك ويأجرك فيهم، قال فانطلقت حتى
أتيت أخي أنيساً. قال فقال لي: ما صنعت؟ قال: قلت: صنعت أي قد
أسلمت وصدقت. قال: فما بي رغبة عن دينك فإني قد أسلمت
وصدقت. ثم أتينا أمتنا فقالت: ما بي رغبة عن دينكما فإني قد أسلمت
وصدقت.

فتحملنا حتى أتينا قومنا غفاراً فأسلم بعضهم قبل أن يقدم رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة، وكان يؤمهم خفاف بن إيماء بن
رخصة الغفاري وكان سيدهم يومئذ. وقال بقيتهم: إذا قدم رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم أسلمنا. فقدم رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم المدينة فأسلم بقيتهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:
"غفار غفر الله لها وأسلم سالمها الله". (انفرد بإخراجه مسلم). وفي

الصحيحين من حديث ابن عباس أن أبا ذر لما دخل على رسول الله صلى
الله عليه وآله وسلم وأسلم قال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ارجع
إلى قومك حتى يأتيك أمري. فقال: والذي نفسي بيده لأصرخن بما بين
ظهرانهم فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا
الله وأن محمداً رسول الله. وثار القوم فضربوه حتى أضجعوه وأتى العباس
فأكب عليه فقال: ويلكم أستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجارتكم

إلى الشام؟ يعني عليهم، فأنقذه منهم. ثم عاد من الغد لمثلها وثاروا إليه فضربوه فأكب عليه العباس فأنقذه.

وعن أبي حرب بن أبي الأسود قال: سمعت عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق من أبي ذر" (رواه الإمام أحمد). وعن محمد بن واسع أن رجلاً من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موته فسألها عن عبادة أبي ذر قالت: كان نهاره أجمع في ناحية يتفكر] اهـ.

وكفار قريش بهذا قد (جردوا العزم) أي شمروا (على) أمر لا يرجعون عنه وهو (أن يخرسوا كل صوت في البلاد) أي مكة (وحداداً) أي دخل في دين التوحيد وأصبح مؤمناً بالله ورسوله وكثر تعذيبهم لكثير واشترى سيدنا أبو بكر كثيراً من العبيد الذين تحت أيدي كفار قريش يعذبون ثم أعتقهم لله تعالى بل طالت عداوتهم تلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و(صبر المختار) عليه الصلاة والسلام على أذاهم (صبراً مفعماً بالهدوء) أي كان محتسباً ما ناله منه كفار قريش لله تعالى صابراً على تبليغ دعوته لم يشنه ذلك عن تجريد العزم في نشر دين التوحيد والقيام على الشرك وأهله بالحجة والبرهان وبلين الجانب (لم يضراً أحداً) في دعوته أي يتهجم عليه باللسان أو باليد وإنما يبسط الحق وبيان الدين ونبذ الشرك و دافع عنه عمه أبو طالب فلم تمتد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يد بأذى غير أنهم يتعرضونه باللسان ويقولون عنه: كاهن أو مجنون أو ساحر، وعندما رأت قريش أنهم لن يصلوا إلى النبي عليه

الصلاة والسلام بسبب أبي طالب اجتمع أشرفهم ومشوا إلى أبي طالب
 وقالوا له: إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل
 آباءنا فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن
 عليه من خلافه فنكفيك، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردهم رداً جميلاً
 ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ما هو عليه، فشرى الأمر
 بينهم وبينه حتى تولدت إحن وضغائن ثم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى
 وأعدروا إليه في أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم واشتد قولهم في ذلك
 فعظم على أبي طالب فراق قومه ولم يطب نفساً بخذلانه النبي صلى الله
 عليه وآله وسلم ثم كلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فظن عليه
 الصلاة والسلام أنه قد بدا لعمه تركه والعجز عن نصرته فقال: "يا عم والله
 لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى
 يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته"، ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وآله
 وسلم باكياً فقال له أبو طالب: يا ابن أخي قل ما أحببت فوالله لا
 أسلمك لشيء أبداً. ثم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى بعمارة بن الوليد بن
 المغيرة وكان من أهدم شبانهم وأجملهم وعرضوا عليه أن يتخذه ولداً بدلاً عن
 النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال لهم: بئسما تسوموني به أتعطوني
 ابنكم أغذوه لكم وأعطيتكم ابني تقتلونوه هذا والله ما لا يكون أبداً،
 فتنابذوا وتذامروا للحرب ووثبت كل قبيلة على من أسلم يعذبونهم كما مر
 ثم أخذ أبو طالب يحشد بطون قريش خصوصاً بني عبد مناف لكونه
 أخص بهم وهم أربعة بطون: بنو هاشم وبنو المطلب وبنو عبد شمس وبنو

نوفل فلم يجبه ويقم معه إلا بنو هاشم وبنو المطلب وخذله البطنان الآحران
وانسلخ معهم أبو لهب فلذلك يقول أبو طالب:

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا عقوبة شرّ عاجلاً غير آجل
بميزان قسط لا يخيس شعيرة له شاهد من نفسه غير عائل
ثم إن قريشاً اجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة وتأمروا بينهم فيما يرمون
به النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حضور الموسم لتكون كلمتهم فيه
واحدة فعرضوا على الوليد الشعر والكهانة والجنون والسحر كل ذلك لا
يقبله منهم وقال: والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام
الإنس ولا هو من كلام الجن وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه
لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى - وكان قد سمع من النبي صلى
الله عليه وآله وسلم أول (حمّ غافر). وكاد الوليد أن يسلم لولا ما سبق
عليه من تحتم الشقاء - ثم قالوا: وكيف نقول؟ فكفر في نفسه ثم قال: إن
أقرب القول أن تقولوا: ساحر يفرق بين الرجل وأهله وزوجته ومواليه فتفرقوا
على ذلك وجعلوا يلقونه على من يقدم عليهم من العرب ونزل في الوليد
قوله تعالى: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً وَبَيَّنَّ شُهُوداً
وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً سَأُرْهِقُهُ
صَعُوداً إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ
وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ
الْبَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ لَوَاحِةٌ لِلْبَشَرِ
عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} وشاع في البلاد تشاجر قريش وبلغ الأوس والخزرج

بالمدينة وقال في ذلك أبو قيس بن الأسلت قصيدته وبعث بها إلى قريش يذكرهم نعم الله عليهم ويحذرهم شؤم الحرب وعواقبها، وقد ألقى أيضاً أبو طالب قصيدته المشهورة يتودد فيها أشرف قومه وهو على ذلك يخبرهم أنه غير مسلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى يهلك دونه.

ومع ذلك فقد نالوا منه عليه الصلاة والسلام بعض الشيء من الأذى الذي صبر عليه ليضرب أروع الأمثال في صبر الدعاة إلى الله تعالى على ما ينالهم من أذى في سبيل دعوتهم فقد روى البخاري عن عروة بن الزبير قال: سألت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت: أخبرني بأشد شيء صنعته المشركون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: بينما النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه أي عنق رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله).

(و) مع ما تقدم من تماديهم في عداوته والنيل منه إلا أنه (دعا) أي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (للقوم) أي قومه (كيما يهتدوا) أي أولئك القوم الذين تمادوا في عداوته لما نزل عليه الملك وخيره بين أن يطبق عليهم الجبلين (أو سيأتي الله) منهم (جبالاً) من أولادهم

(يهتدى) إلى التوحيد ودين الحق وكان رجاؤه ذلك فيهم وفيمن بعدهم فحقق الله رجاءه ففي البخاري عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم حدثته أنها قالت: يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: "لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجيني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلنتني فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم قال: فناداني ملك الجبال وسلّم علي فقال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك لتأمرني بما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً".

ومن هنا تظهر مع كمال صبره وحلمه وشفقته ورأفته ورحمته وحرصه على هداية أمته عليه الصلاة والسلام معجزة له، فقد وقع الأمر كما رجا وأسلم كثير ممن خرج من أصلابهم.

ومع ما عاناه منهم كما تقدم لم يدع عليهم بل دعا لهم بالهداية ورجا لهم التوحيد (غير أفراد) تبادوا في أذيته وتفننوا وكانوا سبباً للصد عن هداية غيرهم عندها (دعا الله بأخذهم) وسبب ذلك (لما تبادوا حسداً) له مع معرفتهم بأنه صادق في كل ما قاله. (فاستجاب الله) تعالى (من)

طه) صلى الله عليه وآله وسلم (الدعا) أي ما دعى الله به وحقق دعوته
 وكان ذلك (يوم بدر) حيث (سامهم) الله (كأس الردى) بأن قتلوا
 وطرحوا في القليب. روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: بينما
 رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائم يصلي عند باب الكعبة وجمع
 قريش في مجالسهم إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرأئي أيكم
 يقوم إلى جزور آل فلان فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها فيجيء به ثم يمهلها
 حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟! فانبعث أشقاها. وفي بعض روايات
 مسلم أنه عقبة بن أبي معيط. فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وآله
 وسلم وضعه بين كتفيه فثبت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ساجداً
 فضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك فانطلق منطلق إلى
 فاطمة رضي الله عنها. وهي جويرية. فأقبلت تسعى، وثبت رسول الله
 صلى الله عليه وآله وسلم ساجداً حتى ألقته عنه وأقبلت عليهم تسبهم
 فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة قال: "اللهم عليك
 بقريش" ثلاثاً ثم سمى: "اللهم عليك بعمر بن هشام وعتبة بن ربيعة
 وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأميمة بن خلف وعقبة بن أبي معيط
 وعمارة بن الوليد". قال عبد الله والله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر ثم سحبا
 إلى القليب قليب بدر ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "واتبع
 أهل القليب لعنة".

فصل في (أدوار النصر في الدعوة)

لقد مر معنا أنه عليه الصلاة والسلام لما أمره الله تعالى بالدعوة إلى الدين تجرد لذلك وثابر في الأمر وتبليغ رسالة ربه سبحانه وتعالى ولقي من قومه ما لاقى حتى قال عليه الصلاة والسلام: "ما أودى أحد ما أوديت". لأنه صلى الله عليه وآله وسلم أصيب من قومه بأكبر البلاء وآذوه أشد الإيذاء ورموه بالسحر والشعر والكهانة والجنون، وبرأه الله من جميع ذلك بالبراهين القاطعة في كتابه العزيز، ومن قومه من كان يحثو على رأسه صلى الله عليه وآله وسلم التراب ويجعل الدم على بابه وسلى الجزور على ظهره كما تقدم وكان أعظم الناس إيذاء له خمسة وفيهم نزل قول الله تعالى: {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ} . وفيهم قال صاحب الحمزية:

وَكَفَّاهُ الْمُسْتَهْزِئِينَ وَكَمْ سَاءَ نَبِيًّا مِنْ قَوْمِهِ اسْتِهْزَاءٌ
وَرَمَاهُمْ بِدَعْوَةٍ مِنْ فَنَاءِ الْبَيْتِ فِيهَا لِلظَّالِمِينَ فَنَاءٌ
خَمْسَةٌ كُلُّهُمْ أُصِيبُوا بِدَاءِ وَالرَّذَى مِنْ جُنُودِهِ الْأَدْوَاءِ
فَدَهَى الْأَسْوَدَ بَنَ مُطَلَّبٍ أَيْ عَمَى عَمَى مَيِّتٍ بِهِ الْأَحْيَاءِ
وَدَهَى الْأَسْوَدَ بَنَ عَبْدَ يَغُوثٍ أَنْ سَقَاهُ كَأْسَ الرَّذَى اسْتِسْقَاءُ
وَأَصَابَ الْوَلِيدَ خَدَشَةً سَهْمٍ قَصَّرَتْ عَنْهُ الْحِيَةُ الرِّقْطَاءُ
وَقَضَّتْ شَوْكَةً عَلَى مَهْجَةِ الْعَا صِي فَلله النَّقْعَةُ الشُّوكَاءُ
وَعَلَى الْحَارِثِ الْقُيُوحِ وَقَدْ سَاءَ لَهَا رَأْسُهُ وَسَاءَ الْوِعَاءُ
خَمْسَةٌ طَهَّرَتْ بِقَطْعِهِمُ الْأَرْضُ ضُفْكَفُ الْأَذَى بِهِمْ شَلَاءٌ

قال سيدي أحمد دحلان في بيان ما أصاب أولئك النفر: [أتى جبريل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يطوف بالبيت وقال له: أمرت أن أكفيكمهم، فلما مر الوليد بن المغيرة قال جبريل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: كيف تجد هذا؟ فقال: "بئس عبد الله" فأوماً إلى ساق الوليد وقال: قد كفيته فمر بنبال يريش نبلة ويصلحها فتعلق بثوبه سهم فعرضت له شظية من نبل فلم يعطف لأخذه تكبراً وتعاضماً فأصاب عرقاً في عقبه فمرض فمات كافراً ثم مر العاص بن وائل السهمي فقال: كيف تجد هذا يا محمد؟ فقال: "عبد سوء" فأوماً إلى أخمصه وقال: كفيته فخرج يتنزه فنزل شعباً فدخلت فيه شوكة فانتفخت رجله حتى صارت كالرحى - وفي رواية كعنق البعير - فمات ثم مر الحرث بن قيس السهمي فقال: كيف تجد هذا يا محمد؟ قال: "عبد سوء" فأوماً إلى بطنه وقال: قد كفيته، وقيل: أشار إلى أنفه فامتخط قيحاً فمات، وقيل: أكل حوتاً مملوحاً فما زال يشرب عليه حتى انقذ بطنه ثم مر الأسود بن عبد يغوث فقال: كيف تجد هذا يا محمد؟ قال: "عبد سوء" فأوماً إلى رأسه وقال كفيته وقيل أشار إليه وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات على كفره، وقيل أشار جبريل إلى بطنه بأصبعه فاستسقى بطنه فمات، وقيل: خرج في رأسه قروح فمات قال الزرقاني ويمكن أنها بسبب نطحه الشجرة، وقيل: خرج من عند أهله فأصابته السموم حتى صار حبشياً فأتى أهله فلم يعرفوه فأغلقوا دونه الباب فرجع وصار يطوف بشعاب مكة حتى مات عطشاً، ويمكن الجمع باحتمال

وقوع جميع ذلك له ثم مر الأسود بن مطلب فقال: كيف تجد هذا يا محمد؟ قال: "عبد سوء"، فأوماً إلى عينيه وقال: قد كفيته قال ابن عباس رضي الله عنهما: رماه بورقة خضراء فعمى بصره كما عميت بصيرته فلم يميز بين الحسن والقبيح ووجعت عينه فضرب برأسه الجدار حتى هلك وهو يقول: قتلني رب محمد، وفي رواية إنه خرج ليستقبل ولده وقد قدم من الشام فلما كان ببعض الطريق جلس في ظل شجرة فجعل جبريل يضرب وجهه وعينيه بورقة من ورقها حتى عمي فجعل يستغيث بغلامه فقال له غلامه: لا أحد يصنع بك شيئاً، وقيل: ضربه بغصن فيه شوك فسالت حدقتاه وصار يقول: من هذا طعن بالشوك في عيني؟ فيقال له: ما نرى شيئاً، وقيل: أتى شجرة فجعل ينطحها برأسه حتى خرجت عيناه وكان يقول: دعا عليّ محمد بالعمى فاستجيب له. وزاد بعضهم: وهلك أبو لهب بالعدسة - يعني الجديري - وهي مينة شنيعة، وعقبة بن أبي معيط قتل صبراً بعد انصرافه صلى الله عليه وآله وسلم من بدر] اهـ.

ومع ما يلاقيه من أذى فقد كان لنصرة من نصره عليه الصلاة والسلام على تحمل أعباء الرسالة وتبليغها أثر كبير في نفسه، وكان من أعظم أنصار الدعوة والوقوف بجانب النبي صلى الله عليه وآله وسلم عمه أبو طالب والسيدة العظيمة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأرضاهما ومع ذلك (فقد المختار) عليه الصلاة والسلام (في دعوتِه) أي في أثناء دعوتِه ومع احتياجه لمن ينصره ويقوم معه ويخفف ما يلاقيه من أذى وتعب وصدود في سبيل الدعوة (خير أنصارٍ) له في هذا المجال وقد

(أنا لوه يداً) تخفف عنه المصاب فيما يلاقيه وترد عنه بأس من تحدّثه نفسه أن ينال منه (كأبي طالب من) أي الذي (عاش مدىً) أي مدة عمره (حامياً) لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (من كل مكر) يحتمل أن يحل به من قومه (واعتدا) فقد كان كفار قريش يحسبون له ألف حساب، وهو - كما قد تقدم - قد دافع عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجرّد نفسه وعياله وماله وقومه في حمايته ونصرته، ورد من تسول له نفسه النيل منه حتى أنه لما اجتمعت قريش على قتل النبي عليه الصلاة والسلام دخل به إلى الشعب مع بني هاشم والمطلب مدافعاً عنه، فاجتمعت قريش وتعاهدوا على قطيعة بني هاشم وبني المطلب ومقاطعتهم في البيع والشراء والنكاح وغير ذلك فكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة توكيداً لأمرها، ويحكى أن كاتبها شلت يده. وذكرنا أنه لما تم ذلك انحاز البطنان المذكوران مع أبي طالب ودخلوا الشعب وبقوا هناك محصورين مدة وخرج عنهم أبو لهب، قال صاحب بحجة المحافل وبغية الأمثال: [ولما رأى أبو طالب ما أجمعوا عليه من القطع والقطيعة قال في ذلك "1":

ألا أبلغا عني على ذات بيننا لؤياً وخصاً من لؤي بني كعب
 ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً نبياً كموسى خط في أول الكتب
 وأن عليه في العباد محبة ولا خير ممن خصه الله بالحب
 وأن الذي ألصقتم من كتابكم لكم كائن نحساً كراغية السّقب

"1" راجعت الأبيات التي أثبتتها صاحب البغية مع ما أثبتته ابن هشام ووجدت فيها اختلافاً فأثبت الأبيات التي ذكرها ابن هشام.

أفيقوا أفيقوا قبل أن يُحفر الثرا ويصبح من لم يجن ذنباً كذي الذنب
ولا تتبعوا أمر الوشاة وتقطعوا أواصرنا بعد المودة والقرب
وتستجلبوا حرياً عواناً وربما أمرٌ على من ذاقه جلب الحرب
فلسنا ورب البيت نسلم أحمدا لعزّاء من عض الزمان ولا كرب
ولما تَبِنُ منا ومنكم سِوالف وأيد أُتِرَّتْ بالقُساسِيَّةِ الشهب
بمعتركِ ضنك ترى كسر القنا به والنسور الضخم يعكفن كالشرب
كأنْ جُحال الخيل في حجراته ومعمعة الأبطال معركة الحرب
أليس أبونا هاشم شد أزره وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
ولسنا نمل الحرب حتى تملنا ولا نشتكي ما قد ينوب من النكب
ولكننا أهل الحفائظ والنهي إذا طار أرواح الحماة من الرُعب
وقال في أخرى:

أطاعوا ابن المغيرة وابن حرب كلا الرجلين متّهم مليم
وقالوا خطة حمقاً وجوراً وبعض القول أبلج مستقيم
لتخرج هاشم فيصير منها بلاقع بطن مكة والحطيم
ولما أراد الله سبحانه وتعالى حلّ ما عقده ونقض ما أبرموه وذلك
لقريب من ثلاث سنين من حين كتبت الصحيفة اجتمع خمس نفر من
سادات قريش عند حطيم الحجون بأعلى مكة ليلاً وتعاهدوا وتحاشدوا على
نقض الصحيفة وهتكها وهم: هشام بن عمرو العامري وهو الذي تولى كبر
ذلك وأبلى فيه وسعى إلى كل منهم، وزهير بن أمية المخزومي وهو تلوه في
العنية وأمه عاتكة بنت عبد المطلب، والمطعم بن عدي النوفلي، وأبو

البخترى بن هشام، وزمعة بن الأسود الأسدي، ولما أصبحوا من ليلتهم جاء زهير فطاف بالبيت ثم قال: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة، فقال له أبو جهل: كذبت والله. فقال له زمعة بن الأسود: وأنت والله أكذب ما رضينا كتابتها حيث كتبت. وقال الآخرون مثله فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل تُشورور فيه بغير هذا المكان. ثم قام المطعم إلى الصحيفة فشققها فوجد الأرضة قد أكلت جميعها إلا ما كان فيه اسم الله، وكان قبل ذلك قد أخبر جبريل النبي صلى الله عليه وآله وسلم بفعل الأرضة بها وأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عمه أبا طالب وأخبرهم أبو طالب ووجوده كما ذكر لهم فلم يؤثر ذلك فيهم لقسوتهم] اهـ. وفي التاسعة من المبعث خرج صلى الله عليه وآله وسلم هو وأهله من حصار الشعب بعد نقض الصحيفة كما تقدم.

ولثمانية أشهر وأحد عشر يوماً من العاشرة مات عمه أبو طالب فاشتد حزنه صلى الله عليه وآله وسلم ولما مات أبو طالب اشتدت قريش على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونالت منه من الأذى ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب فدخل صلى الله عليه وآله وسلم يوماً بيته والتراب على رأسه فقامت إليه بعض بناته وجعلت تزيله عن رأسه وتبكي ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لها: "لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك" وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "ما نالت قريش مني

شيئاً أكرهه - أي أشد الكراهة - حتى مات أبو طالب". ولما رأى قريشاً تهجم عليه قال: "يا عم ما أسرع ما وجدت فقدك".

ومن كان يخفف عنه ويعاونه وينصره زوجته السيدة خديجة وأشار الناظم إلى ذلك بقوله: (وكذا زوجة طه) أي السيدة خديجة (أنفقت كلَّ شيءٍ) من مالها حتى (صارَ للدين فداً) فمالها كله أنفدته على النبي ومن معه في الشعب وهو محاصر فيه، وكانت قبل ذلك تخفف آلامه كما سبق، فكان لا يسمع شيئاً يكرهه من رد وتكذيب إلا فرّج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه وتصدقته وتهون عليه أمر الناس. ولما كان عليه السلام في الشعب (مرضتْ عامَ الحصارِ) أي آخر عام في الحصار في الشعب (وغدت) أي أصبحت (دونَ مال) أي لا مال لها إذ (بددته بدداً) بإنفاقها لمالها كله على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم بعد موت عمه بثلاثة أيام وقيل: بخمسة أيام توفيت خديجة رضي الله عنها، ودخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على خديجة وهي في الموت فقال: "تكرهين ما أرى منك وقد جعل الله في الكربة خيراً." ودفنت في الحجون فنزل صلى الله عليه وآله وسلم في حفرتها حين دفنها، وأدخلها القبر بيده، وحزن صلى الله عليه وآله وسلم عليها وعلى عمه أبي طالب حزناً شديداً حتى (أطلق المختار) تسمية وهي (عامَ الحزنِ في ذلك العامِ) وجعلها (كذكرى تخلدا) وقد تقدم ما قاله في حزنه على عمه، وقال في حزنه على خديجة عندما قالت له خولة بنت حكيم رضي الله عنها: يا رسول

الله كأني أراك قد دخلتكم خلة لفقد خديجة رضي الله عنها، فقال: "أجل، أم العيال وربة البيت"، وقال عبيد الله بن عمير: وجد عليها حتى خشى عليه.

و(بعد هذا) الحادث الذي حدث من موت عمه وزوجته صلى الله عليه وآله وسلم وخاصة موت عمه أبي طالب (شدد الكفار من قبضة الشر) وتفننوا في الأذية (على من وحدا) ومن بينهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما قد تقدم البيان فيه حتى أن أبا لهب لما بلغه ما وصلت قريش من أذيته وما قاله في وجده على عمه أبي طالب قام بنصرته أياماً، وقال: يا محمد امض لما أردت وما كنت صانعاً إذ كان أبو طالب حياً واللات والعزى لا يصلون إليك حتى أموت، فلم يزل أبو جهل لعنه الله وعقبة بن أبي معيط لعنه الله وغيرهما من أشراف قريش يحتالون على أبي لهب حتى صدوه عن ذلك، وتأخر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وترك نصرته ورجع إلى ما كان عليه من معاداته، فلما أجمعوا على معاداته ومقاطعته عليه الصلاة والسلام (و) هموا بإخراجه والفتك به (مضى طه) عليه الصلاة والسلام أي خرج (إلى بعض القرى) وهو مكروب مشوش الخاطر مما لقي من قريش ومن قرابته، فعن علي رضي الله عنه قال: لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد موت أبي طالب أخذته قريش تتجاذبه وهم يقولون له صلى الله عليه وآله وسلم: أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً قال: فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر رضي الله

عنه فصار يضرب هذا ويدفع هذا وهو يقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله .

(و) عند ذلك (أتى الطائف) في شوال سنة عشر من النبوة وكان معه مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه (يرجو سندا) أي يلتمس من ثقيف الإسلام، رجاء أن يسلموا ويناصروه على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فلما وصل الطائف ذهب إلى سادات ثقيف وأشرفهم وكانوا إخوة ثلاثة: أحدهم عبد ياليل واسمه كنانة ولم يعرف له إسلام، والثاني مسعود وهو عبد كلال بضم الكاف وتخفيف اللام ولم يعرف له إسلام أيضاً، والثالث حبيب قال الذهبي: وفي صحبته نظر. وهؤلاء الثلاثة أبناء عمرو بن عمير بن عوف الثقفي، فجلس إليهم صلى الله عليه وآله وسلم وكلمهم فيما جاء به من نصرته إلى الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه فقال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة - أي يشقها ويقطعها - إن كان الله أرسلك وقال الآخر: ما وجد الله أحداً يرسله غيرك، وقال له الثالث: والله لا أكلمك أبداً لئن كنت رسولاً من عند الله كما تقول لأنت أعظم خطراً - أي قدراً - من أن أرد عليك الكلام وإن كنت تكذب ما ينبغي لي أن أكلمك، فقام صلى الله عليه وآله وسلم من عندهم وهو آيس من خيرهم، وقال لهم: اكنتموا عليّ، وكره صلى الله عليه وآله وسلم أن يبلغ قومه ذلك فيشتد أمرهم عليه، ثم قال له هؤلاء الثلاثة: اخرج من بلدنا والحق بما شئت من الأرض وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وقعدوا له صفيين على طريقه

فلما مر صلى الله عليه وآله وسلم بين الصفيين جعل لا يرفع رجله ولا يضعهما إلا (رجموه) بالحجارة (ثم) لما تكاثر الرمي (أدموه) أي أدموا رجله حتى أنه عليه الصلاة والسلام اختضبت نعلاه بالدماء وكان عليه الصلاة والسلام إذا وجد ألم الحجارة قعد إلى الأرض فيأخذون بعضديه فيقيمونه فإذا مشى رجموه وهم يضحكون كل ذلك وزيد بن حارثة رضي الله عنه يقيه بنفسه حتى لقد شج برأسه شجاجاً (وما فتنوا) يرموه عليه الصلاة والسلام إلى (أن أخرجوه مجهداً) من البلد (فأتى المختار) عليه الصلاة والسلام (مكدوداً) أي متعباً من المشي الطويل وألم الحجارة ودمه يسيل من رجله (إلى حائط) من حوائطهم أي بستان من بساتينهم وكان لعتبة وشيبة ابني ربيعة فلما دخل الحائط رجعوا عنه وهو (يشكو) ما أصابه (الإله الصمدا) سبحانه وتعالى، وقد تقدم أنه نزل عليه جبريل ومعه ملك الجبال وقال له إن أردت أن أطبق عليهم الأخشبين لفعلت فقال: "لا بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده وحده لا شريك له". ولما رأى عتبة وشيبة ابني ربيعة ما لقي عليه الصلاة والسلام تحركت له رحمهما لأنهما ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، فبعثا له مع عداس النصراني غلامهما قطف عنب، ووضع عداس في طبق بأمرهما، وقال له اذهب إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه ف(جاء عداس) بما أمره به إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلما قدمه عداس للنبي عليه الصلاة والسلام وضع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يده في القطف ليأكل وقال:

بسم الله الرحمن الرحيم ثم أكل فنظر عداس إلى وجهه عليه الصلاة والسلام ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلد فقال له عليه الصلاة والسلام: "من أي البلاد أنت وما دينك" قال: نصراني من نينوى - وهو بلد قديم مقابل الموصل - فقال له عليه الصلاة والسلام: "من قرية الرجل الصالح يونس بن متى" فقال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى والله لقد خرجت من نينوى وما فيها عشرة يعرفون ابن متى فمن أين عرفته وأنت أمي في أمة أمية؟ قال: ذاك أخي وهو نبي مثلي، فأكب عداس على يديه ورأسه ورجليه يقبلها (وأبدي رغبة في اتباع المصطفى) عليه الصلاة والسلام (ثم اهتدى) أي أسلم ونظر إليه أبناء ربيعة وقال أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءها عداس قال له: ويلك مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟! قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا فقد أعلمني بأمر لا يعلمه إلا نبي، قال له: ويحك يا عداس لا يصرفك عن دينك فإنه خير من دينه.

وأشار الناظم حفظه الله بقوله: (يشكو الإله الصمدا) إلى دعائه صلى الله عليه وآله وسلم المشهور بدعاء الطائف وهو: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت أرحم الراحمين وأنت رب المستضعفين إلى من تكلني إلى عدو بعيد يتجهمني أم إلى صديق قريب ملكته أمري إن لم تكن غضبان علي فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه

أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك أو يحلّ عليّ سخطك ولك العتي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك".

وعند قفوله من الطائف نزل مكاناً يقال له نخلة وهو موضع على ليلة من مكة (و) لما كان (ببطن الواد) من ذلك المكان (جاءت عصابة من) جن (نصييين) صرفهم الله إليه وهي مدينة بين الشام والعراق (وعادوا سعدا) بعد إسلامهم لما (سمعوا القرآن يتلى) غضباً طرياً من فم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد (أنصتوا) لسماعه عندما قام في جوف الليل يصلي (واستجابوا) أي أولئك الجن (للحبيب أحمددا) لما دعاهم للإسلام فأسلموا وولوا إلى قومهم منذرين مبلغين.

وأقام صلى الله عليه وآله وسلم بنخلة أياماً، ثم أراد الدخول إلى مكة فقال له زيد بن حارثة رضي الله عنه : كيف تدخل عليهم وهم قد أخرجوك! فقال: "يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله مظهر دينه وناصر نبيه"، ثم انتهى إلى حراء فوجد عبد الله بن الأريقط فبعثه إلى الأخنس بن شريق الثقفي ليحيره فاعتذر، ثم بعثه صلى الله عليه وآله وسلم لسهيل بن عمرو العامري لأن جده عامر بن لؤي أخو كعب ابن لؤي جد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاعتذر، ثم بعثه إلى المطعم ابن عدي بن نوفل بن عبد مناف يقول له: إني داخل مكة في جوارك فأجابه إلى ذلك وبات عنده صلى الله عليه وآله وسلم - أي عند المطعم - تلك الليلة فلما أصبح خرج المطعم ولبس سلاحه هو وبنوه وكانوا ستة أو سبعة وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: طف، ووقف أربعة منهم عند أركان

البيت واحتبي الباقيون بمحامل سيوفهم في المطاف مدة طوافه صلى الله عليه وآله وسلم وكذا أبوهم المطعم، فأقبل أبو سفيان على المطعم وقال له: أمجير أم تابع؟ فقال: بل مجير فقال: إذن لا تخفر-أي لا تزال- خفارتك-أي جوارك- قد أجرنا من أجرنا من أجرنا فجلس معه حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طوافه ثم انصرف إلى منزله، وقد نادى المطعم: يا معشر قريش إني أجرنا محمداً فلا يؤذه أحد منكم.

فصل في قصة (الإسراء والمعراج)

وبعدما تقدم من ذكر رجوعه من الطائف واشتداد أذى قريش عليه صلى الله عليه وآله وسلم وبعدما (شدد الكفار) أيضاً (من قبضتهم) في التعذيب (وأساموا المؤمنين) أي أذاقوهم (الشددا) أي كل شدة بعدابهم ذلك، اجتهد عليه الصلاة والسلام- وذلك في السنة الحادية عشرة- في عرض نفسه على القبائل في مجامعهم في المواسم منى وعرفات ومجنة وذو الحجاز.

يقول صاحب بحجة المحافل وبغية الأمثال: [فكان من خبير ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق أنه لما رجع صلى الله عليه وآله وسلم من الطائف وجد قومه أشد ما كانوا عليه فكان ممن عرض عليه كندة فلم تجبه، ثم بنو عبد الله بطن من كلب وكان مما قال لهم: قد أحسن الله اسم أبيكم فلم يقبلوا منه، ثم بنو حنيفة فردوا أقبح رد، وكان عمه أبو لهب يقفو أثره فكلما أتى قوماً ودعاهم كذبه وحذرهم منه. وممن دعا أيضاً بنو عامر بن صعصعة فشارطوه على أن يكون لهم الأمر من بعده، فقال: الأمر لله يضعه حيث يشاء. وذكر محمد بن الحسن الكلاعي في سيرته قبائل كثيرة. فممن ذكر زيادة على ما نقل ابن هشام بنو كنانة وحين لم يجيبوا انصرف عنهم يتلو {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}، ثم بنو فزارة فلم يجيبوا وانصرف عنهم يتلو {إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى}، ثم بنو تميم وحين أبوا انصرف عنهم يتلو {قُلْ يَفْعَلْ يَفْعَلُوا عَلَىٰ مَكَائِكُمْ} الآية، ثم بنو أسيد فرد عليه رئيسهم طليحة الأسدي رداً قبيحاً وانصرف عنهم يتلو {وَإِنْ

كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ} الآية، ثم أتى بكر ابن وائل ومعه علي وأبو بكر فكان لأبي بكر مع دغفل بن حنظلة النسابة أخبار طريفة في الأنساب، ثم وقف على بني شيان فتلا عليهم {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ} الآية، ثم استزادوه فتلا {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ} إلى آخر الثلاث الآيات وكان له ولهم مراجعة حسنة طريفة، ثم وعدوه أن يمنعوه من جميع الجوانب إلا ما يلي أنهار كسرى، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: "إنه لا يقوم بأمر الله إلا من منعه من جميع جوانبه، وما أسأتم في الرد ولا تجهتم في القول، أفأريتم إن لم يأت عليكم إلا يسير حتى تستخدموا رجال القوم وتقسموا أموالهم أعطون عهداً لتعبدنَّه ولا تشركنَّ به شيئاً؟ فقال النعمان بن شريك وبدرهم إلى القول: نعم علينا بذلك عهد الله لنعبدنه ولا نشركن به شيئاً، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "اللهم انصرهم". فقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أتينا قوماً ذوي حجى يحسنون الجواب، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "إن لأهل الجاهلية أحلاماً ومقدرة على الكلام يتحاجزون بها ويدفع بها بعضهم عن بعض"، وانصرف عنهم وهو يقول: {فَأَيُّمَا يَسِّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}. وفي هذه السنة بدء إسلام الأنصار وقد قدمنا عند ذكر وقعة بُعثت سبب مقدمات إسلامهم وخبر سويد بن الصامت وإياس بن معاذ. وحين أراد الله سبحانه إعزاز نبيه وسياسة خير الدنيا والآخرة إلى الأنصار لقي نفر الستة الخزرجيين عند العقبة فعرض عليهم ما عرض على غيرهم فقالوا فيما بينهم: والله إنه للنبي الذي تواعدنا به

اليهود فلا تسبقنا إليه، ثم صدقوه وآمنوا بما جاء به وأخبروه أنهم خلفوا قومهم وبينهم العداوة والبغضاء وقالوا: إن جمعنا الله بك فلا رجل أعز منك، وهم فيما ذكر ابن إسحاق وغيره: أبو أمامة أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث وهو ابن عفراء، ورافع بن مالك بن عجلان، وقطبة بن عامر، وعقبة بن عامر، وجابر بن عبد الله بن رثاب. ولما قدموا المدينة وأخبروا قومهم بذلك فشا فيهم الإسلام فلم يبق دار من دورهم إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [اه].

(و) بعد هذا العرض على القبائل وردهم عليه بعدم القبول وبلوغ الشدائد من أذى الكفار له عليه الصلاة والسلام ولأتباعه، عندها (أراد الله للمختار) عليه الصلاة والسلام (أن يشهد العزة) بعد الذل الذي تعرض له أتباعه وانكسار نفسه بما لاقاه من قومه، وكانت هذه العزة التي أراه إياها (في أعلى مدى) حيث تجلت في حادثة الإسراء والمعراج لكي يرى مكانه عند ربه وتفضيله له على سائر الخلق على الإطلاق، حيث كان الخروج به بعد الإسراء إلى سدرة المنتهى ثم إلى قاب قوسين أو أدنى وما رأى من آيات ربه الكبرى والمناجاة والرؤيا لربه بأمر عينه وإمامة الأنبياء، كل ذلك مما أكرمه الله تعالى به وأعلا مكانه. وفي ذلك يقول البوصيري في همزيته :

وترقى به إلى قاب قوسي ن وتلك السيادة القعساء

(ف) لما أراد الله إظهار مزيته على سائر البرية (أتى جبريل) إليه عليه الصلاة والسلام بأمر الله تعالى بعد أن انفرج سقف البيت وكان في بيت أم هانئ وكان بيتهما عند شعب أبي طالب (يدعوه إلى رحلة الإسراء) فخرج به إلى المسجد وكان به أثر نعاس إذ كانت الرحلة (ليلاً مصعداً) وقوله مصعداً أشار إلى أنه بعد الإسراء كان المعراج فأخبره بالإسراء والمعراج. والأصل في الإسراء قوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا}. والمعراج في قوله تعالى: {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} وقوله: {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى}. وكان ذلك ليلة الاثنين أو الجمعة أو السبت من رمضان أو شوال أو أول رجب وحزم به الإمام النووي وهو المشهور.

وكان في السنة الثانية عشرة أي قبل الهجرة بسنة وقيل غير ذلك. وبعد وصول جبريل عليه السلام بالمصطفى إلى المسجد حدث له أيضاً شق الصدر وقد تقدم الكلام عنه، ثم خرج به إلى باب المسجد وأوتي له بالبراق، والبراق كما قال عليه الصلاة والسلام: "هو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه". وسمي بذلك من البرق لسرعة سيره ولما أتى جبريل بالبراق أتى به مسرجاً ملحماً فاستصعب عليه وقال ابن بطال: إنه استصعب عليه لبعده بركوب الأنبياء قبله.

وقال ابن دحية وابن المنير: إنما استصعب تيهاً وزهواً بركوب النبي صلى الله عليه وآله وسلم¹. (و) من أجل ذلك (البراق ارفضاً) عرقاً من الخجل عندما قابله جبريل بقوله: أبحمد تستصعب! وإلى ذلك أشار الناظم حفظه الله حيث قال (لكن رده جبريل قال اسكن تأدب للهدى) فسكن البراق وعرق خجلاً كما تقدم فإنه (ليس في الكونين أعلى رتبة) منه عليه الصلاة والسلام (يمتطي الظهر سواه مقتدى) وهو إشارة لقول جبريل عليه السلام للبراق: اسكن فوالله ما ركبك عبدٌ أكرم على الله من محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفيه أن البراق قد ركبه قبله صلى الله عليه وآله وسلم وأنبياء ورسل.

وبعد ركوبه على البراق بدأت رحلة الإسراء وكان جبريل رفيقه في تلك الرحلة وصح أنهما مرّاً بيثرب فأمره أن ينزل ويصلي و بمدين فأمره بذلك وزار قبر نبي الله موسى عليه السلام ووجده قائماً يصلي في قبره وبيت لحم الذي ولد فيه عيسى وأمره أن يصلي فيه ركعتين أيضاً، وأراه عجائب أخرى حتى أتيا بيت المقدس فربط النبي عليه الصلاة والسلام البراق بالحلقة التي تربط بها الأنبياء.

(و) بعد ذلك (لبيت المقدس الأقصى انتهى) أي دخل (خير خلق الله) عليه الصلاة والسلام و(زار المسجدا) وصلّى فيه ركعتين وفي

¹ انظر حاشية شرح الهمزية ج 1- 412.

المسجد (لَقِيَ الرَّسَلَ الْكِرَامَ) عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَرْوَاحِهِمْ
وَأَجْسَادِهِمْ.

(وَبِهِمْ صَلَّى) عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (إِمَاماً ثُمَّ قَامَ مُرْشِداً) وَكُلَّ
ذَلِكَ إِشَارَةٌ لِلْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ وَالَّذِي مِنْهَا أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
وَسَلَّمَ قَالَ: "ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَعَرَفْتُ النَّبِيَّ مَا بَيْنَ قَائِمٍ وَرَاكِعٍ وَسَاجِدٍ
ثُمَّ أَدْنَى مَوْذَنٍ فَأَقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَقَمْنَا صَفُوفاً نَنْتَظِرُ مَنْ يُؤْمِنَا فَأَخَذَ بِيَدِي
جَبْرِيلُ فَقَدَمَنِي فَصَلِّيتُ بِهِمْ". [فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَصَلِّي الْأَنْبِيَاءُ وَهُمْ أَمْوَاتٌ
فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَليست دار عمل؟ أَجَابَ الْقَاضِي عِيَاضٌ وَتَبِعَهُ السَّبْكَيُّ
بِجَوَابَيْنِ؛ الْأَوَّلُ: إِنَّا نَقُولُ: إِنَّهُمْ كَالشَّهَدَاءِ بَلْ أَفْضَلُ، وَالشَّهَدَاءُ أَحْيَاءٌ عِنْدَ
رَبِّهِمْ فَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَحْجُوا وَأَنْ يَصَلُّوا كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ، وَأَنْ يَتَقَرَّبُوا
إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمَا اسْتَطَاعُوا لِأَنْهُمْ وَإِنْ كَانُوا قَدْ تَوَفَّوْا فَهَمَّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي
هِيَ دَارُ الْعَمَلِ، حَتَّى إِذَا فَنِيَتْ مَدَّتْهَا وَتَعَقَّبَهَا الْآخِرَةُ الَّتِي هِيَ دَارُ الْجِزَاءِ
انْقَطَعَ الْعَمَلُ. وَحَاصِلُهُ أَنَّ الْبِرَّخَ يَنْسَحِبُ عَلَيْهِ حُكْمُ الدُّنْيَا فِي اسْتِكْثَارِهِمْ
مِنَ الْأَعْمَالِ وَزِيَادَةِ الْأَجُورِ.

الثاني: وَلَفْظُهُ لِلْسَّبْكَيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّا نَقُولُ إِنْ الْمُنْقَطِعُ فِي
الْآخِرَةِ إِنَّمَا هُوَ التَّكْلِيفُ وَقَدْ تَحْصَلُ الْأَعْمَالُ مِنْ غَيْرِ تَكْلِيفٍ عَلَى سَبِيلِ
التَّلَذُّذِ بِهَا وَالخُضُوعِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَلِهَذَا وَرَدَ أَنَّهُمْ يَسْبِحُونَ وَيَدْعُونَ وَيَقْرَأُونَ
الْقُرْآنَ، وَانظُرْ إِلَى سَجُودِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ شَفَعَا،
أَلَيْسَ ذَلِكَ عِبَادَةً وَعَمَلًا؟ وَعَلَى كِلَا الْجَوَابَيْنِ لَا يَمْتَنِعُ حُصُولُ هَذِهِ
الْأَعْمَالِ فِي مَدَّةِ الْبِرَّخِ.

وقد صح عن ثابت البناني التابعي رضي الله عنه أنه قال: اللهم إن كنت أعطيت أحداً أن يصلي في قبره فأعطني ذلك. فرؤي بعد موته يصلي في قبره، ويكفي رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم لموسى قائماً يصلي في قبره، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسائر الأنبياء لم يقبضوا حتى خيروا بين البقاء في الدنيا وبين الآخرة فاختاروا الآخرة، ولا شك أنهم لو بقوا في الدنيا لازدادوا من الأعمال الصالحة ثم انتقلوا إلى الجنة، فلو لم يعلموا أن انتقلهم إلى الله تعالى أفضل لما اختاروه، ولو كان انتقلهم من هذه الدار يفوت عليهم زيادة فيما يقرب إلى الله تعالى لما اختاروه [اه من هامش المنح المكية].

(و) بعد صلواته بالأنبياء (مضى) عليه الصلاة والسلام مع جبريل عليه السلام (مستودعاً) من الأنبياء وخرج من المسجد وأتاه جبريل بإناء فيه خمر وفي الثاني لبن فشرب اللبن فقال له: "اخترت الفطرة". وكان مضيه (نحو العلاء) حيث عرج به (في ذرى المعراج يرقى العدا) إشارة لما جاء في رواية ابن هشام والبيهقي وغيرهما: ووضعت له مرقاة من فضة ومرقاة من ذهب وعن يمينه ملائكة وعن يساره ملائكة، ثم صعد فيه هو وجبريل حتى انتهيا إلى باب السماء الدنيا فاستفتحاه ففتح لهما وهكذا إلى السماء السابعة قال الإمام ابن حجر على شرح الهمزية: [ورأى في السماء الأولى آدم وعن يمينه أرواح المؤمنين، فإذا نظر إليهم ضحك، وعن يساره أرواح بنيه الكفار، فإذا نظر إليهم بكى، أي: أنه يكشف له عنهم وهم في

النار، التي هي مستقر أرواحهم. والنيل والفرات أي انتهاؤهما، وإلا فابتداؤهما من سدرة المنتهى.

وفي الثانية يحيى وعيسى، وفي الثالثة: يوسف، وفي حديث البيهقي وغيره: فإذا أنا برجل . أي يوسف . أحسن ما خلق الله، قد فضل الناس بالحسن، كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب، والمراد غير نبينا صلى الله عليه وآله وسلم لخبر الترمذي: " ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه حسن الصوت، وكان نبيكم أحسنهم وجهاً وأحسنهم صوتاً".

على أن للأصوليين قولاً مشهوراً اعتمده النووي وغيره في موضع واعتمده آخرون أيضاً أن المتكلم لا يدخل في عموم كلامه، ومن ثم قال بعض المحققين: أعطي شطر الحسن الذي أوتيه نبينا صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة: هارون، وفي السادسة: موسى، وفي السابعة: إبراهيم وهذه مقدمة على رواية لم تضبط به منازلهم. وعلى رواية: إدريس في الثانية، وهارون في الرابعة، وإبراهيم في السادسة، وموسى في السابعة، لأن سياقها يدل على أنه لم يضبط منازلهم كما صرح به الزهري، فالأولى التي فيها أن ضبطها أولى على أنه يجمع بين الروايات المختلفة في ذلك، بأنه رآهم في الصعود على كفيات وفي الهبوط على كفيات أخر. فلما جاوز موسى بكى، فقيل: ما يبكيك؟ قال: ربّ هذا الغلام بعثته بعدي يدخل من أمته الجنة أكثر مما يدخل من أمتي، وبكاؤه ليس لحسد - حاشاه من ذلك - بل غبطة وحنناً على ما فاته من

مضاعفة أجور نبينا بكثرة أتباعه وصالحهم إلى ما لا نهاية له، أو رحمة لأمته لما وقع منهم بعده مما لم يقع نظيره لهذه الأمة.

وذكره (بغلام) لأنه أصغر منه سناً، أو لأن قوة الشباب معه إلى

سن الشيخوخة.

وحكمة تخصيص هؤلاء باللقاء: الإشارة إلى كل ما سيقع له كالإخراج من الجنة ثم العود إليها، والمهجرة من مكة ثم العود إليها، وكمعاداة اليهود له أوائل المهجرة كما عادوا عيسى وأرادوا قتله، ويحیی وقتلوه، وكمعاداة أهله له، وكرجوع قومه إلى محبته كما رجع قوم هارون إلى محبته، وكمعالجته لقومه كما عالج موسى قومه، وكنتمكنه من مكة والكعبة وتمتعه بهما كما وقع لإبراهيم، ومن ثم رآه مسنداً ظهره إلى البيت المعمور الذي بجبال الكعبة، ويدخله من حين خلق الله الخلق إلى الأبد كل يوم سبعون ألف ملك فلا يعودون إليه، وأُخِذَ منه: أن الملائكة أكثر المخلوقات.

واختلفوا في رؤيته لهؤلاء الأنبياء صلى الله على نبينا وعليهم وعلى سائر المرسلين وسلم، فقيل: لأرواحهم إلا عيسى فإنه رفع بجسده، وكذا إدريس على قول، واختلف قائلو هذا في الذين صلوا معه في بيت المقدس، فقيل: الأرواح أيضاً، وقيل: بل الأجساد، وقيل: حرق الله له الحجب حتى رأى كلاً في قبره من المحل الذي أخبر به، وقيل: رفعوا من قبورهم تلك الليلة لتلك المواضع إكراماً له صلى الله عليه وآله وسلم] اهـ.

ثم بعد مجاوزته للسماء السابعة (صعد المختار حتى المنتهى) أي نهاية ما وصل إليه وهو سدرة المنتهى (حيث يغشى السدرة العظمى ندا) وهو إشارة لما حصل لسدرة المنتهى لما غشيها أمر الله تعالى حيث تغيرت أي تلونت بألوان مختلفة فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسننها، بل إنه صلى الله عليه وآله وسلم تجاوز الحجب (ودنا) أي قرب (ثم تدلى) في قربه (ورأى من حضرة القدس مقاماً مفرداً) أي انفرد به دون من سواه حيث رأى ربه بأمر عينه صلى الله عليه وآله وسلم، وفي ذلك المقام الذي لم يصله أحد غيره ولم يختص به سواه (فرض الله) تعالى عليه و(علينا) معشر أمته (صلة) تصلنا به (و) ذلك إن نحن أدينا (صلاة) على حقيقتها بحضور تام فعندها تكون لنا صلة (واجتباء وهدى) وهي (خمس) صلوات في خمسة (أوقات) لكل منها وقت محدد معلوم، (لها) أي للخمس الصلوات (في فضلها أجر خمسين) من الصلوات لما أوجبه الله على نفسه في ذلك المقام (وجوباً أبداً) أي على مدى أوقات الدنيا، وقد جاء في فرضها وثبوت أجرها بهذه الكيفية الحديث في حادثة الإسراء والمعراج حيث قال عليه الصلاة والسلام: "فأوحى إليّ الله ما أوحى ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة فنزلت إلى موسى . عليه السلام . فقال ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: :خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك واسأله التخفيف فإن أمتك لا يطيقون ذلك فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب خفف على أمتي ، فحطّ

عني خمساً، فرجعت إلى موسى فقلت: حطَّ عني خمساً فقال: إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف قال: فلم أزل أرجع بين ربي عز وجل وبين موسى حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشرٌ فذلك خمسون صلاةً ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشرًا ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً" - وفي رواية: "كتبت حسنة فإن عملها كتبت سيئة واحدة - قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى عليه السلام فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحيت منه". وهذا قطعة من حديث أنس الذي رواه مسلم.

(و) من عظيم ما رأى من الأمور في رحلته تلك أنه (رأى الجنة) ورأى ما فيها من أنهار وأشجار ونحو ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وما فيها من نعيم مقيم (والمنح) أي السعادة والنعيم (الذي كتب الله لكل السعداء) أي الذين نالوا السعادة في الحياة الدنيا وأقاموا على أمر الله تعالى وشرعه وحفظوا أنفسهم من الوقوع فيما يوجب غضبه ومقته، فقد روى البخاري عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "لما عرج بي إلى السماء بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافته قباب اللؤلؤ الجوف فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فإذا طينته مسك أذفر"، وروى الطبراني بإسناد حسن والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين عن

النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "لما دخلت الجنة أتيت على قصر من ذهب مربع مشرف فقلت: لمن هذا القصر؟ فقالوا: لعمر ابن الخطاب ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من قرأ بعد كل صلاة مكتوبة {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} عشر مرات بنى الله له قصراً في الجنة ومن قرأها عشرين مرة بنى الله له قصرين في الجنة"، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إذا تكثرت قصورنا في الجنة يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: "فضل الله أوسع من ذلك".

(ورأى) أيضاً في رحلته (النارَ وأهوالاً بها) وحديث الإسراء الذي فيه رؤية الجنة والنار يؤيد قول أهل السنة والجماعة بوجود الجنة والنار وأنها مخلوقتان وموجودتان لا كما يزعمه أهل الأهواء بأنهما لم يوجدتا بعد، وهذه النار التي أعدها الله (تحرق العاصي) الذي ترك أمر ربه (و) اجتراً على فعل المنكرات فهي (تشوي الجسدا) لمن دخلها بسبب كفره أو ذنوبه (نسأل الله الأمان دائماً) أي في كل وقت وحين (من لظاها) أي نار الجحيم (لا نراه أبدا) بحق المبعوث رحمة للعالمين، وقد وردت آثار كثيرة في بيان أنواع من العذاب التي أوريها عليه الصلاة والسلام في نار جهنم ومنها ما جاء في سنن أبي داود عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم".

(ثم عاد المصطفى) عليه الصلاة والسلام (من رحلة) وهي رحلة الإسراء والمعراج (وهو مسرور) غاية السرور (لما قد وجدنا) فيها من الأسرار والأنوار حتى أن العلماء قالوا: إن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر بالنسبة لذات النبي صلى الله عليه وآله وسلم. (وانتفى الحزن) منه عليه الصلاة والسلام بما أناله مولاه من عظيم القدر ورفعة المنزلة حتى خصه برؤيته دون من سواه، فسُرِّي عنه صلى الله عليه وآله وسلم (الذي قد شابهه) من الحزن (من صراع الكفر نزغاً واعتداً) منهم عليه. (ثم عاد) المختار صلوات ربي وسلامه عليه (من سماء لسماء و) من ثم عاد (لفرش) أي لفرشه في بيت أم هانئ الذي أتاه جبريل فيه ولما عاد كان (دفوؤه) أي فرشه الذي بات فيه (ما برداً) أي من حرارة جسمه لما كان نائماً عليه وقد ورد ذلك عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

(ومع الصبح أتاهم) أي أتى قومه (معلنناً) لهم (منحة الإسراء) التي منحه الله إياها وقالها لهم (قولاً مسنداً) ذكر لهم فيه كل ما شاهده وما منحه الله إياه لأنه ما أحب أن يكتفم قدرة الله وما هو دليل على علو مقامه صلى الله عليه وآله وسلم، وقد ورد أنه أخبر أم هانئ الخبر وتعلقت به وناشدته أن لا يخبر قريشاً بذلك خوفاً منها أن يكذبوه ولكنه أخبر بما منحه الله إياه، ولما وصل إلى المسجد أيقن أنه إذا حدثهم كذبوه فجلس حزيناً فمرَّ به عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس إليه صلى الله عليه وآله وسلم فقال كالمستهزئ: هل كان من شيء قال: "نعم أسري بي الليلة"،

قال: إلى أين؟ قال: "إلى بيت المقدس". قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا قال: "نعم"، فلم يُر أنه يكذبه مخافة أن يحجده - أي ينكره صلى الله عليه وآله وسلم الحديث الذي حدث به - إن دعا قومه. فقال له: أفرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثني؟ قال: "نعم". قال: يا معشر بني كعب بن لؤي فانقضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما فقال: حدث قومك بما حدثني فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إني أسري بي"، قالوا: إلى أين؟ قال: "إلى بيت المقدس فنشر لي رهط من الأنبياء منهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام وصليت بهم وكلمتهم"، قال أبو جهل كالمستهزئ: صفهم لي، قال: "أما عيسى عليه السلام ففوق الربعة ودون الطويل تعلوه حمرة كأنما يتحادر من لحيته الجُمَّان - وفي رواية: "كأنما خرج من ديماس - أي حمام" وأما موسى عليه السلام فضخم آدم طويل كأنه من رجال شنوأه وأما إبراهيم عليه السلام فوالله إنه لأشبه الناس بي خلقاً وخلقاً" وفي رواية: "لم أر رجلاً أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به مني" يعني نفسه عليه الصلاة والسلام.

فلما سمعوا ذلك ضجوا وأعظموا ذلك الإسراء و(سخرُوا منه) فصار بعضهم يصفق وبعضهم يضع يده على رأسه تعجباً (وقالوا إنما جنَّ طه) أي نسبوه للجنون (في المقال) أي فيما قاله (وعدا) أي تعدى وافترى أي كذبوا ما قاله.

(و) عند ذلك (تحدَّوه) أي كفار قريش (ليروي) لهم (ما رأى فيه) أي المسجد الأقصى (من بابٍ وما قد شيذا) فقد أتى في مسلم من

رواية أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال . أي في حديث الإسراء .: "ثم أصبحت فأخبرت قريشاً فلقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألني عن أشياء من وصف بيت المقدس لم أثبتها . أي احفظها وأضبطها . فكربتُ كرباً شديداً فجلى الله لي بيت المقدس". وفي رواية للإمام أحمد: "فجيء بالمسجد الأقصى وأنا أنظر حتى وضع عند دار عقيل فنعته وأنا أنظر إليه". وإلى هذا أشار الناظم حفظه الله حيث قال: (فتبدي المسجد الأقصى) أي ظهر (له) قال الإمام ابن حجر الهيتمي في شرح الهمزية: [ورفعه له إما بحمل مثاله ووضعه قريباً منه وعليه تحمل "فجيء بالمسجد" أي بمثاله، وإما بحمل المسجد نفسه إليه وهذا أظهر] اهـ.

فلما شاهده عليه الصلاة والسلام على ما تقدم (بين عينيه) مستقراً وصفه لهم (فأحصى العددا) من الأبواب التي سألوه إياها وما سألوه عنه من غير ذلك. (ف) بعدما وصفه لهم لم يزداهم ذلك إلا عناداً حتى (استشاط الكافرون غضباً) وقالوا عنه إنه ساحر (وتنادوا) فيما بينهم أنه مجنون و قالوا (عقل طه فقدا) رغم ما ظهر لهم من الآيات.

يقول ابن حجر في شرح الهمزية: [وبهذا ظهرت الحكمة في الإسراء لبيت المقدس، ثم العروج منه إلى السماء، لما تقرر أن فيهم من رأى بيت المقدس، فوصفه لهم كما هو، مع علمهم بأنه لم يذهب إليه قط، أوضح آية على صدقه في جميع ما أخبر به من أمر السماء، ومما أخبرهم به أنه قال لهم: إن من آية ما أقول لكم أي مررت بعيركم في مكان كذا، وقد

ضلوا بغيراً لهم فجمعه فلان، وأن مسيرهم ينزلون بمكان كذا، ويأتوكم يوم كذا، يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان، فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينتظرون حتى إذا كان قريب من نصف النهار، أقبلت العير يوم الأربعاء، ففي يومه، كادت شمسها تغرب ولم يقدموا، فدعا الله، فحبس الشمس حتى قدموا] اهـ.

ورغم ذلك استبعد الإسراء كثير من الناس حتى ارتد من ضعف إيمانه ورق دينه (وأنى الصديق) رضي الله تعالى عنه (يحمي موقفاً) كذب به من كذَّب وارتد بسببه من ارتد و(كادت الكفار منه تنفدا) إلى تشكيك الناس وحملهم إلى الرجوع عن دينهم كما حصل لمن ارتد منهم و(قال) - لما أخبروه أن النبي عليه الصلاة والسلام أسري به من مكة إلى بيت المقدس وعاد من ليلته - : قال أهو قال ذلك؟ فقالوا: نعم فقال: صدق فإني أصدقه فيما هو أبلغ من ذلك ف(هَذَا الوحي يأتي بكرة وعشاء) من السماء إلى الأرض فأصدقه بما أخبر به، ف(قول طه أيدياً) أي أنه صادق في حديث إسرائه أيده وصدقه الصديق رضي الله عنه وأخرس به الأفواه المكذبة، قال صاحب الخصائص: أخرج سعيد ابن منصور وابن سعد والطبراني في الأوسط وابن مردويه من طريق أبي معشر عن أبي وهب مولى أبي هريرة قال: لما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة أسري به وكان بذى طوى قال: "يا جبرائيل إن قومي لا يصدقونني"، قال: يصدقك أبو بكر وهو الصديق.

فصل في (عوامل الهجرة الأولى من مكة)

لما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما بأصحابه من البلاء من تعذيب الكفار إياهم كما قد تقدم شيء من ذلك فيما قدمناه ولم يكن أمر بالجهاد حينئذٍ وقد (بلغ الأمر) في تعذيبهم من قبل كفار قريش (الدُّرى) أي أعلاه (في مكة) بل (وتبدى الشر في وجه العدا) حتى استشهد من استشهد تحت التعذيب وفقد بصره من فقد (فأتى الإذن) عندئذٍ (لأرباب) أي أصحاب (التقى) ووصفهم بذلك لأنه لم يكن أحد أتقى لله منهم يومئذٍ وذلك الإذن (هجرةً في الله) بانتقالهم من بلد الشرك (تُجلى) أي تذهب (الأودا) أي الأذى عنهم مما حل بهم وكانت (قبلتهم) في هجرتهم الأولى هي (أرض أحباش) أي أرض الحبشة وقد اختارها لهم عليه الصلاة والسلام من دون سائر البلدان لأن (بها مَلِكٌ يرمى الذي قد قصدا) إلى أرضه لعدله (فمن أتاها عاش) عنده (مأموناً على دينه) لا يتعرض له أحد بفتنة في دينه فيعبد الله تعالى كما أحب (و) مأموناً على (الذات) أي لا يتعرض له أحد بأذى فهو مأمونٌ (من كل اعتدا) فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم لما أذن لهم بالهجرة إليها: "إن بها معاش واسعة وملكاً عادلاً لا يُسَلِّم جاره". فخرج إليها أولاً سرّاً أحد عشر رجلاً وأربع نسوة وهم عثمان بن عفان وامراته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والزبير وعبد الله ابن مسعود وعبد الرحمن بن عوف وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وامراته سهيلة بنت سهيل

بن عمرو ومصعب بن عمير وأبو سلمة بن عبد الأسد وامراته أم سلمة .
التي صارت أم المؤمنين آخرًا . وعثمان بن مظعون وعامر بن ربيعة وامراته
ليلى بنت أبي حثمة وحاطب بن عمرو وسهيل بن بيضاء وكان عليهم
عثمان بن مظعون واستأجروا سفينة بنصف دينار، ثم خرج جعفر بن أبي
طالب رضي الله عنه وتتابع المسلمون حتى بلغوا اثنين وثمانين رجلاً سواء
النساء والصبيان وهي أول هجرة في الإسلام ولما وصلوا إلى الحبشة استقروا
هناك وأحسن لهم ملكها الجوار، ولما وصلت الأخبار لكفار قريش اجتمع
رأيهم أن يوجهوا إلى ملكها من يردهم حتى يفتنوه عن دينهم فبعثوا إليه
عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي وعمرو بن العاص السهمي ووجهوا معهما
هدايا للنجاشي ووزرائه وخواصه فقدم عليه وقدم له الهدايا ولوزرائه
وخواصه . وكلماه في شأن من هاجر إليه وصدق قولهما الوزراء والخواص،
ولكن الله عصم النجاشي وسمع كلام جعفر رضي الله عنه وردده عليهم، فرد
عمرًا وصاحبه خائبين ورد عليهما الهدايا، وحصل إرجاف بعد ذلك وصل
إلى مهاجرة الحبشة بأن قريشاً أسلمت فرجع بعضهم ووجد الخبر على
عكسه . ثم أقام بقية المهاجرين بأرض الحبشة في خير دار وأحسن جوار إلى
أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة وذاع صيته وعلا
أمره فرجع بعد ذلك مهاجرة الحبشة إلى المدينة وفرح عليه الصلاة والسلام
بمقدم جعفر وأصحابه .

وكان صلى الله عليه وآله وسلم - كما تقدم - يعرض نفسه على
قبائل العرب في مواسم الحج ولما أراد الله تعالى كرامة الأنصار وإعزاز دينه

بهم اجتمع بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ستة نفر من الأنصار فعرض عليهم ما كان يعرضه على غيرهم من القبائل فلما سمعوا منه قالوا فيما بينهم: والله إنه للنبي الذي تواعدنا به اليهود فلا يسبقونا إليه، وكان اليهود يقولون للأوس والخزرج: قد أظل زمان نبي نتبعه ونقتلكم معه وقد ذكر القرآن ذلك ذاماً لليهود عندما أتى النبي عليه الصلاة والسلام وعرفوه ولم يتبعوه حسداً من عند أنفسهم وذكرهم بما كانوا يقولون فقال تعالى: {وَكَاثِرًا مِّن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ} أي يستنصرون {عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ}، وبعد أن عرض نفسه على الستة النفر من الأنصار أتوه ليلاً وهم: أبو أمامة أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث ورافع بن مالك وقُطبة بن عامر وعقبة بن عامر وجابر بن عبد الله بن ريان رضي الله عنهم، فآمنوا به وصدقوه وقالوا: إن قومنا بينهم العداوة والبغضاء فإن جمعنا الله بك فلا رجل أعزُّ علينا منك وقد تقدم معنا ذلك، وكان ذلك في سنة إحدى عشرة فلما قدموا على قومهم في المدينة أخبروهم بما وقع بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفسأ فيهم الإسلام فلم تبقَ دور من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (و) عندها (بدت يثرب تؤتي أُكلاً) بفسو الإسلام في بيوتها حتى جاء (موسم الحج) من السنة الثانية عشرة (اجتماعاً شهداً) ذلك الموسم (من بني الخزرج والأوس) حيث (أتى نفرٌ) لذلك الموسم ومرادهم فيه الاجتماع بالنبي عليه الصلاة والسلام وكان عددهم اثني عشر رجلاً وهم: أسعد بن زرارة وعوف ومعاذ ابنا عفراء ورافع بن

العجلان وذكوان بن عامر وعبادة بن الصامت ويزيد بن ثعلبة والعباس بن عبادة وعقبة بن عامر وقطبة بن عامر وهؤلاء خزرجيون ومن الأوس أبو الهيثم بن التيهان وعُوم بن ساعدة و قد تحقق ما أراوه فاجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم (بالليل يرجون الهدى) أي الإيمان والتصديق به ومبايعته على ذلك ف(عاهدوا المختار) عليه الصلاة والسلام (عهداً لازماً) أي بايعوه بيعة النساء وهي أن لا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا إلى آخر ما جاء في بيعة النساء وكان ذلك في العقبة وسميت بيعة العقبة الأولى. وأشار الناظم إلى بيعة العقبة الثانية بقوله (ينصروه ويكونوا عضداً) له في تبليغ الدعوة وكان ذلك في العقبة الثانية وسيأتي ذكرها عقب ذلك، ولما تمت بيعة العقبة الأولى (بعث المختار) أي مع أولئك نفر (فيهم) أي معهم (مصعباً) بن عمير رضي الله تعالى عنه (يُقرئ القرآن) لهم ويعلمه إياهم مع كونه (يحي البلدا) بالدعوة إلى الله تعالى وبيان دينه وإيضاحه للناس حتى يؤمنوا وكان أول سفير في الإسلام فأسلم على يديه السعدان سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج فأسلم لإسلامهما كثير من قومهما.

العقبة الثانية :

وأما بيعة العقبة الثانية فكانت في سنة ثلاث عشرة وقد خرج فيها حجاج الأنصار من المسلمين مع حجاج قومهم من أهل الشرك، فلما

قدموا مكة واعدوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق فلما أتى الوقت المطلوب ومضى ثلث الليل منه خرجوا مستخفين، ولما اجتمعوا بالشعب عند العقبة جاءهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه عمه العباس وهو يومئذ على دين قومه، فتكلم العباس مستوثقاً لرسول الله من الأنصار فقال لهم: يا معشر الخزرج - وكانت العرب تسمى الأنصار أوسها وخزرجها الخزرج - إن محمداً من حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا فهو في عز ومنعة من قومه في بلده وقد أباي إلا الانقطاع إليكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما وعدتموه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه فمن الآن، فقالوا: تكلم يا رسول الله وخذ لربك ولنفسك ما شئت فتكلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتلا عليهم شيئاً من القرآن ثم قال: "أبايعكم على أن تمنعوني بما تمنعون به أنفسكم ونساءكم وأبناءكم" فقال البراء بن معرور نعم والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك بما نمنع به أزرنا . بضم الهمزة والزاي وفتح ما بعدها أي نساءنا وأهلنا . فبايعنا يا رسول الله فنحن أهل الحُلُقَة والسلاح ورثناها كابراً عن كابر . فقال أبو الهيثم بن التيهان: يا رسول الله إن بيننا وبين الناس حبلاً وإنا قاطعوها فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظفرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: "بل الأيد الأيد" أي القوة القوة "والدم الدم والهدم الهدم" - بالتحريك - القبر أي أقبر حيث تقبرون وقيل المنزل أي منزلكم منزلي . ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم: "أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً كفلاء على قومهم" فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ونقب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على النقباء أسعد بن زرارة فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا الكفيل على قومي". قالوا: نعم فبايعوه ووعدهم على الوفاء الجنة. وأول من بايع البراء بن معرور ثم تتابع الناس وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين. وروي أن جبريل عليه السلام كان إلى جنب النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند مبايعتهم وهو يشير إليهم واحداً بعد واحد أي كان يعين النقباء منهم.

ولما تمت البيعة صاح إبليس . لعنه الله . صيحة منكراً مشبهاً صوته بصوت منبّه بن الحجاج السهمي: يا أهل منى هذا محمد وأهل يثرب قد اجتمعوا لحربكم فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أي عدو الله أما والله لأفرغن لك" ثم تفرقوا فلما أصبحوا غدت عليهم رؤساء قريش وقالوا: يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا وإنه والله ما حيي من العرب أبغض علينا أن تشب الحرب بيننا وبينهم منكم فحلف مشركو الأنصار ما كان من هذا شيء ولا علمناه فصدقوا فإنهم لم يعلموا.

فلما تفرق الناس من منى فتشت قريش عن الخير فوجدوه قد كان. فخرجوا في طلب القوم ففاتوهم إلا أنهم أدركوا سعد بن عبادة فرجعوا به أسيراً يضربونه فاستنقذه منهم مطعم بن عدي والحارث بن حرب بن أمية

لصنائع كانت لسعدٍ في رقاہما وخوفوا قريشاً من تعرض الأنصار لهم على
طريق الشام.

فصل في (عوامل الهجرة الثانية)

أي الأسباب الدافعة للهجرة إلى يثرب

(و) لما علمت (قريش) أنه صلى الله عليه وآله وسلم استند إلى قوم أهل حرب ونجدة (ضاعفت حملتها وأذاها ضدَّ) أي تجاه (من قد عبدا) أي عبد الله تعالى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مكة حتى (أخذوا) أي قريش (بالحزم) أي بالصرامة (في موقفهم) ذلك والذي هو النيل من المؤمنين حتى نالوا منهم ما لم يكونوا قد نالوه من قبل من الشتم والأذى، واشتد البلاء عليهم حتى صاروا ما بين مفتون في دينه وبين معذب في أيديهم وبين هارب في البلاد، حتى أن أبا بكر رضي الله عنه قد خرج مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى إذا بلغ بئر الفحاء . بموحدة مكسورة وراء ساكنة ثم معجمة مكسورة وقد تضم الأخيرة والكسر أشهر وهو اسم موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر وقيل بلد باليمن والأول أصح . لقيه ابن الدغنة: وهو سيد القارة . والقارة قبيلة بمكة مشهورة بالرمي والمثل يقول: انصف القارة من رامها . فحكى له ما لقي من قومه فقال له ابن الدغنة إن مثلك لا يخرج ولا يُخرج أرجع فأنا جار لك، فرجع وارتحل ابن الدغنة معه حتى

قدما مكة فأنفذت قريش جواره بشرط أن لا يعلن بقراءته ولا صلاته فعمل بشرطهم أياماً ثم ابتنى في صحن داره مسجداً وصلى فيه واختلف إليه نساء قريش يسمعون قراءته وبكائه وكان رضي الله عنه إذا قرأ القرآن

احتنق بالبكاء فأخبرت قريش ابن الدغنة فقدم عليه ولازمه على شرطه الأول أو يرد عليه جواره فردَّ أبو بكر عليه ذمته ومضى بجوار الله عز وجل. وهكذا اشتد الأذى على المؤمنين من الكفار (واشتكى أتباع طه الأودا) أي التعب والنصب الشديد مما لاقوه من ذلك الأذى واستأذنوه في الهجرة فمكث أياماً لا يأذن ثم (أذن الله لهم في هجرة) برؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه يهاجر (نحو أرض ذات نخل وندى) وقال عليه الصلاة والسلام: "أُرِيتُ دار هجرتكم أريت سبخة ذات نخل بين لابتين - وهما الحرتان - ولو كانت السراة ذات نخل وسباخ لقلت: هي هي" والسراة بفتح السين أعظم جبال العرب ثم خرج صلى الله عليه وآله وسلم إليهم مسروراً وقال: "قد أخبرت بأرض هجرتكم وهي يثرب" وفي صحيح البخاري ومسلم أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: "لقد رأيت في المنام أبي أهاجر من مكة إلى أرضٍ بها نخل فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر فإذا هي المدينة يثرب". وهي (طيبة طابت) بهجرة المصطفى إليها (وطاب الملتقى) فيها بين إخوة الإيمان من المهاجرين والأنصار وامتدحهم الله في كتابه فقال في المهاجرين {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْتَصِرُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}. وقال في الأنصار {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}. وقال النبي لأصحابه بمكة آذناً لهم في الخروج إلى

المدينة: "إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها". فأول من هاجر بعد بيعة العقبة أبو سلمة بن عبد الأسد ثم عامر بن ربيعة ثم عبد الله بن جحش ثم تتابعوا أرسالاً (فأتوها) أي المدينة (في خفاء) خوفاً من قريش (جُردا) أي ليس معهم أموال بل خلفوها في مكة وخرجوا فارين بدينهم ولكنهم (وجدوا فيها) أي في المدينة (مكاناً لائقاً) حيث أسكنهم الأنصار بيوتهم وفتحوا لهم صدورهم (و) وجدوا بحق (أحباء) لهم (أحبوا أحمدا) عليه الصلاة والسلام فآثروهم على أنفسهم في أقواتهم وقاسموهم أموالهم (والحبيب) عليه الصلاة والسلام (لم يزل في مكة) مقيماً (راجياً إذناً بما قد عقدا) عليه العزم من المهاجرة إلى المدينة المنورة ولم يتخلف من المسلمين أحد إلا من حبسه المشركون وإلا أبو بكر وعلي رضي الله عنهما فإنهما حبسا أنفسهما على صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فصل في سبب (اجتماع قريش في دار الندوة)

عندما (سرت الأنبياء مسراها) وذاع الأمر ووصل (إلى مسمع الكفار عما قد بدا) أي ظهر لهم من صحة الأخبار وعانينوا ذلك (من رحيل دائب) أي متوالي (عن مكة) إلى طيبة الطيبة ولم يتخلف كما تقدم إلا من حبسه المشركون وأبو بكر وعلي حيث حبسا أنفسهما للهجرة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (فأروا) أي كفار قريش (في الأمر شراً قصداً) حيث سيكون للنبي عليه الصلاة والسلام منعة وحصناً (منعوا الهجرة) أي منعوا من أراد الخروج من مكة إلى المدينة (بل) لم يكتفوا بذلك بل (قد رصدوا سبيل الهجرة رسداً نكداً) فأرجعوا من عشروا عليه مهاجراً حتى لم يهاجر أحد ممن هاجر علانية كما تقدم في كلام الناظم حفظه الله بل مستخفياً إلا ما كان من سيدنا عمر رضي الله عنه حيث طاف على حلق قريش وأعلمهم أنه مهاجر قائلاً لهم: إني مهاجر غداً فمن أراد أن تشكله أمه فليتبعني خلف هذا الوادي.

(و) لما علمت قريش وتحققت ما لقي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من طيب الحال في المدينة وحسن الجوار من الأنصار رهبوا ذلك وحذروا خروج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الأنصار وهم أهل حلقة وسلاح وعرفوا أنه أجمع لحرهم عندئذ (تنادوا لاجتماع عاجل) يكون (ضمن دار الندوة الكبرى صدى) أي في دار الندوة دار قصي بن كلاب أعدت للاجتماع والمشورة، وكانت قريش لا تقضي أمراً

إلا بها وكانوا لا يدخلون فيها غير قريش إلا إن بلغ أربعين سنة بخلاف القرشي، وسمي اجتماعهم ذلك اليوم بيوم الزحمة لأنه اجتمع فيه أشرف بطون قريش ولم يتخلف منهم أحد، وأجمعوا على أن لا يدخل معهم أحد من غير قريش لكن (جاءهم إبليس في ملبسه) أي متصوراً في هيئة شيخ جليل عليه كساء غليظ وكان (يشبه البدو النجود) أي أهل نجد (الجلددا) أي الشداد الغلاظ فقالوا له: من الشيخ؟ قال: من نجد سمع بالذي قعدتم له فحضر لسمع ما تقولون وعسى أن لا يعدمكم رأياً ونصحاً، قالوا: ادخل فدخل.

(واستفاض الأخذ) والعطاء (فيما قد جراً) أي حدث (من أمور أورثتهم كمددا) وإنما عبر الناظم بـ(أمور) بدلاً من (أمر) تصوراً لما لاقوه من شدة رهبتهم وخوفهم منه عليه الصلاة والسلام حتى قال بعضهم لبعض في ذلك الأخذ والعطاء إن هذا الرجل - يعني النبي صلى الله عليه وآله وسلم - قد كان من أمره ما رأيتم وإنا والله لا نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا فأجمعوا فيه رأياً، فقال أبو البحتري بن هشام: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء قبله فقال النجدي: ما هذا برأيي والله لو حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فلا تنشبون أن يشبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ما هذا برأيي فانظروا في غيره، فقال أبو الأسود ربيعة بن عمرو العامري: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فلا نبالي أين ذهب فقال: النجدي ما هذا برأيي فقال أبو

جهل: والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقفتم عليه، وكان رأيه قتل المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فعندها (أجمعوا الرأي) كلهم (على أن يقتلوا سيد العالم طه أحمدا) ولكن الله حافظه (و) عندها (رأوا) أي المجتمعون (في القتل) له صلى الله عليه وآله وسلم (حلاً ناجعاً) أي خلاصاً نافعاً (ورأى إبليس) المتصور بصورة الشيخ النجدي في هذا الرأي (حلاً رشداً) أي أن صاحبه كان ذا عقل في إتيانه بهذا الرأي خاصة وأنه خلصهم من مأزق آخر وهو القتال بين بني عبد مناف ومن يقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم منهم فقال: وللخلاص من ذلك يكون السير في قتله أن (يأخذوا من كل بيت) أي قبيلة (واحداً مُصلتَ السيف) مع كونه (شجاعاً جلدًا) أي قوياً وعندها (يضربون المصطفى) كلهم (في هجمة) واحدة (تحسم الموقف حسماً أبداً) ويتفرق دمه في قبائل قريش فلا تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فتعقله لهم أي من قتلوه ويرضى بالدية قومه فقال النجدي مؤيداً ومادحاً هذا الرأي: القول ما قال - أي أبو جهل - لا أرى غيره، فأجمعوا عليه وتفرقوا على ذلك .

فصل في بيان (التحدي الإلهي والإذن بالهجرة)

وحال تفرق كفار قريش على ما أجمعوا عليه وتنفيذ ما تشاوروا فيه وتعيين من أرادوا للقيام بمهمتهم التي لم يتمها الله لهم وخذلهم فيها وتحداهم ورد مكرهم، (ورسول الله) حال ذلك كله (في منزله) أتاه الخبر من جبريل على ما تأمروا عليه وقال له: لا تنم على فراشك الليلة و(قد دعا) النبي صلى الله عليه وآله وسلم (بالمترضى) أي سيدنا علي رضي الله عنه وأرضاه (كي يرقدا) بدلاً عنه (في الفراش) أي فراشه عليه الصلاة والسلام في داره وأخبره بما تم من أمر قريش وأنه قد أذن له في الهجرة وأنهم لن يصلوا إليه أي أولئك النفر المجتمعون عند بابه المنتظرون خروجه صلى الله عليه وآله وسلم ليلتقوه بشيء يكرهه، وقد سبق أن الإمام علياً رضي الله عنه قد حبس نفسه للخروج مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للهجرة ولكن النبي عليه الصلاة والسلام أخره عن الهجرة (بعد أن قلده) أي كلفه (من أمور الناس ما قد قلدا) أي من أداء الودائع التي كانت عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابها، فنام الإمام علي رضي الله عنه وأرضاه مكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتغطى ببرده الأخضر حيث أمره بقوله: "واتشح ببردي هذا الحضرمي الأخضر" وكان صلى الله عليه وآله وسلم يتغطى في برده ذلك إذا نام، فكان الإمام علي رضي الله عنه أول من شرى نفسه ابتغاء مرضات الله ووقى بنفسه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنه

امثل أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يقول له: لن يخلص إليك شيء . أي من الكفار . فصدق عليه أنه بالامتثال باع نفسه وفي ذلك يقول الإمام علي :

وقيت بنفسي خير من وطئ الثرى ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر رسول إله خاف أن يمكروا به فجاه ذو الطول الإله من المكر وبات رسول الله في الغار آمناً موقى وفي حفظ الإله وفي ستر وبت أراعيهم وما يتهموني وقد وطنت نفسي على القتل والأسر (وتجلى الحق) سبحانه وتعالى (في عليائه) بحفظ رسوله صلى

الله عليه وآله وسلم وخذلان الكفار (ليري العالم) كله بأسره (أجلى مشهدا) أي أظهره وأوضحه تحدياً (بمكر الكفار) أي بما دبروا (والحق) أي سبحانه وتعالى (له مكره) أي تديبه (في الكافرين الحقداء) الذين امتلأوا حقداً على رسوله عليه الصلاة والسلام حتى أوصلهم تديبرهم إلى ما أوصلهم ولكن خيب الله سعيهم و أشار الناظم حفظه الله تعالى بهذا البيت إلى قوله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} وتجلى التحدي حين (خرج الهادي) وهم حول الباب (بحفظ شامل) له من الله تعالى (ورأى الأبطال) الذين أعدوهم لمهمة قتله (مالوا رُقدا) أي مال رأس بعضهم على بعض وكأنهم رقود وإنما شبههم بذلك لأنه لما خرج لم يروه، وكان عليه الصلاة والسلام يقرأ صدر سورة يس إلى قوله تعالى: {فَأَعَشَيْنَاهُمُ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} . (و) لما خرج (وضع التراب عليهم) أي على رؤوسهم

احتقاراً لشأنهم وتبكيئاً لهم (ومضى) عليه الصلاة والسلام أي ذهب (لأبي بكر) وقد سبق أن أبا بكر قد خرج مهاجراً نحو الحبشة وأرجعه ابن الدغنة ثم تجهز للمدينة فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "على رسلك وإني أرجو أن يؤذن لي" فاحتبس أبو بكر لذلك وعلف راحلتين كانتا عنده الخبط أربعة أشهر، وكان ذهابه إلى عند أبي بكر بعد اختبائه في الغار حتى سكن عنه الطلب وجاء إلى أبي بكر في نحر الظهرية (يريد الموعدا) كما قالت عائشة رضي الله عنها: فبينما نحن يوماً جلوس في نحر الظهرية قال قائل لأبي بكر هذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متقنعاً. أي مغط وجهه ورأسه. في ساعة لم يكن يأتنا فيها فقال أبو بكر رضي الله عنه: فدئى له أبي وأمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لأبي بكر: "أخرج من عندك". فقال: إنما هم أهلك. قال: "فإني قد أذن لي في الخروج" قيل فبكى أبو بكر حينئذ فرحاً. وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله فخذ إحدى راحلتي هاتين فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "بالثمن"، قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز. أي أسرع. ووضعنا لهما سفرة. والسفرة طعام المسافر وقد يراد به الجلد الذي يطرح عليه الطعام. في جراب فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت بها على فم الجراب فبذلك سميت. ذات النطاقين. واستأجرا رجلاً من بني الدئل دليلاً ماهراً قيل اسمه عبد الله بن أريقط وهو يومئذ كافر ولا يعرف له فيما بعد إسلام فأمناه ودفعا إليه راحلتيهما ووعدها غار ثور بعد ثلاث ليال ثم لحقا بالغار.

هذا ما كان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد خروجه من منزله (وصحاح الكفار من بعد الضحى) أي بعد طلوع الشمس ونظروا إلى داخل منزل الرسول عليه الصلاة والسلام فلم يجدوا إلا علياً رضي الله عنه، عندها (خذلوا حقاً) أي تحققوا من خذلانهم. ولأنه عند جلوسهم في بادئ الأمر وبعد نزوله من داره عليه الصلاة والسلام مع انتظارهم له وحيث أنهم لم يشاهدوه مر بهم مار فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمداً، قال: خبيكم الله والله لقد خرج وما ترك أحداً منكم إلا ووضع على رأسه التراب، فنظروا فرأوا علياً مسجى في البرد فجلسوا لظنهم أنه الرسول عليه الصلاة والسلام حتى أضحوا (و) لما تحقق لهم الخبر كما تقدم (عادوا بُلداً) أي بخيبة البلادة.

وأما ما كان من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصاحبه بعد لحوقهما بالغار فإنهما مكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف . أي يفهم الحديث بسرعة . لَقِن . وهي مرادفة لما قبلها . فيدلج من عندهما بسحر فيصبح من قريش كبائت فلا يسمع أمراً يكادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريجها عليهم عشاء ويسرح بها من عندهم بغلس وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام إذا أمست بما يصلحهما، وطلبهما المشركون وقد كان مخبئهما (غار ثور) ووصلوا إلى عنده وانقطع الأثر وكادوا يدخلون الغار الذي (ثاني اثنين به) أي فيه حتى خشي أبو بكر واضطرب (فقال) له

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (لا تحزن وربي) معنا أي فإن الله معنا دائماً (أبدأ) في كل وقت فلن يصلوا إلينا و(وقف الكفار حسرى عندما) انقطع الأثر عليهم عند الغار و(شاهدوا نسيجاً) للعنكبوت على فم الغار (وبيضاً نضداً) أي صف للحمامة وقال بعضهم: لو دخلنا الغار فقل له آخر: إن العنكبوت قد نسج عليه قبل أن يولد محمد ولو كان أحد فيه لما وضعت هذه الحمامة بيضها هنا. (قصر الفهم) أي فهم هؤلاء (عن الإعجاز في مُلك ربِّي) الذي يقول للشيء كن فيكون .

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على خير البرية لم تنسج ولم تحم (ف)عندما لم يدركوا أن الله سخر الكون بأسره له عليه الصلاة والسلام ومن ضمن ما سخره له العنكبوت فنسج والحمامة فباضت (تولّوا) عند ذلك (حرّدا) أي غضاباً مغتاضين.

(ومضى المختار) عليه الصلاة والسلام وصاحبه بعد الثلاث الليالي عندما أتاهم صاحبهم الدليل (في رحلته) نحو المدينة وأردف أبو بكر خلفه مولاه عامر بن فهيرة ليخدمهما فأخذ بهم الدليل طريق السواحل، وأخذت عليهم قريش بالرصد والطلب وجعلوا دية كل واحد منهما لمن أسره أو قتله. قال أبو بكر رضي الله عنه: أخذ علينا بالرصد فخرجنا ليلاً فأحيينا ليلتنا ويومنا حتى قام قائم الظهيرة وخلا الطريق فلا يمر فيه أحد حتى رفعت لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأت عليه الشمس بعد، فنزلنا عندها فأتيت الصخرة وسويت بيدي مكاناً ينام فيه رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم ثم بسطت عليه فروة ثم قلت: نم يا رسول الله وأنا أنفض لك ما حولك فنام وخرجت أنفض ما حوله . أي استبرئه خوفاً من وجود أحد . فإذا أنا براع مقبل بغنمه إلى الصخرة يريد منها الذي أردناه فلقيته فقلت لمن أنت يا غلام؟ فقال لرجل من أهل المدينة . يعني مكة . فقلت أفي غنمك لبن؟ قال: نعم، قلت: أفتحلب لي؟ قال: نعم فأخذ شاة. فقلت: انفض الضرع من الشعر والتراب والقذى فحلب لي في قَعْبٍ معه - أي قَدَح - كثبة من لبن قال: ومعني إداوة - أي مطهرة - أرتوي فيها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ليشرب منها ويتوضأ قال: فأتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكرهت أن أوقظه من نومه فوقفت حتى استيقظ - وفي رواية: فوافقتة حين استيقظ - فصبيت على اللبن من الماء حتى برد أسفله فقلت: يا رسول الله اشرب من هذا اللبن فشرب حتى رضيت ثم قال: ألم يأن الرحيل؟ قلت: بلى قال: فارتحلنا بعدما زالت الشمس". (و) مع أن (الفتي الصديقُ يخشى الرّصدا) الذي وضعته قريش في كل وقت وحين حصل ما كان يخشاه حيث قال أبو بكر: فأتبعنا سراقه بن مالك ونحن في جلد من الأرض . أي موضع صلب منها . فقلت يا رسول الله: أتينا فقال: لا تحزن إن الله معنا فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: فارتطمت فرسه إلى بطنها . أي غاصت قوائمها في تلك الأرض الصلبة . فقال إني قد علمت أنكما دعوتما عليّ فادعوا لي فالله لكما أن أرد عنكما الطلب فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

فنجنا فجعل لا يلقي أحداً إلا قال: قد كفيتم ما ها هنا ولا يلقي أحداً إلا رده فوفى لهما. وهو الذي عناه الناظم وقاه الله وحفظه بقوله:

(وسليلُ جعشمٍ) وهو سراقه بن مالك بن جعشم قد (ساخت به قدم الخيل) أي غاصت به في الأرض (مراراً) كما في بعض الروايات أنه كلما تبعهما دعا عليه الرسول فتغوص قوائم فرسه فيطلب منه الدعاء له فيدعو فتخرج فيعود لطلبهما فيعود لما كان (فاهتدى) بعدها أنه لا يصل إليهم وقال لهم ما قال ووفى بما قاله وأسلم رضي الله عنه يوم الفتح وواصلوا السير حتى مروا على خيمتي أم معبد الخزاعية ثم الكعبية واسمها

عاتكة بنت خالد فسألوها الزاد فلم يجدوا عندها شيئاً وكانوا في قحط شديد، فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى شاة في خيمتهم وسألها: هل من لبن؟ قالت: هي أجهد من ذلك إنما خلفها عن الغنم الجهد، فدعا بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فمسح بيده ضرعها وسمى الله فدعا لها في شاتها فتفاجت عليه وأتت بإناء كبير يروي الرهط من الناس فحلب وسقاها وسقى أصحابه وشرب آخرهم ثم ملأه وغادره عندها، وقيل إنها أسلمت وبايعت، وقيل إنها وفدت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في المدينة وبايعت. وإلى ما ذكرنا أشار الناظم حفظه الله بقوله: (وحليبٌ درتِ الشاةُ به) لما مس ضرعها المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم (وهي) أي الشاة (عجفا) لا لحم فيها قد ظهرت عظامها وخلفها الجهد حتى عن الرعي، ولما حضر زوج أم معبد من الرعي بالغنم (فسقوه معبدا) أي ذلك اللبن حيث إنه لما جاء زوجها

عجب من ذلك اللبن ووجوده عندهما وليس في الخباء شاة ذات لبن
فذكرت له القصة وذكرت أوصاف الرسول عليه الصلاة والسلام فقال:
والله هذا صاحب قريش ولو رأيته لاتبعته. وأخرج ابن سعد وأبو نعيم أن
تلك الشاة بقيت عندهم يخلبونها ليلاً ونهاراً إلى زمن عمر وهي (معجزات
باهرات قد بدت) أي ظهرت على يديه عليه الصلاة والسلام (في طريق
الحفظ) أي قد حفظها الحفاظ فهي (تُروى سنداً) أي مسندة مسلسلة.

فصل في (الوصول إلى طيبة)

أورد البخاري في صحيحه أنه لما سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مكة كانوا يفدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردّهم حر الظهيرة، وانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من اليهود على أطم من أطامهم لأمر ينظر إليه فبصر برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه مبيضين - لابسي الثياب البيض - أي يزول بهم السراب فلم يتمالك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا جدكم . أي نصيكم . الذي تنتظرون، فثار إلى السلاح فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بظهر الحرة، وأشار الناظم حفظه الله تعالى إلى وصوله عليه السلام فقال: (وصل المختار في نحر الضحى) أي عندما قام قائم الظهيرة وصل (طيبة) في ذلك الوقت (يا نعم من قد وفدا) عليهم في تلك الأرض التي بورك وتشرفت وأضاءت به كما روى أنس أنه عليه الصلاة والسلام لما دخل المدينة أضاءت وأضاء فيها كل شيء و(خرج الناس جميعاً) بعد أن ثاروا للسلاح لما أخبروا بوصولهم (فرحاً) به (وشداً) أي غنى (الولدان) والنساء واجتمعوا للترحيب وقالوا (قولاً منشداً) أي نشدوه مرحبين به عليه الصلاة والسلام وقالوا ذلك النشيد المعروف عند الخاص والعام:

طلع البدر علينا	من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا	مادعاً لله داع
أيها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع

جئت شرفت المدينة مرحباً يا خير داع
فهذا (موكب الأفرح) الذي رآه صلى الله عليه وآله وسلم من
أهل المدينة به (يطوي ألماً) مر به في مكة والطائف (وهزيح الوصل غنى
وشدا) مرحباً به.

ولما نزلوا مرحبين به وتلقوه في ظهر الحرة عدل بهم ذات اليمين
حتى (نزل المختار في أهل قبا) في بني عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين
من شهر ربيع الأول قيل لثنتي عشرة منه وقيل لثمان، وقام أبو بكر رضي
الله عنه للناس وجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فطفق من جاء
من الأنصار ممن لم يكن رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحيي أبا
بكر حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأقبل أبو
بكر حتى ظلل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم عند ذلك، فلبث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهم (بعض
أيام) وهي أربع عشرة ليلة وقيل ثلاثاً وقيل خمساً (وكانوا) بوروده وجلوسه
عندهم (سعدا) أي من أسعد الناس به (فنبى الله) عليه الصلاة والسلام
(في أبياتهم) وهذه السعادة الحقيقية (وعطاء الله فيهم وِرداً) وأعظم به
من عطاء، وفي تلك المدة أسس المسجد الذي أسس على التقوى وصلى
فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قيل: وكان مريداً لكلثوم بن الهدم
وهو أول مسجد أسس على التقوى بني في الإسلام، وكان نزوله في قباء
على كلثوم بن الهدم وقيل: على سعد بن خيشمة.

وسار من قباء يوم الخميس وقيل يوم الجمعة فأدركته الصلاة في بني سالم بن عوف فصلى في بطن وادي رانوناء، وكانت أول جمعة صلاها في المدينة واتخذ موضع مصلاه مسجداً وسمي مسجد الجمعة.

(ثم) لما ركب من قباء (سارت ناقه المختار) وهو راكب عليها (من حيث كانت) موجودة ، أي في قباء كما مر (وهي) أي الناقة (تدري المقصدا) لأنها مأمورة بذلك وكانت (كلما مرت بقوم) من ديار الأنصار اعترضوها و(أخذوا بالزمام) يقولون: هلم يا رسول الله إلى القوة والمنعة (كي يطيب) له (المقعدا) أي السكنى في ديارهم فعندها (قال طه) عليه الصلاة والسلام لمن تعرض لها: خلوا سبيلها ف(إنها مأمورة) بأمر الله فتبرك حيث أمرها ربما (فدعوها) لا تتعرضوا لها و(لا تشدوا المقودا) أي خطامها، ولذلك ورد أنه أرخى لها زمامها وما يحركها وهي تنظر يميناً وشمالاً والناس كنفتيها . أي يمنا ويسرة . حتى بركت حيث بركت على باب مسجده ثم ثارت وهو عليها فسارت حتى بركت على باب أبي أيوب ثم التفتت يميناً وشمالاً ثم ثارت وبركت في مبركها الأول وألقت جرائها بالأرض . أي مقدم عنقها . (فاستقرت حيثما كان المنى) أي مسجده الذي ابتناه بعد ذلك ونزل عنها صلى الله عليه وآله وسلم وقال: هذا المنزل إن شاء الله تعالى، واحتمل أبو أيوب رحله وأدخله بيته فاختار الله له ما كان يختاره عليه الصلاة والسلام فقد كان يجب النزول على بني النجار لنسبه فيهم وقد صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "خير دور الأنصار دار

بني النجار، فهم أوسط دور الأنصار وأحوال عبد المطلب". ولم يزل عليه الصلاة والسلام في منزل أبي أيوب حتى ابتنى مسجده ومسكنه قيل: وكانت إقامته عنده شهراً، ولما اطمأن عليه الصلاة والسلام اشتد سرور الأنصار به وأظهروا الأسف على ما فاتهم من نصره.

وكان المسجد الذي ابتناه مع أبياته في دار بني غنم بن مالك بن النجار وهو حيث مبارك الراحلة وهو (مربد الطفيلين) سهل وسهيل ابني رافع بن عمرو وهما يتيمان في حجر أسعد بن زرارة وكان يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى بني النجار فقال: "تامنوني بجائظكم هذا". قالوا: لا والله ما نطلب ثمنه إلا إلى الله، ولما كان ليتيمين لم يقبله إلا بالثمن قيل اشتراه بعشرة دنانير ذهباً دفعها عنه أبو بكر ثم ابتداء في بنائه وأعانه عليه المسلمون حتى (صار المسجد) أي تم البناء.

فصل في (بناء دولة الإسلام)

لا شك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انتقل من مكة إلى المدينة أي من مجتمع لآخر، وهو مجتمع لا بد من بنائه وتأسيسه وغرس تعاليم الإسلام بين أفرادهِ وتعريفه مسؤولياته والمتحتم عليه والمسؤولية الملقاة على عاتقه نحو تبليغ دعوة الله تعالى. ولا بد لغرس ما ذكرنا من مكان تنطلق منه هذه التعاليم ويجتمع فيه المتلقون لها فمن أجل ذلك (كان همُّ المصطفى) عليه الصلاة والسلام (في طيبة) أي عند وصوله إليها مباشرة و(منذ أن حلَّ) بها واستقر (يشيد) أي يبني (المسجد) لما ذكرنا من أمور وللقيام بالعبادة وتبليغ ما أمره الله به من شرائع وأحكام، فإن المسجد يطرقه الخاص والعام والذكر والأنثى وهو بيت الله تعالى ومتعبد أوليائه، وقد كان عليه الصلاة والسلام قبل ذلك يصلي في المكان الذي أدركته فيه الصلاة، ولما ذكرنا عجل فيما أراد (فبناه) أي المسجد (من جريد) أي جريد النخل (وكذا) من (حجر الحرة) حيث أمر أن يؤتى بالحجارة منها ووضع أساسه وأكمل بنائه من اللبْن وكان ينقل اللبْن والحجارة مع أصحابه ويرتجز معهم وهو يقول :

"اللهم لا خير إلا خير الآخرة فاغفر للأَنْصار والمهاجرة".

وكان يياسط أصحابه ويياسطونه عند بنائهم للمسجد حتى أن عمار بن ياسر باسط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله ما لي ولأصحابك، قال: "ما لك ولهم"، قال: يريدون قتلي يحملون

لبنة لبنة ويحملون عليّ لبنتين فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينفذ عنه التراب ويقول: "ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك، إنما تقتلك الفئة الباغية".

وهكذا جد النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه (حتى شُيِّدا) أي تم بناء المسجد وبناه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مربعاً وجعل قبلته إلى بيت المقدس وطوله سبعين ذراعاً في ستين أو يزيد وجعل له ثلاثة أبواب ولم يسطحوه فشكوا الحرَّ فجعلوا خشبه وسواريه جذوعاً وظلّوا بالجريد ثم بالخصف فلما وكف طينوه بالطين وجعلوا وسطه رحبه وكان جداره قبل أن يظلل قامة وأشبراً وبقي كذلك إلى خلافة عمر فزاد فيه، وقال بعضهم: بناه حينئذٍ أقل من مائة في مائة فلما فتح خيبر زاد مثله والله أعلم¹] اهـ

ولما بايعه الأوس والخزرج ووصل عليه السلام إلى المدينة (جمع) الله به (الأوس مع الخزرج) وقد كان بينهما من الحروب والقتل ما أتت عليه السنون حتى قيل إن الحرب دامت بينهما أكثر من مائة سنة وبوصوله إليهم جمعهم الله به (في أسرة الأنصار جمعاً واحداً) وسموا بذلك وزال ما بينهما من إحن وحروب وعاشوا في خير وسعادة وأمان وألفة ومحبة .

(ثم) بعد قدومه بخمسة أشهر (آخى بين أنصار زكت) أي نمت وكثرت باجتماع القبيلتين وزكت نفوسهما وطهرت قلوبهما بدين الله وهدى نبيه

¹ "بهجة المحافل وبغية الأمثال ج-1-179.

(و) بين (الذين هاجروا) وسبب مؤاخاته بينهم كما قال السهيلي لتذهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم ببعض حتى (صاروا) كلهم (يبدأ) أي واحدة مهاجروهم وأنصارهم، وكان جملة الذين آخى بينهم تسعين رجلاً خمسة وأربعين من المهاجرين وخمسة وأربعين من الأنصار، وكانت المؤاخاة بينهم على الحق والمواساة والتوارث وبذل الأنصار رضي الله عنهم في ذلك جهدهم حتى شاطروهم الأموال وكتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار ووعد فيه يهود بني قينقاع وبني قريظة وبني النضير وصالحهم على ترك الحرب والأذى وأن لا يحاربهم ولا يؤذيهم وأن لا يعينوا عليه أحداً وأنه إن دهمه بما عدو ينصروه وعاهدتهم وأقرهم على دينهم وأمواهم. وكانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في دار أبي طلحة زيد بن سهل رضي الله عنه فأخى صلى الله عليه وآله وسلم بين أبي بكر وخارجة بن زيد وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك وبين بلال وابن رويم الخثعمي وبين زيد بن حارثة وأسيد بن حضير وبين أبي عبيدة وسعد بن معاذ وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع رضي الله عنهم أجمعين، وقال سعد لعبد الرحمن بن عوف يا عبد الرحمن: إني من أكثر الأنصار مالا فأنا مقاسمك وعندني امرأتان فأنا مطلق إحداها فإذا انقضت عدتها فتزوجها فقال بارك الله لك في أهلك ومالك.

وأشار الناظم حفظه الله تعالى إلى ما اجتهد فيه الأنصار في هذه المؤاخاة مع إخوانهم من المهاجرين فقال: (إخوة في الله حتماً) أي في دين

الله تعالى مع المحبة والصفاء والأخوة الصادقة (ترتقي) هذه الأخوة (فوق معنى العرق) أي إخوة النسب والقبيلة والانتماء للوطن واللون والجنس حتى كانت تلك الأخوة التي في الله ومن أجله (حباً) خالصاً (وفداً) أي يفدي بعضهم بعضاً بماله ونفسه. وبهذا الإخاء المتفاني في حب الله ورسوله (جبهة الداخل) عنى بها المجتمع الداخلي لهذه الدولة الفتية (أحيها) أي النبي صلى الله عليه وآله وسلم (بهم) أي بهؤلاء الأبطال الذين امتلأت قلوبهم محبة وإخاء وفداء وتحسدت فيهم معاني الخيرية التي ذكرها الله تعالى في كتابه بقوله {كنتم خير أمة أخرجت للناس} فهم حقا قد زكت نفوسهم وتهدبت أخلاقهم (حيي) أنت أيها المحب لأصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار (قوماً زكّياً بل سجداً) كما حياهم الله تعالى لأنهم قوم تфанوا في عبادة الله تعالى، وبهذه الأنفس الأبية الزاكية (شيدوا) أي بنوا (أركان دين المصطفى) صلى الله عليه وآله وسلم وهي الإسلام والإيمان والإحسان وحفظوا هذه الأركان اعتقاداً وقولاً وعملاً (واهدتوا بالشرع) حيث أقاموا أحكامه وامتثلوا أوامره وانتهوا عن زواجره (وهو) أي الشرع (المقتدى) أي الذي يقتدون به في حياتهم بجميع أشكالها وصورها في عباداتهم ومعاملاتهم وأحكامهم وسائر تصرفاتهم فيما بينهم وبين غيرهم وفي سلمهم وحرهم وبهذه القاعدة والمنهج فقد (قاتلوا في صف طه) عليه الصلاة والسلام وباعوا أنفسهم في سبيل الله لإعلاء نصرته الدين وكف المعتدين وحماية للشرع الحنيف (كلما جندوا في غزوة) من الغزوات -

وكان عدد غزواته عليه الصلاة والسلام تسع عشرة غزوة غير السرايا
والبعوث - أروا الله من أنفسهم خيراً هانت عليهم نفوسهم في سبيل الله
تعالى و(أزْدُوا الْعِدَا) قتلاً وأسراً وذلاً وهواناً فهم (جند طه) عليه الصلاة
والسلام وهم بهذا (سادة الدنيا) ولم لا وهم الذين على كواهلهم قام الدين
وكان في منعة وعزة وتمكين و(كذا) أي وكما هم سادة الدنيا فهم أيضاً
(سادة الأخرى) أي الآخرة بما نالوا من أجر. وهم (رمز الشهداء) أي
أعلام الشهداء إذ هم أول شهداء الإسلام.

فصل في (الغزوات والسرايا)

قبل أن نتحدث عن غزواته وسراياه التي قام وأمر بها عليه الصلاة والسلام نعرض على كلام لا بد منه؛ ليكون مدخلاً لما سنتحدث عنه ألا وهو مفهوم الجهاد الذي فرض على النبي عليه الصلاة والسلام وأمته إلى قيام الساعة.

فنقول أن المستقرى لتاريخ الأمم من العصور الأولى إلى يومنا هذا يجد أن كل أمة بحد ذاتها لها قوام خاص تقوم عليه أيا كان ذلك الأمر التي تجتمع عليه ويكون تجمعها من أجله؛ فإنها سعت إلى السيطرة على مثيلاتها من الأمم إما لتكون تلك الأمة تابعة لها تستذها وتستعملها في مسببات ما تحتاجه من مهن ونحوها، أو للسيطرة على مكامن ما جعله الله تحت أيديها من أرزاق، أو من أجل السعاية إلى بسط الهيمنة والقوة واتساع السلطان وبسط النفوذ، أو من أجل بسط ثقافة تراها تلك الأمة المتسلطة على مثيلاتها من الأمم لكي تكون هي المتبوعة وغيرها لها تابعة، وعندها كانت الحروب تقام على هذه الأساسيات والنزاعات على مثل ما قدمنا أو ما شابهه وسحقت كثير من الشعوب واستذلت وسفكت الدماء وأريققت في تحقيق أهداف في حد ذاتها ليس لها أي هدف لإسعاد البشر لا في دنياهم ولا في آخرهم، اللهم ما قد أسلفناه من التسلط وبسط النفوذ وحب السيطرة وبسط اليد على مقدرات الأمم سواء أكانت تكمن في الأراضي أو في عقول الرجال ونبوغ الفكر كما نراه اليوم واقعاً في حياتنا فإن كثيراً من الشعوب تسحق وتستنزف مقدراتها وثرواتها وتشقى أفرادها من أجل سيطرة أصحاب الأطماع، وتسفك الدماء من أجل الهيمنة وتقلب الأفكار والمفاهيم في سبيل الوصول إلى التحكم التام على مقدرات الأمم

وثرواتها ورجالها، بل وتكالب أعداء الإسلام الواضح على المسلمين في هذه الأيام لأنهم أصبحوا طعمة لكل طاعم ولقمة سائغة لكل متداعٍ، وقد تداعت علينا الأمم كما أخبر سيد الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها لما وصلت إليه الأمة من تفكك وتناحر وتخاذل وابتعاد عن حقيقة ما أعزها الله به من دينها وما تركته من التزام الجهاد في سبيل الله بمفهومه الشامل في الإسلام إذ ما تركت أمة الجهاد في سبيل الله إلا أذلها الله على يد أعدائها؛ لأن الجهاد في الإسلام له حكمه وله أسبابه ودواعيه غير الأسباب والدواعي التي من أجلها قامت الحروب في جميع العصور من غير ما هدف قط سوى السيطرة وبسط النفوذ والسيطرة على مقدرات الشعوب كما أسلفنا، وهذه الأمور يربأ عنها الإسلام في دعوته للجهاد والذي بينه كتاب المسلمين السامي وهو القرآن الكريم حيث يقول: (وتلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً).

فمن هنا يظهر أن أمة الإسلام في جهادها لم تكن كمثيلاً من الأمم الكافرة، الذين يريدون مجرد العلو في الأرض على الغير أو الفساد، وذلك بالسيطرة على مقدرات الشعوب والأمم كما أسلفت.

ومن هنا يظهر عظمة الدين الإسلامي وأنه دين السلام وأن جهاده لهدف وغاية ليس إلا، وإلا لما ارتضاه الله تعالى لسائر الأمم حيث قال: (اليوم أكملت لكم دينكم)، فهو دين تام في جميع شؤون حياة الأمم (وأتممت عليكم نعمتي) أي بهذا الدين (ورضيت لكم الإسلام ديناً) أي يا معشر البشر في سائر المعمورة، إذاً فواجب كبير على أتباعه إبلاغ دين الله لمن ارتضاه الله لهم وهم سائر البشر، ولا يكون ذلك البلاغ والإبلاغ إلا بجهاد لأن قوى الكفر والظلم

ستقف مانعة صادة عن تبليغه وهذا سبب من أسباب وداعية من دواعي الجهاد في الإسلام، إذا فأمة الإسلام هي الأمة المؤهلة لقيادة العالم وإبلاغه دين الله تعالى.

يقول العلامة الوشلي¹: [فهم أمة الكمال لكنهم رضوا بالنقص والانحلال وأمة سورة اقرأ ولكنها لا تقرأ وأمة سورة الصف لكن صفها ممزق وأمة سورة القتال ولكنها اختارت الاستكانة والاستسلام وأمة سورة النصر ولكنها رضيت بالهزيمة وأمة سورة النور لكنها تعيش في الظلام الدامس إنه الجهل، والسنة والكتاب بين أيدينا والتشاغل بالشهوات الفانية عما يبيننا وعلم ذلك غيرنا وجهلنا فلا حول ولا قوة إلا بالله من تجاهلنا وتناسينا. نحن المسلمون الوحيدون من بين الأمم نملك المبادئ الأساسية العظيمة التي لو طبقت وأحسن تقديمها للبشرية لأنقذتهم ووسعتهم لأنها قد طبقت قروناً وما زالت هي الحل والحل لا يعني التنديد والبكاء على هذا الواقع الأليم وإنما في تجديد العهد وإعادة البيعة مع الله المتمثلة في اعتناق الدين اعتناقاً صحيحاً نقياً من الدخل والشوائب بفهم يمثل الإسلام عقيدة وانتماء وسلوكاً بهذا وحده نوصل الإسلام إلى الآخرين فيخالط بشاشة القلوب فتتغير المبادئ الفاسدة المنحرفة ويقبل الناس على المبادئ الصحيحة النافعة وليس من العيب أن يغير الإنسان رأيه إذا كشف خطأه وعدم صوابه (فألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين) إن ما ينقص الأمة اليوم هو اعتزازها بدينها ومبادئه لأن الاعتزاز بالمبدأ وإن كان خاطئاً قد يحميه سنوات ولكن صحة المبدأ وسلامته هو الذي يجعلها تعيش

¹ الوشلي هو شيخنا الشيخ محمد بن قاسم بن اسماعيل الوشلي الحسني محدث يعني من "1" المراوغة. معاصر وكتابه هو العبر والعظات من جدول الغزوات مخطوط وهو في دور الطبع.

وتخلد إلى قيام الساعة فعار على من يحمل مثل هذا الدين أن يخاف أو يجبن أو يصبح قسعة يأكل منها الخاص والعام ولعل أهل هذا الدين هم وحدهم الذين لا يدركون هذه الحقيقة اليوم وغير أهله يدركونها ويحسونها ويحسبون لها ألف حساب، إن هذا الدين اليوم محتاج إلى من يحمل همه فأعظم حمل له اليوم أن نحمله في سلوكنا وأخلاقنا لكن الناس اليوم مع الأسف تركوا حملهم الدين واشتغلوا بحمل الطين.

فأبناء الإسلام اليوم أصابهم غرور الانتماء الفارغ وحمى التجزأة للدين والعوائق فكم من مسلم مسلم بإعلان الشهادة بعيد عن حقيقة الشهادة أليس معنى لا إله إلا الله لا معبود بحق في الوجود إلا الله أليس الوجود أرض الله وسماؤه وما فيهما؟ أليس بنو آدم خلفاء الله في أرضه؟ أليس الدين الذي رضيهم لهم هو الإسلام؟ وأنعم عليهم بشموله وكماله، بلى لكننا نطقنا بالشهادة واخترنا من الإسلام العمل السهل الذي يتناسب مع شهوات أنفسنا وما فيه شقة تغافلنا عنه وتركناه (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً) لقد تركنا الخلافة وضيعنا القيادة فحينما ينظر إلينا الناس أعداء الله وغيرهم لم يجدوا لدينا عزة الإسلام وعظمته والتقيّد بمبادئه بل إذا ما عرضت لنا شهوات الدنيا وزخرفها نسينا أننا الأمة الوسطى ورضينا من أجل الشهوات بالمقعد الخلفي من بين الأمم وقلدناهم في سننهم الخاطيء (حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه) ويحاول المسلم أن يقنع نفسه بشرعية انحرافه عن الإسلام (إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخويصة نفسك) وهكذا لو بحثنا في الناس لوجدناهم ييغضون الإسلام تبغيضاً على الناس.

(أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا). هذا هو الأخطر على المسلمين والدين فحين يسوء فهم الإسلام ويعتقد صحة الأفعال بالرأي والهوى إنه التغيير والتبديل الذي انخرقنا بسببه عن هذا الدين إنه البعد عن المبادئ وعدم التضحية من أجلها (ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم). فما أحوج الأمة إلى أن تعود إلى دينها وتعض على مبادئها بالنواخذ وتسلم أمرها إلى بارئها وإن لم تفعل فلتراجع إيمانها حتى تستسلم للشرع الشريف بكل اتجاهاته اللهم فقهننا في الدين وارزقنا الاقتداء بسيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم] اهـ.

وبعد هذا فإنه لا بد للمسلمين من رجوع صحيح إلى دينهم إن أرادوا أن يكونوا في مصاف سلفهم الصالح، ولا بد أن يتحقق في نفوسهم أن الجهاد أمره في الإسلام خطير وله ضوابطه ودوافعه التي ينضبط بها وتحقق الدوافع والأسباب التي من أجلها شرع هذا الجهاد، لا ما يفعله اليوم أولئك الذين سموا أعمالهم الطائشة جهاداً؛ لأنهم لم يعرفوا دوافع وضوابط وأسباب الجهاد في الإسلام، ومتى تحققت تلك الأمور ومن هو الذي يحق له أن يحددها وكذلك يجب على جميع أفراد الأمة الإسلامية أن يعلموا أن الجهاد باقٍ وماضٍ إلى يوم القيامة، وأن فضله عظيم، وأنه لا يمثله شيء بعد الدخول في الإسلام وقيام أركانه، فلذلك لا بد أن نعلم حكم الجهاد.

يقول الوشلي في حكم الجهاد في الإسلام¹: [اعلم أنه ورد في وجوب الجهاد من الآيات والأحاديث ما يطول ذكره ويتعذر على المستفيد استقصاؤه وحصره وما جرى من خلاف بين العلماء في كون الوجوب كفائياً أو

المصدر السابق."1

عينياً بحسب الدليل تقديماً وتأخيراً وناسخاً ومنسوخاً وخصوصاً وعماماً يصعب على الكاتب زبره، مما حداني أن أصوب سهم قلبي نحو الدليل وأجتهد فيما يقتضيه وفق اللغة العربية من كتاب الله والسنة المطهرة بدون تأويل وأتبع المقتضى بالنص والتحليل وأمسك عنان القلم عن كثرة الأقاويل إلا ما فيه توضيح وله مدرك رغبة للتسهيل فأقول مستمداً التوفيق للصواب من الملك الجليل (وهو حسبي ونعم الوكيل).

الجهاد في سبيل الله واجب عيني على كل مكلف بقدر المستطاع وعلى أي حال حتى يظهر الإسلام وتحسم أنواع الفتن ويكون الدين كله لله وإذا ما أصبح الإسلام ظاهراً ظهوراً كاملاً وأخذت الفتن في مهدها ولم يبق ما يخشى منه الفتنة على الإسلام والمسلمين فيكون في هذه الحالة واجباً كفاً أي إذا قام به البعض سقط الحرج عن الباقي ولا يجوز توقف الجهاد نهائياً حفاظاً على كيان المسلمين والإسلام قال تعالى: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير). قال ابن العربي في آيات الأحكام ج2 ص154: يحتمل أن يريد به وقاتلوهم حتى لا يكون كفر ويحتمل أن يكون وقاتلوهم حتى لا يفتن أحد في دينه وكلاهما يجوز أن يكون مراداً وهذه الغاية لا تتحقق إلا بنزول عيسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، قلت وهذان الأمران حدود الجهاد المفروض عيناً في كل زمان ومكان لا ذلك الزمان وتقر حكماً دائماً في مواجهة الواقع الجاهلي الدائم ولا بد لتحقيق هذا الهدف من أمرين أولهما دفع الأذى والفتنة عن معتنقون هذا الدين وثانيهما تحطيم كل قوة تعارضه لضمان الهدف الأول وحرية المعتقد للمخلوقين وذلك معنى قوله تعالى

(ويكون الدين كله لله) أي إزالة الحواجز القاهرة لخلق الله عن التمسك بدين الله و يبقى الناس أحراراً يختارون معتقدهم بدون ضغط ولا تكون هناك أي قوة لميناء يخالف دين الله يضغط به على الآخرين ويجول بها دون من يرغبون في الدخول في دين الله أما إذا كانت هناك أدنى قوة من الكفار كتجمع أو اعتداء ولو على فرد من المسلمين في عَرَض أو عَرَض أو أرض أو أسر لمسلم أو وقع استنفار عام فيبقى الوجوب العيني قائماً مقروناً بالفورية على كل المسلمين تحقيقاً لقوله تعالى: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) وقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير) قال ابن العربي ونحو قوله (ما لكم إذا قيل لكم.. الخ قوله تعالى: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) المعنى لا تقبلوا على الأموال إيثاراً لها على الأعمال الصالحة ولا تركوا إلى التجارة الحاضرة تقديماً لها على التجارة الراجعة التي تنجيكم من عذاب أليم، وقوله تعالى: (إلا تنفروا.. الخ الآية فيها مسألتان الأولى هذا تهديد شديد ووعيد مؤكد في ترك النفي ومن محققات مسائل الأصول أن الأمر إذا ورد فليس في وروده أكثر من اقتضاء الفعل فأما العقاب عند الترك فلا يؤخذ من نفس الأمر ولا يقتضيه الاقتضاء وإنما يكون العقاب بالخبر عنه كقوله إن لم تفعل كذا عذبتك بكذا كما ورد في هذه الآية الكريمة فوجب بمقتضاها النفي للجهاد والخروج إلى الكفار لمقاتلتهم على أن تكون كلمة الله هي العليا.

المسألة الثانية نوع العذاب فالعذاب الأليم هو الذي في الدنيا باستيلاء العدو على من لم يستول عليه وبالنار في الآخرة وزيادة على ذلك استبدال

غيركم كما في قوله تعالى: (وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم) وقال تعالى: (انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون). قال القاضي أبو السعود قوله تعالى: (خفافاً وثقالاً) حالان من ضمير المخاطبين أي على أي حال كان من عسر ويسر حاصلين بأي سبب كان من الصحة والمرض والغنى والفقر وقلة العيال أو كثرتهم أو غير ذلك مما تنظمه مساعدة الأسباب وعدمها بعد الإمكان والقدرة في الجملة وقوله تعالى: (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم) إيجاب للجهاد بهما إن أمكن وبأخذهما عند إمكانه وإعواز الآخر اهـ.

وقال ابن العربي في آيات الأحكام اختلف في إحكام هذه الآية أو نسخها على قولين والصحيح أنها غير منسوخة وقد تكون حالة يجب فيها نفي الكل إذا تعين الجهاد على الأعيان بغلبة العدو على قطر من الأقطار أو بحلوله بالعقر فيجب على كافة الخلق الجهاد والخروج إليه فإن قصروا عصوا اهـ قلت وكذا لو أسروا من المسلمين ولو أسيراً واحداً يجب النهوض إليهم فوراً لأن حرمة المسلم أولى وأعظم من أي قطر اهـ ونقل عن الإمام مالك رحمه الله أنه قال يجب على كافة المسلمين فداء أسراهم وإن استغرق أموالهم وقال أيضاً في آيات الأحكام عند قوله تعالى: (كتب عليكم القتال وهو كره لكم ..) الخ الآية. واختلف الناس في هذه الآية فمنهم من قال نزلت في الصحابة خاصة والثاني أنه مكتوب على جميع الخلق لكن يختلف الحال فيه فإن كان الإسلام ظاهراً فهو فرض على الكفاية وإن كان العدو ظاهراً (على موضع) كان القتال فرضاً على الأعيان حتى يكشف الله ما بهم وهذا هو الصحيح روى البخاري وغيره عن مجاشع قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم أنا وأخي فقلت: بايعني على الهجرة

فقال: "مضت الهجرة لأهلها" قلت علام تباعنا؟ قال: "على الإسلام والجهاد". وروى الأئمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا". انتهى كلام ابن العربي.

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ج 6 ص 45: باب وجوب

النفير وما يجب من الجهاد والنية للناس في الجهاد حالان إحداهما في زمن النبي صلى الله عليه وسلم والأخرى بعده فأما الأولى فأول ما شرع الجهاد بعد الهجرة اتفاقاً ثم بعد أن شرع هل كان فرض عين أو كفاية قولان مشهوران للعلماء وهما في مذهب الشافعي وذكر أقوالاً كثيرة للعلماء يطول شرحها وتعقبها بقوله والتحقيق أنه كان عينياً على من عينه النبي صلى الله عليه وسلم في حقه ولو لم يخرج الحال الثاني بعده صلى الله عليه وسلم فهو فرض كفاية على المشهور إلا أن تدعو الحاجة إليه وذكر خلافاً كبيراً ثم قال والذي يظهر أنه استمر على ما كان عليه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن تكاملت فتوح معظم البلاد وانتشر الإسلام في أقطار الأرض ثم صار إلى ما تقدم ذكره ثم قال والتحقيق أيضاً أن جنس جهاد الكفار متعين على كل مسلم إما بيده وإما بلسانه وإما بماله وإما بقلبه والله أعلم اهـ.

وعبارة فتح المعين مع قرة العين وإن دخلوا أي الكفار بلدة لنا تعين الجهاد على أهلها والدفع بما أمكنهم ويجب على من قصده كافر الدفاع بما أمكن وإن كان لا جهاد عليه لامتناع الاستسلام لكافر، وحرم على من هو أهل فرض الجهاد انصراف عن الصف بعد التلاقي ولو غلب على ظنه أنه إذا ثبت قتل لعدده صلى الله عليه وسلم الفرار من الزحف من السبع الموبقات اهـ قلت ولقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم

الأدبار) ولأن الاستسلام والانصراف ذل وخلل ديني ولا التفات إلى من يخص الآية بيوم بدر أو بقيد الانصراف بالضعف لأن ذلك يكون قبل المقاتلة والاستيلاء أما بعدهما فيجب الدفع بما أمكن وكيفما أمكن ويجب الصبر والثبات حتى يرفع الله تلك الكارثة ويظهر دين الله وتحمي البيضة ويدل ويخزي العدو ولقوله صلى الله عليه وسلم: "لا تتمنوا لقاء العدو وإذا لقيتموهم فاصبروا".

وكل غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسراياه وفعل أصحابه يؤيد ذلك للمعتبر والمتعظ ومثل الاستيلاء والمقاتلة إذا كان العدو في زحفه على المسلمين دون مسافة القصر من بلد المسلمين أو آذوا مسلماً أو أسروه فيجب النهوض فوراً إليهم كما سبق بيانه اهـ.

وعبارة فتح المعين مع إعانة الطالبين ولو أسروا مسلماً يجب النهوض إليهم فوراً لخلاصه أي وجوباً عينياً كدخولهم دارنا بل هذا أولى إذ حرمة المسلم أعظم وقوله لخلاصه اللام تعليلية متعلقة بيجب أي يجب النهوض لأجل خلاص المسلم المأسور من أيدي الكفار وتعين أيضاً على من دون مسافة القصر من البلد التي دخلوا فيها ولو كان في أهلها الكفاية لأنهم في حكمهم وكذا على من كان على مسافة القصر إن لم يكف أهلها ومن يليهم اهـ .

أسباب الجهاد ودواعيه:

أولاً: ليعلم المسلم أنه صاحب رسالة خالدة أتت لإسعاد البشرية في دنياها وأخرائها، وأن هذه الرسالة يجب عليه تبليغها لسائر البشر في أنحاء المعمورة؛ لأنها رسالة الله ودينه لعباده الناسخ لسائر الأديان والأنظمة الباطلة الجائرة، ولا شك أن أنظمة الشر والفساد ستقف موقف المضاد لهذا النور الذي يجرر البشر

من عبادة المخلوق لعبادة الخالق، ومن انحلال الضلال والفساد إلى نور الإيمان وحرية النفس وعبادة الواحد الديان، وتحرير فكر الإنسان من الماديات المحضه إلى توازن الروح ومخاطبة الباطن وقيام الظاهر.

فالمسلمون مبلغون لدين الله فإذا وقف أمام تبليغهم لما أمرهم الله به وأوجبهم عليه من نشر دينه الظالمون ودعاة الشر والفساد فإنه لا بد من الجهاد الذي فرضه الله عليهم.

ثانياً: نشر العدل في ربوع المعمورة والقضاء على الشر والفساد، ولا يكون ذلك بمجرد إلقاء الخطب والموعظ، بل بالبيان الكافي في سائر ربوع المعمورة لدين الله وإظهاره على ما أراده الله منهم. ويتطلب ذلك حملهم للواء العدل بأيديهم وإيصال مفاهيم الدين دون خوف ولا وجل ولا مراعاة لأحدٍ بإخفاء بعض جوانب الدين أو حيثياته ويكون ذلك للقاصي والداني في أرجاء المعمورة لأنهم شهداء على الناس كافة.

ثالثاً: كيد أعداء الإسلام للمسلمين والسعي إلى تفرقهم وتشيتهم شملهم وكلمتهم.

رابعاً: الاعتداء على المسلمين والنيل منهم ولو لواحد من أبناء المسلمين أو احتلال شبر من أراضيهم كما سبق تبينه وإيضاحه.

خامساً: النيل من الإسلام أو رسوله بأي نوع من أنواع النيل.

سادساً: أسباب الإرهاب من الخوف أو المقاطعة أو التسلط على المسلمين كما يفعل اليوم أو إملاء مفاهيم يريدونها هم على المسلمين.

وهذه هي الأسباب والدوافع وغيرها من الأسباب والدوافع التي دفعت المسلمين إلى الجهاد، ويبقى الجهاد ما بقيت دوافعه وتوالت أسبابه لا غير.

فمن أجل ذلك **ف(غزواتُ المصطفى)** عليه الصلاة والسلام التي قام بها، والغزوات جمع غزوة وهي التي غزا فيها بنفسه كانت سبعاً وعشرين وهي: غزوة ودان، ثم غزوة بواط، ثم غزوة سفوان، ثم غزوة العشيّرة، ثم غزوة بدر الكبرى، ثم غزوة بني سليم، ثم غزوة بني قينقاع، ثم غزوة السويق، ثم غزوة قرقرة الكدر، ثم غزوة غطفان، ثم غزوة بحران بالحجاز، ثم غزوة أحد، ثم غزوة حمراء الأسد، ثم غزوة بني النضير، ثم غزوة نجد وهي غزوة محارب وبني ثعلبة، ثم غزوة بدر الآخرة وهي غزوة بدر الموعد، ثم غزوة دومة الجندل، ثم غزوة الخندق، ثم غزوة بني قريظة، ثم غزوة بني لحيان، ثم غزوة بني المصطلق ويقال لها المريسيّ، ثم غزوة الحديبية، ثم غزوة ذي قرد وهي في اللغة الصوف الردي، ثم غزوة وادي القرى خيبر، ثم غزوة ذات الرقاع، ثم غزوة عمرة القضاء، ثم غزوة فتح مكة، ثم غزوة حنين، ثم غزوة الطائف، ثم غزوة تبوك.

والتي وقع فيها القتال من تلك الغزوات . والمراد بوقوع القتال من أصحابه وهو المراد بقول بعضهم التي قاتل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يباشر القتال بنفسه إلا في معركة أحد . تسع غزوات وهي أصل الغزوات، وغيرها من الغزوات لم يكن في الحقيقة إلا كالتمهيد لهذه الغزوات الأصل، أي أنه عليه الصلاة والسلام جعلها ممهدة لها. وهي غزوة بدر الكبرى، وأحد، والمريسيّ، والخندق، وقريظة، وخيبر، وفتح مكة، وحنين، والطائف.

وهذه الغزوات **(مشرفةٌ في جبينِ الكونِ)** لأنها لم تكن للهيمنة ولا للسيطرة على مقدرات الشعوب، بل مسببة بأسباب ولها دوافع كما سيذكرها الناظم حفظه الله تعالى في الهدف منها، فهي بهذه الكيفية **(فتحاً)** لسائر الأمم

التي سيصلها الحق والهدى والرشد، وسيحررها من ربة عبادة المخلوق لعبادة الخالق. فمن أجل هذا كانت فتحاً (خُلِّدًا) أي أصبح خالدًا خلوداً ممجداً، حيث وصل صوت الحق لأصقاع المعمورة كلها وكان سبباً لنشر دين الله تعالى ورفعته ورفع الظلم والجور عن البشرية كلها، ف(مهدفُ الحربِ) إذاً الذي قام بها عليه الصلاة والسلام في الغزوات وجهاده (سلامٌ في الورى) أي الخلق بأجمعهم، أي لتحقيق السلام العادل الشامل الذي يرعى لكل فرد من أفراد البشرية حقه في كل شيء حتى في تفكيكه بعد وصول دين الله إليه وإيضاحه له إن أراد اتباعه أو البقاء على دينه (فلا إكراه في الدين) كما قال تعالى لأنه (قد تبين الرشد من الغي)، ولوصول دعوة الحق من غير اضطهاد إلى سائر البشر كما أراد الله تعالى لأنه عليه الصلاة والسلام (يَحْمِلُ السيفَ) في سبيل نشر الإسلام وإبلاغه للبشر كلهم، لأنه من حقهم أن يبلغهم دين الله تعالى، وأمر أتباعه أن يحملوا السيف من أجل هذا المبدأ ولأجل هذا الدافع، وكذلك لدافع آخر وهو (لِصَدِّ الاعْتِدَا) الذي يقوم به أهل الكفر والفساد للصد عن دين الله فإن قريشاً أذاقت المسلمين الويلات في مكة والتعذيب الشديد وصدت الناس عن الدخول في دين الله، ولما هاجر المسلمون صادروا أموالهم وحالت بينهم وبين أزواجهم وذرياتهم وحبست وعذبت من قدرت عليه، بل وتآمرت على قتل صاحب الرسالة وتهديدهم له وهو في المدينة حتى كان عليه السلام يُجرس حتى نزل قوله تعالى: (والله يعصمك من الناس)، وأغرقت القبائل بالمدينة حتى أصبح المسلمون يبيتون ويصبحون في السلاح من شدة خوف مدهامة الكفار لهم، واتصلت بمن يناوي الرسول في المدينة وهو عبد الله بن أبي وهو رأس المنافقين وقد عاهد الرسول عليه الصلاة والسلام من كان في داخل مجتمعه ممن تضمه

المدينة وهم اليهود، وجعل بينه وبينهم الموائيق ولكنه بعد ذلك قام بالجهاد وحمل السيف ضدهم في عدة غزوات، وقد أوضح الناظم حفظه الله سبب ذلك بقوله (أو لمن يأبى السلام) أي الموائيق والعهود وأصبح بها (ناكثاً) ولها ناقضاً لكونه (رغب الكفر) أي في موائيق أهل الكفر ونصرتهم وتحالف معهم (وحابى) أولئك (البعدا) في الدار وفي المعتقد، حيث كان اليهود أهل رسالة سماوية وأهل مكة في ذلك الوقت أهل عبادة للأوثان فحابوهم على صاحب الرسالة ونقضوا عهدهم وغدروا فكان الجهاد ضدهم. (و) رغم ذلك كان في حربه عليه الصلاة والسلام مع أعدائه مثلاً عظيماً حيث جعل (لشنّ الحرب) على أعدائه (آداباً) التزمها وأوضحها لأمته وأمرهم بها (أت) مبينة (في وصايا المصطفى) عليه السلام (توفي الردا) أي تحفظ من الوقوع في المحذور، وهي كثيرة جداً منها: أن لا يغار على قوم حتى يدعوهم إلى الإسلام، ولا يقتلوا طفلاً ولا عجوزاً ولا امرأة، ولا يحرقوا شجراً، وغير ذلك من آداب الحرب التي تراعى؛ لأنهم دعاة سلام لا دعاة حرب وقتال. وقد أشار الناظم إلى مفهوم الغزوات التي قدمنا بقوله (وغزا المختارُ بالأصحاب) وهنا أظهر أن معنى الغزوة هي التي حضرها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإن لم يباشر القتال فيها كما قد أسلفنا وهذه الغزوات التي قام بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانت تهيئةً لدين الله تعالى لذلك خرج صلى الله عليه وآله وسلم (في غزواتٍ قد توالّت عددا) وقد ذكرناها إجمالاً وسنبينها مفصلة مع ذكر الناظم في نظمه لأمّاتها.

وبعد ما قدمنا من مفهوم الجهاد وحكمه وأسبابه ودواعيه، وأنه لم يُؤمر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في مكة لعدم تمكنهم في

الأرض بدولة، وبعد استقرارهم في المدينة وبناء دولتهم فيها وخروجهم من مكة وتركهم للأهل والأموال ومصادرة قریش لأموالهم بل ووصول أذاهم وإرحافهم بالمسلمين إلى المدينة المنورة ومع ما تقدم من [كفار¹] مكة من التنكيلات والويلات ضد المسلمين وما فعلوا بهم عند الهجرة مما استحقوا لأجلها المصادرة والقتال، إلا أنهم لم يكونوا ليفيقوا من غيهم، ويمتنعوا عن عدوانهم، بل زادهم غيظاً أن فاتهم المسلمون ووجدوا مأمناً ومقراً بالمدينة، فكتبوا إلى عبد الله بن أبي بن سلول وكان إذ ذاك مشركاً بصفته رئيس الأنصار قبل الهجرة . فمعلوم أنهم كانوا مجتمعين عليه، وكادوا يجعلونه ملكاً على أنفسهم لولا أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وآمنوا به . كتبوا إليه وإلى أصحابه المشركين يقولون لهم في كلمات باتة إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم.

وبمجرد بلوغ هذا الكتاب قام عبد الله بن أبي ليمثثل أوامر إخوانه المشركين من أهل مكة . وقد كان يحقد على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لما يراه أنه استلبه ملكه . يقول عبد الرحمن بن كعب: فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم لقيهم، فقال: لقد بلغ وعيد قریش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم فلما سمعوا ذلك من النبي صلى الله عليه وآله وسلم تفرقوا.

الرحيق المختوم للمباركفوري ص 186."1"

امتنع عبد الله بن أبي بن سلول عن إرادة القتال عند ذاك، لما رأى خوراً أو رشداً في أصحابه، ولكن يبدو أنه كان متواطئاً مع قريش، فكان لا يجد فرصة إلا وينتهزها لإيقاع الشر بين المسلمين والمشركين، وكان يضم معه اليهود، ليعينوه على ذلك، ولكن تلك هي حكمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي كانت تطفئ نار شرهم حيناً بعد حين.

إعلان عزيمة الصد عن المسجد الحرام:

ثم إن سعد بن معاذ انطلق إلى مكة معتمراً فنزل على أمية بن خلف بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت فخرج به قريباً من لقف النهار فلقيهما أبو جهل فقال يا أبا صفوان من هذا معك؟ فقال هذا سعد فقال له أبو جهل ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد آويتم الصبابة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً، فقال له سعد ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه، طريقك على أهل المدينة.

قريش تهدد المهاجرين:

ثم إن قريشاً أرسلت إلى المسلمين تقول لهم: لا يغرنكم أنكم أفلتتمونا إلى يثرب سنأتاكم فنستأصلكم ونبيد حضراءكم في عقر داركم. ولم يكن هذا كله وعيداً مجرداً فقد تأكد عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مكائد قريش وإرادتها على الشر ما كان لأجله لا يبيت إلا ساهراً أو في حرس من الصحابة فقد روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقدمه المدينة ليلة فقال ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يجرسني الليلة قالت: فبينما نحن كذلك

سمعنا خشخشة سلاح، فقال من هذا؟ قال سعد بن أبي وقاص فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما جاء بك؟ فقال وقع في نفسي خوف على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجئت أحرسه فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم نام.

ولم تكن هذه الحراسة مختصة ببعض الليالي بل كان ذلك أمراً مستمراً فقد روى عن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحرس ليلاً حتى نزل (والله يعصمك من الناس) فأخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأسه من القبة فقال يا أيها الناس انصرفوا عني فقد عصمني الله عز وجل.

ولم يكن الخطر مقتصراً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بل على المسلمين كافة، فقد روى أبي بن كعب قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه المدينة وآوهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه] اهـ وقد مر معنا وذكرناه هنا كالخلاصة لما أسلفنا.

ففي هذه الظروف الحالكة بالمسلمين والخطيرة على مجتمعهم الجديد الذي يهدد كيانه من قبل الكفار أنزل الله الإذن بالقتال للمسلمين ولم يفرضه عليهم قال تعالى (أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) وكان هذا الإذن في حق المهاجرين وأما الإذن بالجهاد في حق الأنصار فقد نزل قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تَأْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَبِجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ثم أوجب الله ذلك على نبيه بقوله (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ

وَالْمُنَافِقِينَ وَاعْتَدُوا لِلْجِهَادِ وَاعْتَدُوا لِذَلِكَ تَحْرِكُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِلْإِسْتِعْدَادِ لِلْجِهَادِ وَإِعْدَادِ أَصْحَابِهِ لِهَذَا الْأَمْرِ فَأُولَ مَا ابْتَدَأَ بِهِ عَقْدَ مَعَاهِدَاتِ الْحَلْفِ أَوْ عَدَمِ الْإِعْتِدَاءِ مَعَ الْقَبَائِلِ الَّتِي كَانَتْ مَجَاوِرَةً لِلْمَدِينَةِ وَالْقَبَائِلِ الَّتِي بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالطَّرِيقِ الَّتِي تَسْلُكُهَا قَوَافِلُ قَرِيشٍ لِلتَّجَارَةِ فِي الشَّامِ وَلِذَلِكَ نَرَاهُ عَقْدَ مَعَاهِدَةٍ حَلْفٍ أَوْ عَدَمِ اعْتِدَاءٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جِهَيْنَةَ قَبْلَ الْبَدْءِ بِالنَّشَاطِ الْعَسْكَرِيِّ وَكَانَتْ مَسَاكِنُهُمْ عَلَى بَعْدِ ثَلَاثِ مَرَاحِلٍ مِنَ الْمَدِينَةِ الْمَنُورَةِ وَعَقْدَ مَعَاهِدَاتٍ فِي أَثْنَاءِ غَزَوَاتِ وَسْرَايَا سَنَدِكْرَهَا فِي مَوْقِعِهَا.

ثم بدأ بالغزوات والسرايا وقد جرت عادة المحدثين وأهل السير في اصطلاحاتهم غالباً أن يسموا كل عسكر حضره النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه الكريمة غزوة وما لم يحضره بل أرسل بعضاً من أصحابه إلى العدو سرية وبعثاً وخرج بقولهم غالباً غير الغالب فإنهم قد يسمون بعض السرايا غزوة كقولهم غزوة مؤتة وغزوة ذات السلاسل لذلك قال الناظم تولاه الله في الدارين (والسرايا) التي بعثها عليه الصلاة والسلام ولم يكن هو فيها (عشرات) قيل إنها سبع وأربعون سرية وقيل إنها تزيد على السبعين سرية كلها (جُهِّزَتْ) من قبله عليه الصلاة والسلام وعقد الألوية لأصحابها (في سبيل الله) أي لقتال عدوه ونصرة دينه وإعزاز كلمته فمن أجل ذلك كانت هذه السرايا (تجلي الأودا) أي أبعدت الضعف الذي كان معشعشاً في أذهنة كفار مكة عندما كانوا يذيقون المؤمنين أنواع العذاب وتبدد ما كان في خواطرهم من ضعف النبي وأصحابه وتثبت في ذهن غيرهم من الكفار المحيطين بالمدينة مدى قوة هذه الدولة الفتية التي بدأت طلائعها تثبت وترسخ وجودها وقوتها وبذلك يكونوا قد أخافوا الكفار وجعلوهم يحسبون لهم ألف حساب. و(حاربوا الكفر) في

مصادر عيشه وهددوه في تجارته ومصدر عصب حياته وقوته (وأبَلُوا) البلاء الحسن عند مواجهة الكفار وإن كانوا أضعافهم (حيثُما بُعِثُوا) أي في أي مكان وجهوا إليه كل ذلك يفعلونه (في الله) أي في سبيل الله ونصرة دينه (ما خَافُوا الرَّدَى) أي غير آبهين للموت؛ لأنهم خرجوا لنصرة الله ورسوله ودينه وسيظهر ذلك في الحديث عن السرايا وكم ثبتوا فيها وفي الغزوات وكم أبلوا فيها بلاء حسناً.

ونذكر السرايا والغزوات التي حدثت قبل بدر الكبرى وكأن ما تقدم على غزوة بدر من السرايا والغزوات كالتمهيد لها يقول سيدي أحمد زيني دحلان في سيرته: (وأول ما ابتدأ به صلى الله عليه وآله وسلم التعرض لعير قريش لأخذ ما فيها ليكون ذلك سبباً لافتتاح القتال ولتقوى قلوب أصحابه على القتال شيئاً فشيئاً وينتفعوا بما يحصل لهم من الغنائم التي يغنموها من تلك العير فيستعينوا بها) اهد قلت وليحصل لهم بعض ما صادره عليهم كفار قريش بعد هجرتهم من الأموال.

فكان أول بعوثه وسراياه صلى الله عليه وآله وسلم:

سرية سيف البحر في شهر رمضان في السنة الأولى للهجرة وقيل في ربيع في السنة الثانية للهجرة أمر فيها صلى الله عليه وآله وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وأمره على ثلاثين رجلاً من المهاجرين يعترض عيراً لقريش جاءت من الشام وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص فالتقوا واصطفوا للقتال فمشى بينهم مجدي بن عمرو الجهني وكان حليفاً للفريقين جميعاً وحجز بينهم فلم يقتتلوا وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مجدي: أنه ميمون النقية مبارك الأمر أو رشيد الأمر.

ولما قدم رهط مجدي هذا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما بعد كساهم، ومجدي لا يعرف له إسلام، وكان لواء حمزة رضي الله عنه أول لواء عقده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الإسلام وكان أبيض وكان حامله أبا مرثد كناز بن حصين الغنوي.

سرية عبيدة بن الحرث بن المطلب بن عبد مناف إلى بطن رابغ وكانت في شوال في السنة الأولى من الهجرة وأمره على ستين رجلاً كلهم من المهاجرين وقيل ثمانين ليس فيهم أحد من الأنصار، يلقي أبا سفيان بن حرب وكان في مائتي رجل فلما التقوا لم يقع بينهم قتال إلا أن سعد بن أبي وقاص رمى فيه بسهم فكان أول سهم رمي به في الإسلام وقيل أنه نثل كنانته وتقدم أمام أصحابه فرمى بما في كنانته وكان بها عشرون سهماً ما من سهم إلا ويخرج إنساناً أو دابة ثم انصرف بعضهم عن بعض وللمسلمين قوة وشوكة، وفر من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو وعتبة بن غزوان وكانا مسلمين خرجا مع الكفار ليكون ذلك وسيلة للوصول إلى المسلمين وكان لواء عبيدة أبيض وحامله مسطح بن أثاثة بن المطلب بن عبد مناف.

سرية سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إلى الحِزَارِ بجاء معجمة مفتوحة وراء مشددة مفتوحة وهو موضع بالقرب من الجحفة وكان ذلك في ذي القعدة في السنة الأولى للهجرة في عشرين رجلاً من المهاجرين يعترض عير قريش وأمره ألا يجاوز الحِزَارِ فخرجوا مشاة ووصلوا الحِزَارِ صبح خامسة من خروجهم من المدينة فوجدوا العير قد مرت بالأمس فرجعوا ولم يلقوا كيداً وكان لواء سعد رضي الله عنه أبيض وحمله المقداد بن عمرو.

ثم نذكر هنا أول غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

وهي:-

غزوة وُدَّان بفتح الواو وتشديد الدال وهي قرية جامعة من أعمال الفرع وبعضهم يسميها غزوة الأبواء، والأبواء وودَّان متقاربان في وادي الفرع لذلك أضافها بعضهم للأبواء وبعضهم لودَّان.

ومعرفة مغازيه وسراياه أمر مهم تحصيله وتعليمه [قال الزهري⁽¹⁾ في علم المغازي خير الدنيا والآخرة وقال زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهم كنا نعلم مغازي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما نعلم السورة من القرآن وعن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كان أبي يعلمنا المغازي والسرايا ويقول: يا بني إنها شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها].

وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة وُدَّان بنفسه واستخلف على المدينة سعد بن عبادة وكان خروجه في صفر في السنة الثانية للهجرة في سبعين رجلاً من المهاجرين يعترض عيراً لقريش حتى بلغوا وُدَّان فلم يلق كيداً وفيها عقد معاهدة مع عمرو بن مخشى الضمري وكان سيد بني ضمرة في وقته ونص المعاهدة (هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله ما بلَّ بحر صوفه وإن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه). وكان اللواء في تلك الغزوة أبيض وحامله سيدنا حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

(1) انظر سيرة دحلان.

غزوة بواط في شهر ربيع الأول في السنة الثانية للهجرة خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مائتين من أصحابه يعترض عيراً لقريش فيها أمية بن خلف الجمحي ومائة رجل من قريش وألفان وخمسمائة بعير، فبلغ بواطاً من ناحية رضوى ولم يلق كيداً، واستخلف في هذه الغزوة سعد بن معاذ واللواء كان أبيض وحامله سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

غزوة سفوان وتسمى بدر الأولى في شهر ربيع الأول وذكر ابن هشام أنها وقعت بعد غزوة العشيرة إذ كانت في آخر جمادى الآخرة في السنة الثانية للهجرة أغار كرز بن جابر الفهري . وكان من رؤساء المشركين ثم أسلم واستشهد في فتح مكة . على مراعي المدينة ونهب بعض المواشي فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سبعين رجلاً من أصحابه لمطاردته حتى بلغ وادياً يقال له سفوان من ناحية بدر ولكنه لم يدرك كرزاً وأصحابه فرجع دون حرب وهذه الغزوة تسمى بغزوة بدر الأولى.

غزوة العشيرة بضم العين المهملة مصغراً وبالشين أو بالسين آخرها هاء منسوبة لموضع بني مدلج بينع خرج إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جمادى الأولى وقيل الآخرة على رأس ستة عشر شهراً من الهجرة في خمسين ومائة رجل وقيل في مائتي رجل من المهاجرين ومعهم ثلاثون بعيراً يعتقبونها، يعترضون عيراً لقريش ذاهبة إلى الشام وقد جاء الخبر بخروجها من مكة فيها أموال لقريش فبلغ إلى ذي العشيرة فوجد العير قد فاتته بأيام، وهذه هي العير التي خرج في طلبها حين رجعت من الشام صارت سبباً لغزوة بدر الكبرى، وفي هذه الغزوة عقد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معاهدة عدم اعتداء مع بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة، واستخلف على المدينة في هذه الغزوة أبا

سلمة بن عبد الأسود المخزومي وكان اللواء في هذه الغزوة أبيض وحامله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

تنبيه: بعض أهل السير مختلفين في تعيين شهر هذه الغزوة فلهذا فإن بعضهم يقدم غزوة العشيرة على غزوة سفوان.

سرية نخلة وهي سرية أمير المؤمنين عبد الله بن جحش الأسدي رضي الله عنه أحد السابقين إلى الإسلام واستشهد في أحد قال عليه الصلاة والسلام عندما أراد بعث هذه السرية: "الأبعثن عليكم رجالاً أصبركم على الجوع والعطش". فبعث عليهم عبد الله بن جحش وسماه عليه الصلاة والسلام أمير المؤمنين فهو أول من تسمى في الإسلام به، ولا ينافيه أن أول من تسمى به في الإسلام أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأنه أول من تسمى به من الخلفاء الراشدين، وقد كتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعبد الله بن جحش رضي الله عنه كتاباً حين أمره وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به ولا يستكره من أصحابه أحداً أي على السير معه، فلما سار يومين فتح الكتاب فإذا فيه: "إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بما قريشاً وتعلم لنا أخبارهم" فقال: سمعاً وطاعة، وأخبر أصحابه أنه نهاه أن يستكره أحداً منهم ولم يتخلف منهم أحد حتى إذا كانوا ببحران بفتح الباء وضمها أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرهما الذي كان يعتقبان عليه فتخلفا في طلبه ومضى عبد الله وأصحابه حتى نزلوا بنخلة يترصدون قريشاً فمرت بهم عيرٌ لقريش تحمل زيباً وأدماً وتجارة وفيها عمرو بن الحضرمي وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان فتشاور المسلمون وقالوا نحن في آخر يوم من رجب الشهر

الحرام فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم، ثم أجمعوا على اللقاء فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله وأسروا عثمان والحكم وأفلت نوفل، ثم قدموا بالعبير والأسيرين إلى المدينة، وقد عزلوا من ذلك الخمس وهو أول خمس في الإسلام، وأول قتيل في الإسلام، وأول أسيرين في الإسلام، وأنكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما فعلوه، وقال: "ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام" ووقف التصرف في العبير والأسيرين. وأكثر المشركون القيل والقال في المسلمين أنهم أحلوا القتال في الشهر الحرام حتى نزل قوله تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ).

وبعثت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في فداء الأسيرين وهما عثمان بن عبد الله المخزومي والحكم بن كيسان فقال عليه الصلاة والسلام: "لا نفديكما حتى يقدم صاحبان" يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان فقدم سعد وعتبة بعد أيام، وأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه وأقام عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى قتل يوم بدر معونة شهيداً وأما عثمان فلحق بمكة ومات بها كافراً.

وفي رجب من السنة الثانية حولت القبلة على رأس ستة عشر شهراً من الهجرة وكان من قبل يصلي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى بيت المقدس ويقول: "لو حولني ربي إلى الكعبة فأخا قبلة أبي إبراهيم" ولما حول إلى الكعبة أكثر اليهود في ذلك فنزل قوله تعالى (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ).

وفي شعبان من نفس السنة فرض صوم رمضان وفرضت صدقة الفطر وفي تلك السنة أي الثانية للهجرة في شعبان أيضاً وبعد وقعة سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه فرض على المسلمين القتال وأنزل في ذلك آيات بينات (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) وقوله تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَيْثُ نَفَقْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ، فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ).

غزوة بدر الكبرى ويقال لها العظمى ويوم وقعة بدر وهو يوم الفرقان المذكور في قوله تعالى (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّنَجُّمِ الْجُمُعَانِ) وسمي يوم الفرقان لأن الله تعالى فرق فيه بين الحق والباطل -وأشار الناظم- كان الله له لاسم آخر من أسماء ذلك اليوم بقوله (فببدر) أي غزوة بدر كانت (البطشة الكبرى) وقد ذكر الناظم ذلك إشارة لقوله تعالى: (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ) فهو يوم أعز الله فيه الإسلام ودمغ فيه الشرك مع قلة عدد المسلمين وقلة عتادهم وكثرة العدو واكتمال عتادهم وقد ذكر ذلك المولى في معرض الامتنان وليكون حافراً للمسلمين في سائر الأزمان أن النصر من عند الواحد الديان لا بكثرة العدد والعتاد قال تعالى (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ

أَذَلَّةً) أي قليل عددكم لتعلموا أنّ النصر إنما هو من عند الله لا بكثرة العدة والعدد.

وكان سبب هذه المعركة الفاصلة العير التي أفلتت من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه عندما كانت متوجهة إلى الشام بقيادة أبي سفيان فلما آن أوان رجوعها من الشام بعث عليه الصلاة والسلام طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى الشمال ليقوما باستطلاع خبرها فوصلا إلى الحوراء ومكثتا حتى مر بهما أبو سفيان بالعير فأسرعا إلى المدينة وأخبرا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والخبر وكانت العير محمّلة بثروات طائلة ولم يكن معها من الحرس إلا نحو أربعين رجلاً فقط، فعندها قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها، ولم يعزم على أحد بالخروج فخرج من خرج طواعية لأنهم عرفوا أنّ مقصد الخروج إلى العير لا للقتال مع كفار قريش وتخلف من تخلف ولم ينكر عليه تخلفه في هذه الغزوة لأن الوجهة كما أسلفنا الاستيلاء على العير ولم يعلم أحد بقتال.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً وقيل وأربعة عشر رجلاً وقيل وسبعة عشر رجلاً اثنان أو ثلاث أو ستة وثمانون رجلاً من المهاجرين وواحد وستون من الأوس ومائة وسبعون من الخزرج ولم يأخذوا أهبتهم في خروجهم ذلك كاملة حتى أنه لم يكن معهم إلا فرسان فرس للزبير بن العوام وفرس للمقداد بن الأسود الكندي وكان معهم سبعون بعيراً يعتقب الرجلان والثلاثة على بعير واحد، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيراً واحداً.

واستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم، فلما كان بالروحاء رد أبا لبابة بن المنذر واستعمله على المدينة.

وكان لواء الجيش قد جعله عليه الصلاة والسلام في يد مصعب بن عمير القرشي العبدري وكان هذا اللواء أبيض وقسم جيشه إلى كتيبتين كتيبة المهاجرين وأعطى علمها لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكتيبة الأنصار وأعطى علمها لسيدنا سعد بن معاذ وهذه أول غزوة يخرج فيها الأنصار مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأما ما تقدم من الغزوات والسرايا فلم يكن أحد منهم يخرج فيها لأنهم شرطوا له أن يمنعوه في دارهم ولم يذكر لهم وقت البيعة أنهم يخرجون من دارهم ليقاتلوا معه حتى جاء الأمر معهم بالتدريج ورضوا به وطابت به نفوسهم فقاتلوا معه بعد أن قام يستوثق من الناس وعنى الأنصار بذلك كما سيأتي في هذه الغزوة.

ثم إنه عليه الصلاة والسلام جعل على قيادة الميمنة الزبير بن العوام رضي الله عنه وعلى الميسرة المقداد بن عمرو، وكانت القيادة العامة بيده عليه الصلاة والسلام، ثم سلك بالجيش يريد بدرًا متعقباً غير أبي سفيان فلما قرب من الصفراء بعث إلى بدر من يأتيه بخبر العير وهما بسيس بن عمر الجهني وعدي بن أبي الزغباء الجهني.

وأما ما كان من أبي سفيان وعيره فإنه كان حذرًا غاية الحذر ويأخذ الحيلة في أمره ويبعث من يجس له الأخبار فلما علم بخروج النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه يطلبون العير أرسل الصريخ إلى مكة ليمنعوه والعير من النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه فاستأجر أبو سفيان ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة مستصرخاً لقريش بالنفير إلى عيرهم وخرج ضمضم ذلك إلى مكة

سريعاً وصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيده وقد جدع أنف بعيده وحول رحله وشق قميصه وهو يقول يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها الغوث الغوث. والمراد من قوله اللطيمة اللطيمة أي أدركوا اللطيمة والتي هي العير.

أهل مكة يتجهزون للخروج:

عندها تحفز الناس مسرعين للخروج وقالوا أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك فكانوا بين رجلين إما خارج بنفسه وإما باعث مكانه رجلاً وأوعبوا في الخروج فلم يتخلف من أشرفهم أحد سوى أبا هب فإنه عوّض عنه رجلاً وهو العاص بن هشام بن المغيرة كان عليه دين لأبي هب فقال له اخرج وديني لك.

وحشدت قريش ما حولها من القبائل ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بني عدي فلم يخرج منهم أحد، وخرجت قريش في نحو ألف وثلاثمائة مقاتل في بداية مسيرة ذلك الجيش ولما أجمع ذلك الجيش على المسير ذكرت قريش ما كان بينها وبين بني بكر من العداوة وخشيت أن تخلفها بني بكر في النساء والذراري وتضرهم من الخلف وكاد ذلك أن يثنيهم وعندها ظهر لهم إبليس اللعين في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي سيد بني كنانة فقال لهم أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه ووعدهم خروج بني كنانة خلفهم لنصرتهم وزين لهم ذلك كما قال تعالى: (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم) وعندها خرجوا من ديارهم كما قال تعالى: (بظراً ورتاء الناس ويصدون عن سبيل الله) وأقبلوا كما قال عليه الصلاة والسلام بحدهم وحديدهم يحادون الله ويحادون

رسوله. وكان تحركهم بسرعة فائقة تجاه بدر وسلكوا وادي عسفان ثم قديد ثم الجحفة وفي الجحفة تلقوا رسالة من أبي سفيان حيث أن أبا سفيان كان يسير بالعيبر في الطريق الرئيسي إلى جهة بدر ولكنه كان حذراً فضاغف من إرسال استكشافاته حتى أنه لما اقترب من بدر تقدم عيره فلقني مجدي بن عمرو وسأله عن خبر النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه وخروجهم فقال له ما رأيت أحداً أنكره إلا أني رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ثم استقيا ثم انطلقا فبادر أبو سفيان إلى موضع مناخهما فأخذ من أبعاد بعيريهما ففتته فإذا فيه النوى فقال هذه والله علامف يثرب فرجع إلى عيره سريعاً وحول اتجاهه نحو الساحل غرباً تاركاً الطريق الرئيسي الذي يمر ببدر على اليسار وبهذا نجح بالقاءلة وأرسل رسالته إلى قريش وهم بالجحفة . كما أسلفت . يأمرهم بالرجوع وهم الجيش بالرجوع ولكن الطاغية أبا جهل امتنع وقال والله لا نرجع حتى نرد بدرأ فنتقيم فيها ثلاثة أيام وننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب بمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً وهو الرياء الذي أشار إليه المولى سبحانه وتعالى في الآية المارة ولما بلغ أبا سفيان مقالة أبي جهل قال: هذا بغبي والبغبي منقصة وشؤم. وعلى رغم ما قاله أبو جهل أشار إليه الأخنس بن شريق بالرجوع فعصوه وكان الأخنس هذا قائد بني زهرة وحليفاً لهم لأنه ثقفي فقال لبني زهرة يا بني زهرة قد نجى الله أموالكم وخلص لكم صاحبكم مخزمة بن نوفل . فإنه كان في العير . وإنما نفرتم لتمنعه وماله فارجعوا فإنه لا حاجة لكم أن تخرجوا في غير منفعة دعوا ما يقول هذا . يعني أبا جهل . ثم خلا بأبي جهل وقال له أترى محمداً يكذب؟ أصدقني ليس بيني وبينك أحد فقال له أبو جهل: ما كذب محمد قط كنا نسميه الأمين لكن إذا كانت في بني عبد

المطلب السقاية والرفادة والمشورة ثم تكون فيهم النبوة فأى شيء يكون لنا ونحن معهم كفرسي رهان فرجع الأخنس ببني زهرة واغتبط بنو زهرة بعد برأى الأخنس بن شريق فلم يزل فيهم مطاعاً معظماً وأرادت بنو هاشم الرجوع فاشتد عليهم أبو جهل وقال والله لا تفارقنا هذه العصاة حتى نرجع وسار أبو جهل بمن معه من الجيش وكان قوامه ألف مقاتل بعد رجوع بني زهرة قاصداً بدرأ فواصل السير حتى نزل قريباً من بدر وراء كثيب يقع بالعدوة القصوى على حدود وادي بدر هذا ما كان من خير قريش وأما خير النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع أصحابه فإنهم لما علموا بخروج قريش استشار النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه في طلب العير وفي حرب النغير . أي القوم النافرين للحرب . وقال لهم إن الله وعدكم إحدى الطائفتين إما العير وإما قريش وكانت العير أحب إليهم ليستعينوا بما فيها من أموال على شراء الخيل والسلاح قال تعالى في بيان ذلك: (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين).

وبما أنه عليه الصلاة والسلام رأى أن اللقاء لا بد منه وأن كسر قريش لا بد منه لكي لا يتناول بها الأمر إلى غزو المدينة واجتثاث المسلمين منها إذا تركت دون لقاء دامٍ معها وأن ذلك مدعاة لتكالب المشركين المحيطين بالمدينة المتربصين بها الدوائر وكذلك من فيها من اليهود والمنافقين ونظراً لهذه الأمور أراد عليه الصلاة والسلام الاستيثاق من الذين خرجوا معه وقال لهم أشيروا عليّ أيها الناس خاصة وأنه قد تزعزع قلوب فريق منهم وخافوا اللقاء وهم الذين قال الله فيهم: (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون) يجادلونك في الحق بعد ما تبين لهم كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) فما

كان من قادة الجيش ورؤوسهم إلا أن قاموا وأحسنوا القول فممن قام وأحسن أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعمر بن الخطاب رضي الله عنه وقام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه. وبرك الغماد. موضع في الحبشة¹. فقال رسول الله خيراً ودعا له به وهؤلاء القادة كلهم من المهاجرين وهم أقلية في الجيش وأحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يعرف رأي الأنصار لأنهم كانوا يمثلون أغلبية الجيش ومع أن نصوص العقبة كما أسلفنا لم تكن تلزمهم القتال معه خارج المدينة فكان يقول "أشيروا عليّ أيها الناس". وفطن إلى ذلك قائد الأنصار وحامل لوائهم سعد بن معاذ فقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: "أجل". قال سعد: فقد آمننا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك عهدنا وموآثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً إنا لضبّر في الحرب صدق في اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله. وفي رواية: أن سعد بن معاذ قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لعلك تحشى أن تكون الأنصار ترى حقاً عليها ألا تنصرك إلا في ديارهم وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاطعن حيث شئت وصل حبل من شئت واقطع حبل من شئت وخذ من أموالنا ما شئت وأعطنا ما شئت وما

¹ قال السهيلي: وجدت في بعض كتب التفسير أنها مدينة الحبشة.

أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك. فسر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقول سعد ونشطه ذلك ثم قال: "سيروا وأبشروا فإن الله تعالى وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم".

وسار عليه الصلاة والسلام بالجيش حتى يسبق المشركين إلى ماء بدر ويحول بينهم وبين الاستيلاء عليه فنزل أدنى ماء من مياه بدر وهنا قام الحباب بن المنذر قائلاً: يا رسول الله أرايت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: "بل هو الرأي والحرب والمكيدة". قال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فأنهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم . أي قريش . فننزله ونغور . أي نخرب . ما وراءه من القلب ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "لقد أشرت بالرأي".

وكان عليه الصلاة والسلام قد بعث في مساء ذلك اليوم من يستكشف له خبر قريش وهم علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه ذهبوا إلى ماء بدر فوجدوا غلامين يستسقيان لجيش مكة فقبضوا عليهما وجاءوا بهما إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في الصلاة فاستخبروهما عن القوم فقالا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبي سفيان . لا تزال في نفوسهم بقايا أمل في الاستيلاء على القافلة . فضربوهما وأوجعهما حتى اضطر الغلامان أن يقولوا نحن لأبي سفيان فتركوهما ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من

صلاته قال لهم كالعاتب: "إذا صدقاكم ضربتوهما وإذا كذباكم تركتوهما صدقا والله إنهما لقريش" ثم سأهم عن عدد قريش فقالوا: لا ندري فسألهم كم جزور ينحرون كل يوم فقالوا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً فقال: "القوم بين ألف والتسعمائة". ثم قال لهم: "فمن فيهم من أشرف قريش"؟ قالوا: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو البحتري بن هشام وحكيم بن حزام ونوفل بن خويلد والحارث بن عامر وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام وأميمة بن خلف في رجال سميأهم. ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الناس فقال: "هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها". وأنزل الله المطر تلك الليلة فكان على المشركين وبالاً شديداً منعهم من التقدم وكان على المسلمين طلاً طهرهم به وأذهب عنهم رجس الشيطان وصلب به الأرض تحت أقدامهم وثبت به الأقدام وبعد نزول المطر وحصول ما حصل أشار سعد بن معاذ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيراً ودعا له بخير، وبنى المسلمون عريشاً على تل مرتفع يقع في الشمال الشرقي لميدان القتال ويشرف على ساحة المعركة. وقد بني موضعه مسجداً يقال له مسجد العريش موجود في الوقت الحاضر ..

وقد تم انتخاب فرقة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يجرسون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مركز قيادته. ثم عبأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جيشه ومشى في موضع المعركة وجعل يشير بيده قائلاً هذا مصرع فلان غدأ إن شاء وهذا مصرع فلان غدأ إن شاء وعدد مصارع القوم فما أخطأ أحد منهم مصرعه.

وبات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي إلى جذع شجرة هناك ويدعو وأنزل الله على المسلمين النعاس منه أمنة لهم حتى أصبحوا وفي ذلك يقول تعالى: (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام). واللييلة هذه كانت ليلة الجمعة السابع عشر من شهر رمضان في السنة الثانية من الهجرة وكان خروجه في اليوم الثامن أو الثاني عشر من نفس الشهر.

ولما أصبح الصبح وقد كانت قريش باتت بالعدوة القصوى أقبلت في كتائبها ونزلت من الكتيب على وادي بدر وأقبل منهم نفر على حوض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: "دعوه" فما شرب أحد منهم يومئذ إلا قتل سوى حكيم بن حزام فإنه لم يقتل وأسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وكان إذا جهد في يمينه يقول: لا والذي نجاني من يوم بدر. وبعثت قريش من يستطلع لها قوام الجيش الإسلامي وهو عمير بن وهب الجمحي فجال بخيله حول معسكر المسلمين فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون، ثم قال لهم بعد أن نظر أن لا كمين ولا مدد لجيش المسلمين: ما وجدت شيئاً ولكن رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا نواضح يثرب تحمل الموت الناقع قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً

منكم فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك، وعندها قامت معارضة أخرى ضد أبي جهل تحته على الرجوع بقريش قام بها حكيم بن حزام وكلم عتبة بن ربيعة ولكن عدو الله أبا جهل لم يرض إلا الحرب وبعدها طلع المشركون وتراءى الجمعان، وعندها قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني اللهم أحنهم الغداة"، وعدل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بطنه بن غزية خارجاً عن الصف فطعنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بطنه بالقدح وقال: "استو يا سواد" فقال سواد: يا رسول الله أوجعتني فأقديني فكشف عن بطنه صلى الله عليه وآله وسلم وقال: "استقد" فاعتنقه سواد وقبل بطنه فقال له عليه الصلاة والسلام: "ما حملك على هذا يا سواد؟" قال: يا رسول الله قد حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدي فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخير.

إصدار الأوامر من الرسول عليه الصلاة والسلام لجيشه:

لما تم تعديل الصفوف قال لهم: "لا تبدأوا القتال حتى آمركم به"، وقال لهم: "إذا أكتبوكم فارموهم واستبقوا نبلكم. أي لا ترموهم بجميع ما معكم من نبل. ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم" ثم رجع إلى العريش هو وأبو بكر خاصة وقام سعد بن معاذ بكتيبة الحراسة على باب العريش وأما ما كان من ناحية المشركين فقد استفتح أبو جهل في ذلك اليوم وقال: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرفه فأحنه الغداة اللهم أينما كان أحب إليك وأرضى عندك فانصره اليوم وفي ذلك نزل قوله تعالى: (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو

خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم ففتكم شيئاً ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين).

بداية المعركة:

اقتحم الأسود بن عبد الأسود المخزومي . وكان رجلاً شرساً سيئ الخلق . حوض النبي صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه فلما التقيا ضربه حمزة فأطن قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض فوقع على ظهره تشخب رجله دماً نحو أصحابه ثم جاء إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد أن يبر يمينه ولكن حمزة ثنى عليه بضربة أخرى أتت عليه وهو داخل الحوض.

المبارزة:

ثم بدأت المعركة بالمبارزة فبرز عتبة وأخوه شيبه ابنا ربيعة والوليد بن عتبة وطلبوا المبارزة فخرج إليهم ثلاثة من شباب الأنصار وهم عوف ومعوذ ابنا الحارث، وأمهم عفراء، وعبد الله بن رواحة ولكن لم يرضهم المبارزون من قريش وصرفوهم بقولهم: أكفاء كرام إنما نريد أبناء عمنا فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يخرج إليهم عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم وقد قتل هؤلاء الثلاثة النفر من قريش وقطعت رجل عبيدة ومات شهيداً بالصفراء ودفن فيها، وعندها هجم الكفار على المسلمين هجوماً عاماً بعد فقدهم لثلاثة من قادتهم وفرسانهم وأخلص المسلمون الدعاء وطلبوا النصر من ربهم.

و(عَدَا سَيْدُ الْكَوْنَيْنِ) عليه الصلاة والسلام (يَدْعُو) ويجهد في الدعاء لربه (الصَّمَدَا) طالباً منه النصر والمدد مع كونه (خَاشِعاً) متذلاً (لِلَّهِ) تعالى (يَرْجُو نَصْرَهُ) قائلاً: "اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك" مع كونه (رَافِعاً لِلَّهِ كَفْأً وَيَدَا) أي جاهداً شديد الجهد في الدعاء، ومن ضمن ما قاله (رَبِّ) أي يا رب (هَذي) إشارة إلى المسلمين في وقعة بدر (عَصْبَةُ الْإِسْلَامِ) أي أهل الإسلام (إِنْ هَلَكْتُ) أي إن قضيت عليها بالهلاك على يد أعدائك (فَالْخَوْفُ أَلَا تُعْبِدَا) فإنه قد ورد في بعض الروايات أنه قال عليه الصلاة والسلام: "اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإيمان اليوم فلا تعبد في الأرض".

وما زال عليه الصلاة والسلام يدعو ربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأخذ أبو بكر رضي الله عنه رداءه وألقاه على منكبيه ثم التزمه وفي رواية: قال له: يا نبي الله كفاك تناشد ربك فسينجز لك ما وعدك، وفي رواية: لينصرك الله وليبيض وجهك ثم أغفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إغفاءة واحدة ثم رفع رأسه، فقد (جَاءَهُ النَّصْرُ كَغَيْثٍ هَامِعٍ) أي كمطر مدرار متلاحق وهو تصوير لما رآه الرسول من نزول جبريل ومعه الملائكة كثيري العدد نصره للمؤمنين فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الصدد "أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع".

(وَأَتَى) جبريل ومعه (الْأَمْلَاقُ جَيْشاً مُسْنِدًا) لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه قاتلوا معهم في يوم بدر ف(حَضَرُوا الْأَعْنَاقَ) من المشركين (ضَرْبًا مُثْنِحًا) أي وأثخنوا في القتل فيهم و(قَطَعُوا كُلَّ بَنَانٍ قَدْ بَدَا) أي ظهر تمييزاً لمن قتله الملائكة من المشركين ممن قتلهم من غير الملائكة من

المسلمين وهو أول قتال تشترك فيه الملائكة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإنما كانت تحضر مع الأنبياء السابقين للتثبيت دون القتال ولم تقاتل في معركة بعد بدر بل تحضر فقط للتثبيت ولكون بدر أول معركة يقاتلون فيها علمهم الله ذلك بقوله: (فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) الآية.

وعندما رأى رسول الله عليه الصلاة والسلام الملائكة ومعهم جبريل خرج من العريش وهو يقول: (سيهزم الجمع ويولون الدبر) ثم أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشا وقال: "شاهت الوجوه" ورمى بها في وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينه ومنخره وفمه من تلك القبضة وفي ذلك أنزل (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى).

وأصدر النبي عليه الصلاة والسلام أمره لجيش المسلمين بالهجوم فشدوا على عدوهم وأيدتهم الملائكة وقاتلوا معهم ودارت الدائرة على كفار قريش، ولما رأى عدو الله إبليس ما وقع بالمشركين ورأى الملائكة تقاتل خشى على نفسه أن تطوله الملائكة بالقتل . وقد سبق أنه تمثل في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي . نكص على عقبيه وثبت به الحارث بن هشام وهو يظنه سراقه فوكز في صدر الحارث فألقاه ثم خرج هارباً وقال له المشركون إلى أين يا سراقه؟ ألم تكن قلت إنك جار لنا لا تفارقنا؟ فقال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ثم فر حتى ألقى نفسه في البحر وانتهت المعركة بنصر المسلمين وهزيمة الكفار وقتل سبعين من قريش وفيهم صناديدهم وقادتهم منهم أبو جهل وأميه بن خلف وغيرهم وأسر سبعين آخرين.

وقد ضرب المسلمون في هذه المعركة من روائع الإيمان أمثلة كثيرة نذكر منها تسعة ذكرها المباركفوري في كتابه بقوله: [1- روى ابن إسحاق عن ابن

عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه: "إني قد عرفت رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البحتري ابن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكراً"، فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس، والله لعن لقيته لأحمنه . أو لأجمنه . بالسيف، فبلغت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال لعمر بن الخطاب: "يا أبا حفص، أ يضرب وجه عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليه وآله وسلم بالسيف"، فقال عمر: يا رسول الله دعني فلا أضرب عنقه بالسيف فوالله لقد نافق. فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيداً.

2. وكان النهي عن قتل أبي البحتري، لأنه كان أكف القوم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو بمكة، وكان لا يؤذيه ولا يبلغ عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نقض صحيفة مقاطعة بني هاشم وبني المطلب. ولكن أبا البحتري قتل على رغم هذا كله، وذلك أن الجذر بن زياد البلوي لقيه في المعركة، ومعه زميل له، يقاتلان سوياً، فقال الجذر: يا أبا البحتري إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد نمانا عن قتلك، فقال: وزميلي؟ فقال الجذر: لا والله ما نحن بتاركي زميلك، فقال: والله إذن لأموتن أنا وهو جميعاً، ثم اقتتلا، فاضطر الجذر إلى قتله.

3. كان عبد الرحمن بن عوف وأمّية بن خلف صديقين في الجاهلية بمكة، فلما كان يوم بدر مر به عبد الرحمن، وهو واقف مع ابنه علي بن أمّية، أخذاً بيده،

ومع عبد الرحمن أدرع قد استلبها، وهو يحملها، فلما رآه قال: هل لك في؟ فأنا خير من هذه الأدرع التي معك، ما رأيت كاليوم قط، أما لكم حاجة في اللين؟ - يريد أن من أسرني اقتديت منه بإبل كثيرة اللين . فطرح عبد الرحمن الأدرع، وأخذهما يمشي بهما، قال عبد الرحمن: قال لي أمية بن خلف وأنا بينه وبين ابنه: من الرجل منكم المعلم بريشة النعام في صدره؟ قلت: ذاك حمزة بن عبد المطلب، قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل. قال عبد الرحمن: فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال معي، وكان أمية هو الذي يعذب بلالا بمكة، فقال بلال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجوت إن نجأ، ثم صرخ بأعلى صوته. يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجأ، قال: فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة، وأنا أذب عنه، قال: فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوقع، وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلها قط، فقلت: انج بنفسك، ولا نجأ بك، فوالله ما أغني عنك شيئاً. قال فهبروهما بأسياهم حتى فرغوا منهما، فكان عبد الرحمن يقول: يرحم الله بلالا، ذهبت أدراعي، وفجعني بأسيري. وفي زاد المعاد أن عبد الرحمن بن عوف قال لأمية: ابرك، فبرك، فألقى نفسه عليه، فضربوه بالسيف من تحته حتى قتلوه، وأصاب بعض السيف رجل عبد الرحمن بن عوف.

4- وقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومئذ خاله العاص بن هشام بن المغيرة.

5- ونادى أبو بكر الصديق رضي الله عنه ابنه عبد الرحمن . وهو يومئذ مع المشركين . فقال: أين مالي يا حبيث؟ فقال عبد الرحمن:

لم يبقَ غيرَ شَكَّةٍ وَيَعْبُوبُ وصارمٌ يَقْتُلُ ضَلَّالَ الشَّيْبِ

6. ولما وضع القوم أيديهم يأسرون، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في العريش، وسعد بن معاذ قائم على بابه يحرسه متوشحاً سيفه، رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس، فقال له: "والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم"؟ قال: أجل والله يا رسول الله. كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل بأهل الشرك أحب إلي من استبقاء الرجال.

7. وانقطع يومئذ سيف عكاشة بن محصن الأسدي، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأعطاه جذلاً من حطب، فقال: قاتل بهذا يا عكاشة، فلما أخذه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هزه، فعاد سيفاً في يده طويل القامة، شديد المتن أبيض الحديد، فقاتل به حتى فتح الله تعالى للمسلمين، وكان ذلك السيف يسمى العون، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد، حتى قتل في حروب الردة وهو عنده.

8. وبعد انتهاء المعركة مر مصعب بن عمير العبدي بأخيه أبي عزيز بن عمير الذي خاض المعركة ضد المسلمين، مر به وأحد الأنصار يشد يده، فقال مصعب للأنصاري: شد يديك به فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك، فقال أبو عزيز لأخيه مصعب: أهذه وصاتك بي؟ فقال مصعب: إنه . أي الأنصاري . أخي دونك.

9. ولما أمر بإلقاء جيف المشركين في القليب، وأخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب، نظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في وجه ابنه أبي حذيفة، فإذا هو كتيب قد تغير، فقال: "يا أبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء"؟ فقال: لا والله، يا رسول الله. ما شككت في أبي ولا مصرعه، ولكنني

كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزني ذلك. فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخير، وقال له خيراً^[أهـ].

انتهت معركة بدر بهذه النتيجة المرموقة والموفقة للمسلمين وبها عرف من حولهم مدى بروز دولتهم الفتية إلى عالم الظهور وأصبح القلق يجتث قلوبهم والحقد والغل والحسد على المسلمين ودولتهم يبرز جلياً واضحاً مما تظهر الأيام مكنوناته على ساحة الواقع وقد تغلغل ما ذكرناه في نفوس أولئك الذين منوا بخسائر فادحة مباشرة وهم المشركون في مكة ومن والاهم وكذلك الذين يرون انتصار المسلمين وعزتهم وغلبتهم أمراً قاصماً على كياناتهم الديني والاقتصادي وهم اليهود.

وكانت في المدينة فرقة أخرى توالي الفريقين وهم المنافقون وهذه الفرقة ليست بأقل غيظاً وحقداً من الفريقين والفرقة الرابعة هم البدو الضاربون حول المدينة والذين يخشون مصالحتهم في النهب والسلب أن تقطع عليهم بسبب نمو تلك الدولة فجعلوا يحقدون عليها وصاروا أعداء للمسلمين ولذا أخذت كل فرقة تكييد للمسلمين وتدبر المكائد وتدس الدسائس عند ذلك ظهرت قيادة الرسول عليه الصلاة والسلام الفذة وقيادته المؤيدة بالوحي وذلك بإرسال البعوث وخروجه في الغزوات التي كان لا بد منها لإرساء قواعد المهيبة والدفاع عن الدولة الناشئة وقمع الأخطار المحيطة بها وإخماد الدسائس ضدها وهي في حد ذاتها كانت ممهدة لغزوة أحد.

غزوة بني سليم بالكدر:

والكدر ماء من مياه بني سليم . بعد رجوعه صلى الله عليه وآله وسلم من غزوة بدر بسبع ليال أتاه خبير أن قبائل بني سليم من قبائل غطفان تحشد قواتها للغزو على المدينة فخرج إليهم مباغتاً لهم في شوال من السنة الثانية واستخلف في هذه الغزوة سباع بن عرفطة الغفاري على المدينة وابن أم مكتوم على الصلاة وحمل اللواء علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان أبيضاً وكان خروجه في مائتي راكب فلما بلغ إلى منازلهم في موضع يقال له الكدر فر بنو سليم وارتفعوا وتركوا في الوادي خمسمائة بعير قسمها النبي عليه الصلاة والسلام بعد إخراج الخمس فأصاب كل رجل بعيرين، وأصاب غلاماً يقال له يسار فأعتقه.

مؤامرة لاغتيال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحجر بعد وقعة بدر بيسير وحاكا مؤامرة لقتل النبي عليه الصلاة والسلام يقوم بها عمير ويتحمل صفوان دينه وعياله وسهل المهمة أن وهب بن عمير بن وهب كان أسيراً عند النبي عليه الصلاة والسلام فلما قدم المدينة بعد أن شحذ سيفه وسقاه سماً قال له النبي عليه الصلاة والسلام: "ما جاء بك يا عمير؟" قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه. قال: "فما بال سيف في عنقك؟" قال: قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئاً؟ قال: "اصدقني ما جئت له؟" قال: ما جئت إلا لذلك. قال: "بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت لولا دين عليّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني له والله حائل بينك وبين ذلك". قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد

كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان فوا الله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق، ثم تشهد شهادة الحق فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "فقهوا أحكام في دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره". وأما صفوان فكان يقول أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر وكان يسأل الركبان عن عمير حتى أخبره راكب عن إسلامه فحلف صفوان أن لا يكلمه أبداً ولا ينفعه بنفع أبداً ورجع عمير إلى مكة فأقام بما يدعو إلى الإسلام فأسلم على يديه ناس كثير "1".

غزوة بني قينقاع:

بضم النون وقيل بكسرهما وقيل بفتحها والضم أشهر تقدم أن النبي عليه الصلاة والسلام عقد مع اليهود معاهدة ولكن اليهود قوم غدر أصحاب دسائس ومكائد وغاضهم أكثر مما هم عليه نصره عليه الصلاة والسلام بيدر. فهذا شأس بن قيس من شيوخ يهود يؤجج فتنة بين الأوس والخزرج بأن دس لهم من يهود من يحرش بينهم ويذكرهم بالأيام الخاليات وكادت تكون فتنة حتى تنادوا لحمل السلاح في وجود بعضهم بعضاً لولا أن الرسول عليه الصلاة والسلام بعد علمه بأمرهم أتاهم فقال لهم: "الله الله، أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام أكرمكم به وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم"، فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وتعانقوا ثم انصرفوا مع رسول الله. وهكذا بقي اليهود يدبرون الكيد والمكر والدسائس للمسلمين ولما تفاقم أمرهم واشتد بغيتهم خاصة كما أسلفنا

أنظر سيرة ابن هشام. "1"

بعد نصر بدر جمعهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سوق بني قينقاع .
وذلك أن يهود بني قينقاع كانت منازلهم بطحاك مما يلي العالية وكانوا أشجع
اليهود وكانوا صاغة وكان حلفاء عبادة بن الصامت رضي الله عنه وعبد الله بن
أبي بن سلول . ولما جمعهم النبي ووعظهم ازدادوا بغياً وعدواناً .

روى أبو داود وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أصاب
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قريشاً يوم بدر وقدم المدينة جمع اليهود في
سوق بني قينقاع فقال: "يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم ما أصاب
قريشاً" قالوا: يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرأ من قريش كانوا
أغماراً لا يعرفون القتال إنك لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا
فأنزل الله تعالى: (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد قد
كان لكم آية في فتتين التقتا فتمتة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم
رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار). وبهذا
يكون اليهود قد أعلنوا الحرب ولكن الرسول والمؤمنون كظموا غيظهم وصبروا
حتى يأذن الله بأمر من عنده. ولكن اليهود ما لبثوا أن فعلوا فعلة شنيعة أنبأت
عن إعمالهم وبدتهم الحرب على المسلمين وذلك فيما رواه ابن هشام عن أبي
عون أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته في سوق بني قينقاع وجلست
إلى صائغ بما فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ إلى طرف
ثوبها فعمده إلى ظهرها . وهي غافلة . فلما قامت انكشفت سوؤتها فضحكوا بما
فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله . وكان يهودياً . وشدت
اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب
المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع.

وحينئذ استخلف النبي عليه الصلاة والسلام على المدينة أبا لبابة ابن المنذر وأعطى لواء المسلمين حمزة بن عبد المطلب وسار بأصحابه إلى بني قينقاع ولما رأوه تحصنوا في حصونهم فضرب عليهم الحصار وشدده عليهم وكان ذلك يوم السبت للنصف من شهر شوال في السنة الثانية للهجرة ودام الحصار خمسة عشر ليلة إلى هلال ذي القعدة وقذف الله في قلوبهم الرعب فنزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في رقابهم وأموالهم ونسائهم فأمر بهم فكتفوا، وحينئذ تبرأ منهم عبادة بن الصامت رضي الله عنه وهو حليفهم وتولاهم عبد الله بن أبي وقال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: يا محمد أحسن إلى موالي، فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكرر ابن أبي مقاتته فأعرض عنه فأدخل ابن أبي يده في جيب درع النبي عليه الصلاة والسلام فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أرسلني" وغضب رسول الله حتى رأوا لوجهه ظلالاً ثم قال: "ويحك أرسلني" ولكنه مضى على إصراره وقال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن إلى موالي أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود وتحصدهم في غداة واحدة إني والله امرؤ أخشى الدوائر.

فتركهم له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: "خذهم لا بارك الله لك فيهم" وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله: (فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة..) ثم أمر صلى الله عليه وآله وسلم أن يجلبوا من المدينة فأجلوا منها ونزلوا أذرعاً بأرض الشام فما لبثوا إلا قليلاً حتى هلكوا عن آخرهم بدعوته عليه الصلاة والسلام عليهم.

غزوة السويق:

لما أصاب قريشا في بدر ما أصابهم أراد أبو سفيان أن يعيد هيبة قريش ومكانتها عند العرب فحلف أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً فخرج في مائتي راكب ليبر بيمينه حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له نيب بينه وبين المدينة نحو بريد ولكنه لم يجرؤ على مهاجمة المدينة نهاراً فدخل ضواحي المدينة ليلاً في جنح الظلام مستخفياً فأتى حبي بن أخطب فاستفتح بابه فأبى وخاف أن يفتح له فانصرف إلى سلام بن مشكم . سيد بني النضير . فاستأذن عليه فأذن له فقراه وسقاه خمراً وأخبره بما استبطن من أخبار الناس ثم خرج أبو سفيان في ليلته تلك حتى أتى أصحابه فبعث رجالاً منهم فأغاروا على ناحية من المدينة يقال لها العريض فقطعوا وأحرقوا هناك أسواراً من النخل ووجدوا رجالاً من الأنصار وحليفاً له في حرث فقتلوهما وفروا راجعين إلى مكة .

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الخبر وكان ذلك في الثاني من ذي الحجة في السنة الثانية للهجرة فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع أصحابه مسارعاً لمطاردتهم وقد فر أبو سفيان ومن معه وكانوا يرمون ما معهم من السويق يتخفون به فتمكنوا من الإفلات وبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه إلى قرقرة الكدر ثم رجع وحمل المسلمون ما طرحه الكفار من سويقهم وسموا تلك الغزوة بغزوة السويق .

غزوة غطفان:

ويقال لها غزوة ذي أمّر بفتح الهمزة والميم وتشديد الراء وغزوة أثمار وهي بناحية نجد وكانت لثنتي عشرة مضت من ربيع الأول وقيل أنها في الحرم في السنة الثالثة للهجرة .

وسببها أن جمعاً كبيراً من بني ثعلبة ومحارب تجمعوا يريدون الإغارة على أطراف المدينة فندب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين وخرج في أربعمائة وخمسين مقاتلاً ما بين راكب وراجل واستخلف على المدينة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه.

وفي أثناء الطريق ظفر برجل منهم يقال له جبار من بني ثعلبة أسر وأدخل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودعاه للإسلام فأسلم فضمه إلى بلال يفقهه في دينه وصار هذا الرجل دليلاً للمسلمين إلى أرض العدو ولما علموا بقدوم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تفرقوا في رؤوس الجبال ووصل النبي عليه الصلاة والسلام وجيشه إلى مكان تجمعهم وهو الماء المسمى بذي أمّ وأقام هناك صفاً أكله من السنة الثالثة للهجرة أو قريباً من ذلك ليشعر الأعراب بقوة المسلمين ثم رجع إلى المدينة.

سرية محمد بن مسلمة:

وكانت لأربع عشرة ليلة مضت من ربيع الأول على رأس خمسة عشر شهراً مضت من الهجرة لقتل عدو الله كعب بن الأشرف اليهودي وكان هذا مؤذياً لرسول الله يهجوه ويحرض عليه وقد حرض كفار قريش عليه بعد بدر وعرض بنساء المسلمين في أشعاره ونقض بذلك عهده الذي عاهد عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فبعث له محمد بن مسلمة وأصحابه لقتله فقتلوه ولما علمت اليهود بمصرع طاغيتها دب الرعب في قلوبهم وتظاهروا بعد ذلك بإبقاء العهود واستكانوا.

غزوة بخران:

بفتح الباء وتضم وسكون الحاء موضع بناحية الفرع وتسمى غزوة بني سليم أيضاً وسببها أنه بلغه أن جمعاً كثيراً من بني سليم اجتمعوا ببحران فخرج إليهم في شهر ربيع الآخر في السنة الثالثة للهجرة في ثلاثمائة من أصحابه وجد في السير حتى بلغها وقد تفرقوا ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حرباً.

سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى القردة:

بفتح القاف وسكون الراء اسم ماء من مياه نجد وسببها أن قريشاً خافوا من طريقهم التي يسلكونها إلى الشام حين كان ما كان من وقعة بدر فسلكوا طريق العراق فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زيد بن حارثة رضي الله عنه في مائة راكب فلقاهم على ذلك الماء فأصاب العير وما فيها وهرب الرجال فقدم بالعير على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخمسها وقد وقعت هذه السرية في جمادى الآخرة في السنة الثالثة للهجرة.

غزوة أحد:

بعد هزيمة قريش في بدر تلك الهزيمة التي لم يتوقعوها كان الاستعداد منهم لخوض غمار معركة يدركوا بها ثأرهم ويطفئوا بها حقدهم وغلهم فقد اتفقوا على أن يقوموا بحرب شاملة ضد المسلمين تشفي غيظهم وبها يقتلعوا جذور المسلمين ويحرضوا على قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد توعد من توعد منهم بقتله عليه الصلاة والسلام ومنهم أبي بن خلف وكان عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وأبو سفيان بن حرب وعبد الله بن أبي ربيعة أكثر زعماء قريش نشاطاً وتحمساً لخوض المعركة وإشعال نار الحماس في قلوب قريش وأول ما فعلوه إزاء ما يريدون فعله أنهم احتجزوا العير التي كان قد نجا بها أبو سفيان

والتي كانت سبباً لمعركة بدر وقالوا للذين كانت لهم فيها أموال: يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرِك منه ثأراً فأجابوا لذلك فباعوها وكانت ألف بعير والمال خمسمائة ألف دينار وفي ذلك أنزل الله تعالى: (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون).

وحرضت قريش حلفاءها على الخروج معهم في هذه الغزوة واستعانوا بالشعراء يحرضون ويدكون نار العداوة في القلوب منهم الشاعر الذي منَّ عليه رسول الله في غزوة بدر وهو أبو عزة.

وكان من أعظم الناس وأشدهم تأليباً على المسلمين أبو سفيان خاصة بعد فشله الذريع في غزوة السويق ولما استدارت السنة كانت قريش قد استكملت عدتها وعتادها حتى أنه اجتمع لها من المقاتلين من قريش والحلفاء والأحابيش ثلاثة آلاف مقاتل وصحبوا معهم النساء في غزوتهم هذه ليكون ذلك أبلغ في استماتة الرجال دون أن تصاب حرماهم وأعراضهم وكان عدد النسوة خمس عشرة امرأة على رأسهم هند بنت عتبة وتحرك الجيش بعدده وعدته نحو المدينة وأرسل العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من يوصل الخبر وتفصيله إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة، عندها عبأ النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه استعداداً للقتال وقام عدد من الأنصار فيهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عباد بحراسة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكانوا يبيتون على بابه وعليهم السلاح وحرست مداخل المدينة خشية أن يؤخذوا على حين غرة وأما جيش مكة فتابع السير فلما وصلوا إلى الأبواء اقترحت هند بنت عتبة - زوج أبي سفيان - أن ينبش قبر

أم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لكن قيادة الجيش رفضوا ذلك وخشوا عواقبه الوخيمة وواصلوا السير حتى نزلوا قريباً من جبل أحد في مكان يقال له عينين . في بطن السبخة . فعسكر الجيش هناك يوم الجمعة السادس من شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة .

النبي يشاور أصحابه:

ولما علم بهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم شاور أصحابه وأخبرهم عن رؤيا رآها قال: "إني رأيت والله خيراً رأيت بقرأً يذبح ورأيت ذباب سفي ثلماً ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة" وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون وتأول ثلمة سيفه برجل يصاب من أهل بيته وتأول الدرع بالمدينة .

ثم عرض رأيه على أصحابه بالبقاء في المدينة والتحصن فيها وأنه إذا أقام المشركون بمعسكرهم أقاموا بشر حال ومن غير جدوى وإن دخلوا المدينة قاتلهم المسلمون في الأزقة وأفواه السكك والنساء من فوق البيوت وكان هذا هو الرأي .

ووافق على هذا الرأي عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين لا لشيء إلا لأنه مخلصه من القتال فيكون بعيداً عنه ولكن الله أبي إلا فضيحتة هو وأصحابه كما سيأتي . ولكن جماعة من فضلاء الصحابة وخاصة ممن لم يكتب له الخروج إلى بدر والقتال فيها أشار على النبي عليه الصلاة والسلام بالخروج إلى المشركين وألحوا على ذلك حتى قال قائلهم: كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله فقد ساقنا إليه وقرب المسير اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جنبنا .

وكان في طليعة هؤلاء أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه حتى أنه قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: والذي أنزل عليك الكتاب لا أظعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة"¹.

فما كان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن جلس بالناس يوم الجمعة وأمرهم بالجد والاجتهاد وأخبر أن لهم النصر بما صبروا وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم ففرح الناس بذلك ثم صلى بالناس العصر واحتشد الناس في المسجد وحضر أهل العوالي ثم دخل بيته ومعه صاحبا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فعمماهم وألبساه فتدحج بسلاحه ولبس درعاً فوق درع وتقلد سيفه ثم خرج على الناس.

وفي أثناء دخوله عليه الصلاة والسلام إلى بيته وخروجه وانتظارهم كان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير قد أسفوا الناس على ما فعلوه من استكراههم رسول الله عليه الصلاة والسلام على الخروج فأجمعوا أن يردوا الأمر إليه عند خروجه عليهم فلما خرج قالوا له: يا رسول الله ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما شئت إن أحببت أن نمكث في المدينة فافعل فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ما ينبغي لني إذا لبس لامته . وهي الدرع . أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه" رواه أحمد وغيره.

وخرج بجيشه المكون من ألف مقاتل فيهم مائة دارع واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم على الصلاة وخرج السعدان أمام النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعدوان دارعين . أي لابسين درعيهما . وقد قسم النبي عليه الصلاة والسلام جيشه إلى ثلاث كتائب:

انظر السيرة الحلبية: "1"

كتيبة المهاجرين وأعطى لواءها مصعب بن عمير العبدري.

كتيبة الأوس وأعطى لواءها أسيد بن حضير.

كتيبة الخزرج وأعطى لواءها الحباب بن المنذر.

ولما جاوز ثنية الوداع رأى كتيبة حسنة التسليح منفردة عن سواد

الجيش فسأل عنها فأخبر أنهم قوم من اليهود من حلفاء الخزرج يرغبون المساهمة

في القتال ضد المشركين فسأل "هل أسلموا؟" فقالوا: لا فأبي أن يستعين بأهل

الكفر على أهل الكفر.

استعراضه عليه الصلاة والسلام لجيشه:

استعرض جيشه في مكان يقال له الشيخان فرد من استصغره ولم يره

مطيقاً للجهاد وكان ممن ردهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وأسامة بن زيد

وأسيد بن ظهير وزيد بن ثابت وزيد بن أرقم وعرابة بن أوس وعمرو بن حزم

وأبو سعيد الخدري وزيد بن حارثة الأنصاري وسعد بن حبة وأجاز رافع بن

خديج وسمرة بن جندب على صغر سنهما وذلك أن رافع بن خديج كان ماهراً

في رماية النبل فأجازه فقال سمرة أنا أقوى منه وإني لأصرعه فلما أخبر رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم أمرهما أن يتصارعا فصرع سمرة رافعاً فأجازه أيضاً.

دور زعيم المنافقين في التخذيل:

فلما قرب النبي عليه الصلاة والسلام وجيشه من العدو حتى أصبح

كل منهم يرى الآخر تجلى دور النفاق في التخذيل فقام عبد الله بن أبي قائل:

ما ندري علام نقتل أنفسنا.

ثم تظاهر بأن الرسول عليه الصلاة والسلام ترك رأيه ومال لرأي صغار

السن على حد قوله وانعزل ذلك المنافق وانعزل معه من كان على درب النفاق

ثلاثمائة وقد فعل ما فعل ذلك المنافق على مرأى من الجيشين ليقوي من عزيمته جيش الكفر ويوهن من عزيمته جيش الإسلام ويزعزع أفراده وقد كاد أن يفلح فقد همت طائفتان . بنو حارثة من الأوس وبنو سلمة من الخزرج . أن تفشلا وذلك بالانسحاب مع من انسحب ولكن الله تولاها فثبتتا بعد ما سرى فيهما الاضطراب وإليه الإشارة في قوله تعالى: (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون).

موضع الجيش الإسلامي في هذه الغزوة:

لقد وصل النبي عليه الصلاة والسلام بجيشه واختار له أفضل موقع حربي على الرغم من وصولهم بعد أن عسكر جيش الكفر فنزل عليه الصلاة والسلام بالجيش الشعب من جبل أحد في عدوة الوادي فعسكر بجيشه مستقبلاً المدينة وجاعلاً ظهره إلى هضاب جبل أحد وعلى هذا صار جيش العدو فاصلاً بين المسلمين وبين المدينة وحمل ميسرة جيشه وظهره بوضع الرماة على جبل يقع على الضفة الجنوبية من وادي قناة . وعرف فيما بعد بجبل الرماة . جنوب شرق معسكر المسلمين على بعد مائة وخمسين متراً من مقر جيش المسلمين.

وقد اختار لهذه المهمة خمسين من الرماة الماهرين وجعل قائدهم عبد الله بن جبير بن النعمان الأنصاري الأوسي ثم أصدر تعليماته لقائدهم بقوله: "انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك"، ثم قال للرماة: "احموا ظهورنا فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا" رواه أحمد والحاكم والطبراني وفي رواية للبخاري أنه قال: "إن رأيتمونا تحطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم وإن رأيتمونا هزمتنا القوم ووطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم".

ثم جعل على ميمنة جيشه المنذر بن عمرو وعلى الميسرة الزبير بن العوام يسانده المقداد بن الأسود وأوكل أيضاً إلى الزبير مهمة الصمود في وجه فرسان خالد بن الوليد وجعل في مقدمة الصفوف نخبة من شجعان المسلمين أهل النجدة والشجاعة.

ونهى الرسول عليه الصلاة والسلام الناس عن الأخذ في القتال حتى يأمرهم به وحثهم على الصبر والمصابرة والجلاد عند اللقاء وبث فيهم روح الحماسة حتى أنه جرد سيفاً ونادى أصحابه "من يأخذ هذا السيف بحقه؟" فقام إليه رجال ليأخذوه منهم علي بن أبي طالب والزبير وعمر بن الخطاب كل يقول أنا يا رسول الله فيمنعه منه فقام أبو دجانة سماك بن خرشة فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: "أن تضرب به وجوه العدو حتى ينحني" قال: أنا آخذه فأعطاه إياه وعندما دفعه إليه قال: "أخشى أن تقاتل به في الكيول" أي في مؤخرة الصفوف قال: بل في مقدمها. وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل حتى الموت فلما أخذ السيف عصب رأسه بتلك العصابة وجعل يتبختر بين الصفين وهو يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل

أن لا أقوم الدهر على الكيول أضرب بسيف الله والرسول

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تبختر أبي دجانة: "إنها

لمشية يبغضها الرب إلا في مثل هذا الموطن".

أبو سفيان وجيشه:

أما ما كان من المشركين فكانت القيادة العامة لأبي سفيان صخر بن حرب الذي تمركز في قلب الجيش وميمنة جيشهم خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل وعلى المشاة صفوان بن أمية وعلى رماة النبل عبد الله بن أبي ربيعة.

وأما اللواء فكان مع بني عبد الدار وكان في يد طلحة بن أبي طلحة العبدري وقد حضهم أبو سفيان وقال أنهم ما أتوا يوم بدر إلا من قبلهم حين أسر حامل لوائهم النضر بن الحارث وقال لهم: يا بني عبد الدار قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم إذا زالت زالوا فيما أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه. فبث فيهم الحماس وهووا به وتواعده بما سيراه منهم حتى أنهم ثبتوا في حمل اللواء حتى أبيدوا عن آخرهم وقد كانوا نحو عشرة.

بداية الحرب:

برز حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة وكان على جمل وكان من أشجع شجعان قريش يسميه المسلمون كبش الكتيبة يدعو للمبارزة فأجم . أي امتنع . عنه الناس لفرط شجاعته وبعد تكرار النداء منه للمبارزة برز إليه الزبير ولم يمهل بل وثب إليه وثبة الأسد حتى صار معه على جملة ثم اقتحم به الأرض فألقاه وذبحه بسيفه وكبر الرسول عليه الصلاة والسلام وكبر معه المسلمون وقال الرسول عليه الصلاة والسلام مخاطباً الزبير: "لكل نبي حواري وحواريي الزبير" ثم اندلعت نيران المعركة واشتد القتال في سائر اتجاهاتها وقد أبلى المسلمون بلاء حسناً ومن أبلوا البلاء الكبير حمزة بن عبد المطلب وأبو دجانة فقد هد صفوف المشركين هدأً حتى أن الزبير قال: وجدت في نفسي لما منعي رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم السيف وأنا ابن عمته وقتلت لأنظرن ما يفعل أبو دجانة فقال فجعل لا يلقي أحداً من المشركين إلا قتله.

مقتل أسد الله وأسد رسوله:

وقد وجد وحشي المستأجر لقتل حمزة فرصة غدر سائحة فقتل بها سيد الشهداء عندما دفع حرته من مكان كان يختبئ فيه وعلى الرغم من ذلك كان النصر حليف الجيش الإسلامي وقد صمد الأبطال على الرغم من تفوق جيش الكفر فممن أبلت البلاء الحسن كما أسلفت سيد الشهداء وعلي ابن أبي طالب وأبو دجانة وأبو بكر وعمر والزبير ومصعب بن عمير وطلحة ابن عبيد الله وعبد الله بن جحش وسعد بن معاذ وسعد بن عباد وسعد بن الربيع وأنس بن النضر وأمثالهم وثبت الرماة على الجبل وصدوا ثلاث غارات لفرسان المشركين حاولوا بها الوصول إلى ظهور المسلمين فلم يستطيعوا فلما صبر المسلمون في جلادهم وصدقوا¹ "الله أنزل الله نصره على المسلمين وصدقهم وعده فحسروهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر وكانت الهزيمة لا شك فيها روى عبد الله بن الزبير عن أبيه أنه قال: والله لقد رأيتني أنظر إلى قدم² . سوق . هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير ..

وفي حديث البراء بن عازب عند البخاري في الصحيح: فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتدون في الجبل يرفعن سوقهن قد بدت خلاخيلهن وتبع المسلمون المشركين يضعون فيهم السلاح وينتهبون الغنائم.

انظر سيرة ابن هشام. "1"
في نسخة: خدم. "2"

التحول الخطير في سير المعركة:

وأشار إليه الناظم بقوله (وكذا في أحدٍ) أي غزوة أحد (ما قد جرى) أي من الأمر الخطير الذي حدث وغير سير الأمور حتى حصل ما حصل (من بلائٍ) نزل بسبب مخالفة (سَام) أي أذاق (أصحاب الهدى) صلى الله عليه وآله وسلم (أدباً) وكان ذلك الأدب لمجموعهم (لَمَّا) خالفوا أمره و(تخلَّى نفرٌ) أي ذلك نفر الذين خصهم (من رماة الجيش) لما فارقوا (تلاً حُدُداً) لهم البقاء عليه من قبله صلى الله عليه وآله وسلم في حال النصر أو الهزيمة، وقد شدد عليهم في ذلك الرسول بعدم مفارقتهم لمكانهم، ولكنهم لما رأوا المسلمين ينهبون الغنائم قال بعضهم لبعض: الغنيمة الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنتظرون فحذرهم قائدهم مغبة المخالفة وذكرهم ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام ولكنهم غادروا قائلين: لنأتين الناس فلنصيبين من الغنيمة. وخرج أربعون منهم ولم يبق إلا عشرة ومعهم قائدهم وهكذا خلت ظهور المسلمين ووطن خالد بن الوليد الذي كان على فرسان المشركين لخلو الجبل من الرماة فالتف بجياله إلى مؤخرة جيش المسلمين وأباد من بقي من الرماة، وأتى المسلمين من خلفهم وصاح هو وفرسانه صيحة واحدة تنبه لها المشركون الفارون فعاودوا الكرة وأسرعت امرأة منهم . وهي عمرة بنت علقمة الحارثية . فرفعت لواء المشركين المطروح على التراب فالتف حوله المشركون وتنادوا للقتال والتفوا حول المسلمين وتصدع عسكر المسلمين واختلطت عليهم الأمور فقد أخذت طائفة منهم طريق الفرار وتركت ساحة القتال وانطلق بعضهم إلى الجبل وطائفة اختلطت بالمشركين والتبس العسكران، وصاح إبليس لعنه الله: أي

عباد الله أحرأكم فرجعت أولاهم فاقتلت بأحراهم فبصر حذيفة بأبيه فإذا هو بأبيه اليمان فقال أي عباد الله أبي أبي فما احتجزوا عنه حتى قتلوه.

(و) عند ذلك (ضِرَامُ الحربِ شَبَّتْ) على المسلمين (خَطْرًا) واضحاً

بما حدث لهم من ارتباك شديد وفوضى واسعة حتى كاد الكثيرون لا يدرون أين يتوجهون وكانت الدائرة على المسلمين ورياح النصر مع المشركين حتى (قَتَلُوا سبعين من جيشِ الفدا) أي الذي افتدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنفسهم وأموالهم.

(و) مما زاد الأمر سوءاً وتعقيداً عند الجيش الإسلامي أنه (تَنَادَى

المشركون) وصاحوا (فرحاً) بالنصر الذي قد رأوه تحصل أمامهم عندما صاح صائحهم قائلاً: (إِنَّ طَهَ مَاتَ) أي قتل بعد أن كروا على موقع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وظنوا أنهم قتلوه لما أنهم قتلوا مصعب بن عمير وكان إذا لبس اللامة يشبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. (و) تحقق (النصرُ) (وَحَدَا) أي أخذ يحدو قاتل ابن عمير بأنه قتل النبي عليه الصلاة والسلام عندها حصل الاستسلام الكامل من فرقة فألقوا أسلحتهم وفرقة دار بني خلدتها الاتصال بابن أبي لأخذ الأمان لهم وقد مر بهؤلاء أنس بن النضر وقد ألقوا بأيديهم فقال ما تنتظرون؟ فقالوا: قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء . يعني المسلمين . وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء . يعني المشركين . ثم تقدم فلقية سعد بن معاذ فقال: أين يا أبا عمر؟ فقال أنس: واهأ لريح الجنة يا سعد إني أحده دون أحد ثم مضى فقاتل القوم حتى قتل، ونادى ثابت بن الدحداح قومه فقال: يا

معشر الأنصار إن كان محمد قد قتل فإن الله حي لا يموت قاتلوا عن دينكم فإن الله مظفركم وناصركم فنهض إليه نفر من الأنصار فحمل بهم على كتيبة فرسان خالد فما زال يقاتلهم خالد حتى قتله خالد بالرمح وقتل أصحابه ومرو رجل من المهاجرين برجل من الأنصار يتشحط في دمه فقال يا فلان أشعرت بأن محمداً قد قتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل فقد بلغ فقاتلوا عن دينكم وبمثل هذه الروح ورفع المعنويات من المسلمين بعضهم لبعض عاد إليهم رشدهم وصوابهم فعدلوا عن فكرة الاستسلام أو الاتصال بابن أبي وأخذوا سلاحهم يهاجمون محاولين الوصول إلى مقر القيادة وقد بلغهم أن خبر مقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم كذب.

موقف الرسول عند نزول الهزيمة بأصحابه:

ولما حصل ما حصل بأصحابه (ورسول الله) عليه الصلاة والسلام (في موقعه) في تسعة نفر من أصحابه سبعة من الأنصار واثنتان من المهاجرين لم يتأخر عن موقعه ذلك شبراً واحداً بل ثبت ثبوت الجبال الراسخة (حاملاً سيف القتال أجرداً) مقاتلاً به عدوه قال سعد: ما زال صلى الله عليه وآله وسلم يرمي عن قوسه حتى صارت شظايا ويرمي بالحجر وكان أقرب الناس إلى القوم، وروى الحاكم في المستدرک عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما جال الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلك الجولة يوم أحد قلت: أذود عن نفسي فيما أن أستشهد وإما أن ألحق حتى ألقى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فينا أنا كذلك إذا برجل مخمر وجهه ما أدري من هو فأقبل المشركون حتى قلت قد ركبوه فمألاً يده من الحصى ثم رمى به في وجوههم فتنكبوا على أعقابهم القهقري حتى أتوا الجبل ففعل ذلك مراراً ولا أدري من هو وبينه وبينه

المقداد فبينما أنا أريد أن أسأل المقداد عنه إذ قال المقداد: يا سعد هذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعوك فقلت أين هو فأشار إليه فقمته وكأنه لم يصبني شيء من الأذى فأجلستني أمامه فجعلت أرمي وأقول اللهم سهمك فارم به عدوك ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "اللهم استجب لسعد اللهم سد رميته وأجب دعوته". وقد رفع صوته ينادي أصحابه "إيَّ عباد الله" وهو يعرف أن المشركين سيسمعون صوته قبل المسلمين فسيحيطون به ولكنه ناداهم مثبتاً لهم وثبت (حوله الأبطال من غضبته) أي من أصحابه ومنهم مصعب بن عمير حامل الراية فإنه قاتل دون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى قتل لما التف حوله المشركون يريدون قتله فأعطى الراية بعد مقتل مصعب علياً بن أبي طالب رضي الله عنه وعن جميع أصحاب رسول الله والعصبة التي أفرد فيها رسول الله في أول انكشاف المسلمين كما تقدم هم سبعة من الأنصار واثنان من المهاجرين (لم يزالوا) أي لم يتحركوا أو يدفعوا عن أماكنهم وموقفهم الذي وقفوا فيه (يدفعون الاعتداء) أي يردون اعتداء الكفار عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش فلما رهبوه . أي الكفار . قال مَنْ يرد عنا وله الجنة أو هو رفيقي في الجنة فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ثم رهبوه أيضاً فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لصاحبه . أي القرشيين . ما أنصفنا أصحابنا وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السكن قاتل حتى أثبتته الجراحة فسقط . وأما سعد فقد مر أنه رمى بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودعا له بتسديد الرمية واستجابة الدعوة ثم

إنه نثل له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كنانته وقال له ارم فداك أبي وأمي ولم يجمع أبويه لأحد غير سعد¹.

وأما طلحة بن عبيد الله فقد روى النسائي عن جابر قصة تجمع المشركين حول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه نفر من الأنصار قال جابر فأدرك المشركون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: "مَنْ للقوم" فقال: طلحة أنا ثم ذكر جابر تقدم الأنصار وقتلهم واحداً بعد واحد بنحو ما ذكرنا في رواية مسلم فلما قتل الأنصار كلهم تقدم طلحة قال جابر: ثم قاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه فقال: حس فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "لو قلت بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون" قال: ثم رد المشركين. ووقع عند الحاكم في الإكليل أنه جرح يوم أحد تسعاً وثلاثين أو خمساً وثلاثين وشلت إصبعه أي السبابة والتي تليها اهـ.

رجوع الصحابة بعد الصدمة:

وبعد أن تبين القوم كذبة قتله عليه الصلاة والسلام أصبحوا يبحثون عنه ويرجعون إليه يقول سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه كنت أول من ثار إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فرأيت بين يديه رجلاً يقاتل عنه ويحميه قلت: كن طلحة فداك أبي وأمي كن طلحة فداك أبي وأمي فلم أنشب أن أدركني عبيدة بن الجراح وإن هو يشد كأنه طير حتى لحقني فدفعنا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فإذا طلحة بين يديه صريع فقال عليه الصلاة والسلام: "دونكم أحاكم فقد أوجب من الأعداء" وقد اجتمع ممن اجتمع حوله بعد معرفة عدم قتله عصابة من أبطال المسلمين منهم أبو دجانة ومصعب

انظر الرحيق المختوم للمباركفوري. "1"

بن عمير وعلي بن أبي طالب وكان رضي الله عنه لم يفارقه بل هو حامل اللواء بعد مقتل مصعب بن عمير رضي الله عنه وسهل بن حنيف ومالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري وأم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية وقتادة بن النعمان وعمر بن الخطاب وحاطب بن أبي بلتعة وأبو طلحة رضوان الله عليهم أجمعين.

وقد تسابق هؤلاء في وقايتهم من الأعداء حتى أن أبا طلحة رضي الله عنه يسور نفسه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويرفع صدره ليقيه سهام العدو ورمى بين يديه وكان رامياً شديداً الرمي فنثر له النبي صلى الله عليه وآله وسلم كنانته وصار رضي الله عنه يقول نفسي لنفسك فداء ووجهي لوجهك وقاء فلم يزل يرمي وكسر في ذلك اليوم قوسين أو ثلاثة وصار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يشرف أي ينظر ليرى مواضع النبل فيقول له أبو طلحة يا نبي الله بأبي وأمي أنت لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم نحري دون نحرك وقام أبو دجانة أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فترس عليه بظهره والنبل يقع عليه وهو لا يتحرك. ورغم هذه التضحيات إلا أن المشركين كانوا يتدافعون إلى موقعه عليه الصلاة والسلام وأصحابه يذودون عنه ويقدمون أرواحهم دونه وأبدانهم قبله وقد استطاع المشركون أن يخلصوا إليه فقد رمي عليه الصلاة والسلام في وجنته حتى غابت حلقتان من حلق المغفر في وجنته نزعهما أبو عبيدة رضي الله عنه وسقطت ثنايا أبو عبيدة عند نزعه الحلقتين فكان أهتم حسن الهمم. وسقط عليه الصلاة والسلام في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق يكيدها فجحشت ركبته وأخذ علي رضي الله عنه بيده واحتضنه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً وعلاه ابن قمئة لعنه الله بالسيف فلم يؤثر السيف في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن ثقل السيف أثر في عاتقه

الشريف فشكا منه شهراً وقذف صلى الله عليه وآله وسلم بالحجارة حتى وقع على شقه.

(شَحَّ رَأْسُ الْمُصْطَفَى) عليه الصلاة والسلام وكان موضع الشج في جبهته شحه عبد الله بن شهاب الزهري وسال الدم على وجهه الشريف وكان عبد الله بن شهاب مشركاً يوم أحد ثم أسلم بعد ذلك وهشمت البيضة فوق رأسه الشريف (وَانْكَسَرَتْ رِجَّةُ الْأَسْنَانِ) أي ربايعته اليمنى (مِنْ ضَرْبِ الْعِدَا) له بالحجر وشقت شفته السفلى والذي رماه عتبة بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وكان حريصاً على قتل أخيه هذا لما رأى ما فعله بالرسول عليه الصلاة والسلام إلا أن حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه لما رأى ما فعله عتبة هذا بالنبي عليه الصلاة والسلام تبعه فضربه بالسيف حتى طرح رأسه ثم أخذ فرسه وسيفه وأتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "رضي الله عنك". وبعد ما تكامل عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم عدد لا بأس به من أصحابه بلغوا الثلاثين ولم يحقق الله مأرب هؤلاء الكفار فيما أرادوه من قتل نبيه عليه الصلاة والسلام وأنزل الله النعاس أمنة على هذه الطائفة بدأ النبي عليه الصلاة والسلام بتغيير موقعه فتراجع هو وأصحابه الذين معه إلى شق الجبل واشتد هجوم المشركين عليه لعرقلة ما أراد النبي عليه الصلاة والسلام إلا أن هجماتهم فشلت أمام بسالة الصحابة الكرام وتقدم عثمان بن عبد الله بن المغيرة نحو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول لا نجوت إن نجنا وقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمواجهة فعثر به أي بذلك المشرك فرسه في بعض الحفر فنازله

الحارث بن الصمة فضربه على رجله فأقعده ثم ذفف عليه وأخذ سلاحه والتحق بالرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه.

قال ابن إسحاق¹: "فلما أسند النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول أين محمد؟ لا نجوت إن نجأ، فقال القوم يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "دعوه" فلما دنا منه تناول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحربة من الحارث بن الصمة فلما أخذها منه انتفض انتفاضة تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض ثم استقبله وأبصر ترقوته من فرجة بين سابعة الدرع والبيضة قطعته فيها طعنة تدأداً . أي تدرج . منها عن فرسه مراراً فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشاً غير كبير فاحتقن الدم قال قتلني والله محمد قالوا له: ذهب والله فؤادك والله ما بك من بأس قال: إنه قد كان قال لي بمكة: "أنا أقتلك" فوالله لو بصق عليّ لقتلني فمات عدو الله بسرف وهم قافلون به إلى مكة.

وقال ابن إسحاق²: "أيضاً: . بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الشعب إذ علت عالية من قريش الجبل . يقودهم أبو سفيان ونخالد بن الوليد . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا" فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل.
فاطمة تضمّد جراح أبيها هي وزوجها:

انظر سيرة ابن هشام.¹
انظر سيرة ابن هشام وانظر سيرة دحلان.²

كان الإمام علي رضي الله عنه وأرضاه يسكب الماء وفاطمة عليها السلام تغسل الدم عن وجه المصطفى الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم فلما رأته فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها فألصقتها فاستمسك الدم.

المشركون والانسحاب المبكر:

أراد أبو سفيان ومن معه قطف ثمرة ما حصل في هذه المعركة فبادروا بالانسحاب متوجهين إلى مكة خوفاً من احتدام الحرب مرة أخرى وخوف أن تكون الجولة القادمة عليهم لا لهم ولأنهم لم يكونوا موقنين بقتل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بل يظنون ذلك فلما تكامل استعدادهم للانصراف أشرف أبو سفيان على الجبل نادياً أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه. وكان النبي عليه الصلاة والسلام منعهم من الإجابة، ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم فقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو الله إن الذين ذكركم أحياء أبقى الله ما يسوؤك فقال: قد كان فيكم مثله لم آمر بها ولم تسؤني. ثم قال: اعل هبل، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "ألا تجيبونه" فقالوا: فما نقول؟ قال: "قولوا: الله أعلى وأجل". ثم قال: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "ألا تجيبونه" قالوا: ما نقول؟ قال: "قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم". ثم قال أبو سفيان: أنعمت فعال يوم بيوم والحرب سجال فأجابه عمر فقال: لا سواء قتلتنا في الجنة وقتلاككم في النار، ثم قال أبو سفيان: هلم إليّ عمر، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أئنه فانظر ما شأنه" فجاءه فقال له أبو سفيان:

أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً؟ قال عمر: اللهم لا وإنه يستمع كلامك الآن قال: أنت أصدق عندي من ابن قمئة"1.

قال ابن إسحاق: "2" ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى إن موعدكم بدر العام القابل، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لرجل من أصحابه قل: "نعم هو بيننا وبينك موعد". ثم بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم في آثارهم وقال له: "أخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون؟ وما يريدون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة وإن كانوا قد ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة والذي نفسي بيده لئن أراوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزهم" قال علي فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة.

وكان من أعظم الأمور التي غاضت النبي عليه الصلاة والسلام ما حصل من قتل سيد الشهداء فقد (قَتَلَ الوَحْشِيَّ) وهو غلام جبير بن مطعم (فيها) أي في غزوة أحد (حمزة) وكان هو (أسد الله) وقد كان يقاتل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قتالاً شديداً بسيفين وهو يقول أنا أسد الله وقد قتل في ذلك اليوم أحد وثلاثين من شجعانهم وقد استشهد مع من استشهد رضي الله عنه في ذلك اليوم وهم سبعون شهيداً وحمزة رضي الله عنه (إمام الشهداء) وقد قتل حمزة رضي الله عنه طعيمة بن عدي يوم بدر فقالت ابنة طعيمة لوحشي إن قتلت محمداً أو علياً أو حمزة بأبي فأنت عتيق.

انظر ابن هشام. "1"

انظر ابن هشام. "2"

(و) قد (ابتلى الله العباد) المؤمنين في ذلك اليوم بما حصل لهم من انكسار وقتل (وقضى) الله (ما قضى) مما حصل ولا راد لقضائه وقد سلم الكثير بما وقع لأعزائهم في ذلك اليوم حتى أن امرأة¹ من بني دينار قد أصيب زوجها وأخوها وأبوها بأحد فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قالوا: خيراً يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه أنظر إليه، فأشير إليها حتى إذا رآته، قالت: كل مصيبة بعدك جليل . تريد صغيرة .. وجاءت إليه أم سعد بن معاذ² تعذو وسعد أخذ بلجام فرسه فقال: يا رسول الله أمني، فقال: "مرحباً بما" ووقف لها فلما دنت عزاها بابنها عمرو بن معاذ، فقالت: أما إذا رأيتك سالماً فقد اشتويت المصيبة . أي استقلتلتها ..

ودفن النبي عليه الصلاة والسلام الشهداء في موقع المعركة بل وأمر بمن أخذه أهله إلى المدينة بإرجاعه ودفنهم هناك ودعا لهم ورجع بعد ذلك إلى المدينة وهو وأصحابه في غاية التعب وباتوا وهم يجرسون أنقاب المدينة ويجرسونه عليه الصلاة والسلام ورغم ما أصابهم (و) ما قضاه الله عليهم في هذه الواقعة من قتل من قبل أهل الباطل إلا أنهم يعرفون أنه سيكون (الحقُّ أعلا سُوْدَدًا) أي سيادة ورفعة من الباطل فإنه وإن كان للباطل جولات فإن للحق جولة تدمغ الباطل وتزيله.

من الحكم والفوائد من غزوة أحد:

لقد اشتملت هذه الغزوة على حكم حجة وفوائد عدة قال الإمام ابن حجر العسقلاني: [قال العلماء: وكان في قصة أحد وما أصيب به المسلمون

¹ انظر ابن هشام.

² انظر ابن هشام.

فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة: منها تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية وشؤم ارتكاب النهي، لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم الرسول أن لا يبرحوا منه، ومنها أن عادة الرسل أن تبتلى وتكون لها العاقبة كما تقدم في قصة هرقل مع أبي سفيان، والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائماً دخل في المؤمنين من ليس منهم ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انكسروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب، وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفياً عن المسلمين، فلما جرت هذه القصة وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول عاد التلويع تصريحاً، وعرف المسلمون أن لهم عدواً في دورهم فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم.

ومنها أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضماً للنفس وكسراً لشماختها، فلما ابتلى المؤمنون صبروا وجزع المنافقون، ومنها أن الله هياً لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها، ومنها أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقها إليهم، ومنها أنه أراد إهلاك أعدائه فقيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك من كفرهم وبغيهم وطغيانهم في أذى أوليائه فمحص بذلك ذنوب المؤمنين ومحق بذلك الكافرين] اهـ.

غزوة حمراء الأسد:

- وهو اسم موضع على ثمانية أميال من المدينة . لما عاد عليه الصلاة والسلام وأصحابه من غزوة أحد والتي كانت صبيحة يوم السبت وكان مثخنأ وأصحابه من الجراح حتى أنه نزل لصلاة المغرب والعشاء متكئاً على السعدين رضي الله تعالى عنهما وبات الأنصار في تلك الليلة بالسلاح على باب رسول

الله صلى الله عليه وآله وسلم خوفاً عليه من العدو فلما طلع الفجر أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن قريشاً تعتزم العود لاستئصال من بقي، وكان صفوان بن أمية يأبى عليهم ويجذرهم مغبة العود، فلما علم النبي عليه الصلاة والسلام بذلك صلى الفجر وندب الناس إلى المسير وأمر من ينادي بذلك وكان ذلك صباح الغد من معركة أحد يوم الأحد الثامن من شهر شوال في السنة الثالثة للهجرة وقال: "لا يخرج معنا إلا من شهد القتال" أي يوم أحد فقال له عبد الله بن أبي: أركب معك؟ قال: "لا"، واستجاب له المسلمون وخرجوا معه على ما بهم من شدة الجراح وأنزل الله تعالى فيهم: (للذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرع للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم).

ولما وصل بهم حمراء الأسد وكان دليله ثابت بن الضحاك بن ثعلبة وأقبل عليه في حمراء الأسد معبد بن أبي معبد الخزاعي فأسلم وقيل كان على شركه وكانت خزاعة تميل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مشركهم ومسلمهم لما كان بين خزاعة وبني هاشم من الحلف وقال معبد هذا: يا محمد أما والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا أن الله أعلى كعبك وأن المصيبة كانت بغيرك، ثم أمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يلحق أبا سفيان فيخذله،

وأما ما كان من أبي سفيان وقومه فيأنهم قد عزموا على الرجوع إلى النبي عليه السلام وأصحابه ولم يكن يخالفهم إلا صفوان كما تقدم ولكنهم أبوا عليه وعزموا على الرجوع ووصل معبد الخزاعي إلى أبي سفيان وقومه وهم في الروحاء فقال له أبو سفيان وهو لم يدر بإسلامه: ما وراءك؟ قال: محمد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقاً وقد اجتمع

معه من كان قد تخلف عنه في يومكم وندموا على ما صنعوا، قال أبو سفيان: ويحك ما تقول، قال: والله ما أرى أن ترحل حتى ترى نواصي الخيل أو حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة، فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلنهم، قال: فلا تفعل فإني ناصح، فامتلاً أبو سفيان وجيشه رعباً وخارت العزائم وقرروا الانسحاب والرجوع إلى مكة ومر به ركب من عبد القيس يريد المدينة فقال: هل أنتم مبلغون مني محمداً رسالة وأوقر لكم راحلتكم هذه زيبياً بعكاظ إذا أتيتم إلى مكة، قالوا: نعم، قال: فأبلغوا محمداً أنا قد جمعنا الكرة لنستأصلننه ونستأصل أصحابه.

فمر الركب برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأبلغوا الرسالة (وقالوا إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو الفضل العظيم) وأقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحمراء الأسد يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء ثم رجع إلى المدينة وظفر قبل الرجوع إلى المدينة بأبي عزة الشاعر الذي منَّ عليه في بدر وعاهده أن لا يجرس عليه ولا يهجو ولا أحداً من المسلمين ثم عاد ونكث عهده فقتله صبراً ولما استعفاه قال له: "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين".

كما قتل جاسوس قريش وهو معاوية بن المغيرة بن أبي العاص جد عبد الملك بن مروان فإنه دخل المدينة قبل خروج الرسول عليه السلام والجيش إلى حمراء الأسد عيناً لقريش واستأمن بعثمان رضي الله عنه فأمنه النبي عليه السلام ثلاث ليالٍ إن لم يخرج منها فيها قتل فلما خرج الرسول عليه السلام إلى

حمراء الأسد بقي في المدينة ولما علم بعودة الرسول وأصحابه هرب فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زيد بن حارثة وعمار بن ياسر فتعقباه حتى قتلاه.

بعوثه وسراياه عليه الصلاة والسلام بين غزوة أحد وغزوة الخندق:

لا شك ولا ريب في أن انكسار المسلمين في أحد أدى إلى استجراء الأعداء المحققين بالمسلمين داخلاً وخارجاً وكان لا بد من عمل رادع جزاء ذلك الاستهداف يبقى للدولة الفتية مكانها وأن يحسب لها أعداؤها حساباً يمنعهم من الإقدام على ما يريدونه ويكيدونه لها فانطلقت هذه السرايا وهذه البعث في هذه الفترة لردع من سولت له نفسه الجرأة عليها عندما تحرك الأعداء لأجل الأغراض التي ذكرناها.

سرية أبي سلمة:

عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي وكانت قُطْن بفتح القاف والطاء جبل بناحية فَيْد بفتح الفاء وسكون الياء وهو اسم ماء لبني أسد بنجد وذلك أن أول من قام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد معركة أحد بنو أسد فقد علم النبي عليه الصلاة والسلام أن طلحة وسلمة ابني خويلد قد سارا في قومهما ومن أطاعهما يدعون بني أسد بن خزيمية إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فوجه إليهم أبا سلمة في مائة وخمسين من المهاجرين والأنصار في أول المحرم سنة أربع للهجرة فباغتهم أبو سلمة ومن معه في ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم فتشتت بنو أسد وأصاب المسلمون إبلاً وشاءً وعادوا ولم يلقوا كيداً. وفيها انبعث جرح أبي سلمة الذي أصابه بأحد فلم يلبث حتى مات.

بعث عبد الله بن أنيس:

وكان ذلك في اليوم الخامس من المحرم في السنة الرابعة للهجرة وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام علم بأن خالد بن سفيان الهذلي يحشد الجموع لحرب المسلمين فأرسل صلى الله عليه وآله وسلم عبد الله بن أنيس ليقتضي عليه فغاب عبد الله عن المدينة ثمان عشرة ليلة ثم عاد وقد قتل خالداً وأتى برأسه ووضعها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأعطاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم عصا وقال: "هذه آية بيني وبينك يوم القيامة" فلما حضرته الوفاة أوصى أن تجعل معه في أكفانه.

بعث الرجيع:

في شهر صفر في السنة الرابعة للهجرة قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوم عضل وقارة وذكروا أن فيهم إسلاماً وسألوه أن يبعث معه أحداً يعلمهم الدين ويقرئهم القرآن فبعث معهم ستة نفر وأمر عليهم عاصم بن ثابت وقال بعضهم أنه أمر مرثد بن أبي مرثد الغنوي وبقية الستة هم خبيب بن عدي الأوسي البدري وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق وخالد بن البكير فخرجوا مع القوم حتى أتوا الرجيع وهو ماء لهذيل بين جدة ورايح فغدروا واستصرخوا عليهم هذيلاً ليعينوهم على قتلهم فخرج إليهم حي من هذيل يقال لهم بنو الحيان فتبعوهم بما يقارب من مائة رام وأحاطوا بهم ولجأ عاصم وأصحابه إلى جبل فقالوا لهم لكم العهد والميثاق إن نزلتم لا نقتل منكم رجلاً فنزل إليهم على العهد والميثاق خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق وقال عاصم بن ثابت رضي الله عنه أيها القوم أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر عندها رماهم الكفار بالنبل ورماهم عاصم بنبله وكانت عنده سبعة أسهم فقتل بكل سهم رجلاً من عظمائهم ثم طاعنهم بالرمح حتى انكسر رمحه

فقاتلهم بالسيف. وقال اللهم إني حميت دينك صدر النهار فاحمي لحمي آخره عن أن يمثلوا به بعد القتل فقتلوا عاصماً وأطلقوا أوتار قسيهم فربطوا بها خبيباً وزيداً وعبد الله فقال عبد الله هذا أول الغدر لا أصحابكم إن لي بمؤلاء القتلى أسوة فعالجوه فلم يرض حتى قتلوه وانطلقوا بخبيب وزيد فباعوهما بمكة وكانا قتلا من رؤوسهم يوم بدر فأما خبيب فمكث عندهم مسجوناً ثم أجمعوا على قتله فخرجوا به من الحرم إلى التنعيم فلما أجمعوا على صلبه قال دعوني أركع ركعتين فصلاهما فلما سلم قال: والله لولا أن تقولوا: إن ما بي جزع لزدت. وهو أول من سن الركعتين عند القتل. ثم قال: اللهم احصهم عدداً واقتلهم بديداً ولا تبق منهم أحداً وأنشد أبياتاً فقال له أبو سفيان بعد أن وخزوه بالرماح وخزراً لا يؤدي للقتل وقبل أن يقتلوه: أيسرك أن محمداً عندنا نضرب عنقه وأنتك في أهلك؟ فقال: لا والله ما يسرنى أني في أهلي وأن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، ثم صلبوه ووكلوا به من يحرس جثته فجاء عمرو بن أمية الضمري فاحتال حتى احتمله ودفنه وقيل غير ذلك وكان الذي تولى قتل خبيب عقبة بن الحارث وكان خبيب قد قتل أباه يوم بدر. وأما زيد بن الدثنة فابتاعه من القوم الذين أتوا به صفوان بن أمية فقتله بأبيه.

وبعثت قريش إلى عاصم ليأتوا بشيء من جسده يعرفونه به وكان عاصم قد قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر. أي الزنابير- في أول النهار فحمته منه وأتى السيل في آخر النهار وحمله وغيب عنهم ولم يقدرُوا على شيء منه. وكان عاصم رضي الله عنه قد أعطى الله عهداً أن لا يمس كافراً ولا يمسه كافر. وكان عمر لما بلغه خبره يقول: يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه في حياته.

وقعة بئر معونة:

وفي نفس الشهر الذي وقعت فيه مأساة الرجيع وقعت مأساة أخرى وهي مأساة بئر معونة.

وملخص ما جاء فيها أن أبا البراء عامر بن مالك المدعو بملاعب الأسنة قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة فدعاه للإسلام فلم يسلم ولم يبعد فقال: لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك لرحوت أن يجيئوهم فقال: "إني أخاف عليهم أهل نجد" فقال أبو البراء: أنا جار لهم فبعث معه أربعين رجلاً وفي الصحيح أنهم كانوا سبعين وأمر عليهم المنذر بن عمرو أحد بني ساعدة وكانوا من خيار المسلمين فساروا يحتطبون بالنهار يشترون به الطعام لأهل الصفة ويتدارسون القرآن ويصلون بالليل حتى نزلوا بئر معونة ثم بعثوا حرام بن ملحان أخا أم سليم بكتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى عدو الله عامر بن الطفيل فلم ينظر فيه وأمر رجلاً فطعنه بالحربة من خلفه فلما أنفذها فيه ورأى الدم قال حرام: فزت ورب الكعبة. ثم استنفر عدو الله بني عامر إلى قتال الباقين فلم يجيئوه لأجل جوار أبي البراء فاستنفر بني سليم فأجابته عصية ورعل وذكوان. فجاؤوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد بن النجار فإنه ارتث من بين القتلى فعاش حتى استشهد يوم الخندق.

وقد تخلف عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن عقبة بن عامر في سرح المسلمين فلما رأيا الطير تحوم حول منزل المسلمين في مكان الواقعة بادروا بالذهاب فنزل المنذر لما رأى ما أصاب أصحابه وقاتل المشركين حتى قتل مع

أصحابه وأسر عمرو بن أمية الضمري فلما أخبر أنه من مضر جز عامر ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه ورجع عمرو إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم مخبراً له بما جرى، ولما كان في الطريق نزل في ظل شجرة وجاء رجلان من بني كلاب فنزلا معه فلما ناما فتك بهما عمرو وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه وإذا معهما عهد من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يعلم به فلما قدم أخبر النبي عليه الصلاة والسلام بما فعل فقال: "لقد قتلت قتيلين لأديتهما" وانشغل بجمع دياتهم من المسلمين وحلفائهم اليهود وبسبب هذه الديات صارت غزوة بني النضير كما سيأتي. وقد حزن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أصاب أصحابه في بئر معونة وفي الرجيع، حتى أنه أخذ شهراً يدعو في قنوته على رعل وذكوان ولحيان وعصية فأنزل الله قرآناً نسخ بعد ذلك وهو قوله تعالى: (بعد بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه) فترك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الدعاء عليهم.

غزوة بني النضير:

مر معنا في ما تقدم أن عمرو بن أمية الضمري قتل الكلابيين وأن النبي عليه الصلاة والسلام التزم بدفع الدية وخرج ومعه بعض أصحابه يستعين باليهود لما بينه وبينهم من المعاهدة والميثاق على مثل ذلك فكلّمهم فيما جاء له فقالوا له نفعل يا أبا القاسم اجلس هنا حتى تقض حاجتك فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا وجلس معه أبو بكر وعمر وعلي وطائفة من أصحابه.

واتفق اليهود فيما بينهم على قتله عليه الصلاة والسلام بأن يرمي أحدهم الرحي من أعلى البيت الذي يجلس تحته عليه الصلاة والسلام وانتدب

لهذه الفعلة أشقاهم وهو عمرو بن جحاش ونهاهم سلام بن مشكم وقال لهم أنه: سيخبر بذلك وأن هذا نقض للعهد الذي بيننا وبينه ولكنهم أبوا إلا ذلك. وأتى الوحي بالخبر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وقام مسرعاً ولحقه أصحابه وقالوا له: نهضت ولم نشعر بك فأخبرهم بما هممت به يهود أن يفعلوه وبعث إليهم محمد بن مسلمة يقول: لهم اخرجوا من المدينة ولا تسكنوني بها وقد أجلتكم عشراً فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه فأقام اليهود أياماً يتجهزون للرحيل إلا أن رأس المنافقين عبد الله بن أبي أرسل إليهم أن لا تخرجوا واثبتوا وتمنعوا في دياركم وأخبرهم أن معه ألفين يدخلون معهم لنصرتهم يقاتلون معهم ويموتون دونهم قال تعالى حاكياً ذلك عنهم: (لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتهم لننصرنكم..) وكذلك قال لهم: ستنصركم قريظة وحلفاءكم من غطفان. فطمع رئيسهم حبي بن أخطب فيما قاله رأس المنافقين فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما شئت. فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك كبر وكبر أصحابه ثم أمر بمناجزة القوم فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وسار إليهم وأعطى اللواء علي بن أبي طالب رضي الله عنه وفرض عليهم الحصار وتحصن بنو النضير في حصونهم فأقاموا عليها يرمون بالنبل والحجارة وكانت نخيلهم وبساتينهم عوناً لهم على ذلك فأمر النبي عليه الصلاة والسلام بقطعها وتحريقها وفي ذلك يقول حسان:

وهان على سراة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير

والبويرة اسم لنخل بني النضير وفي ذلك أنزل الله تعالى: (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله). وخانهم ابن أبي وحلفاءهم من

غطفان واعتزلتهم قريظة ولم يحاول أحد منهم دفع شر عنهم أو سوق خير إليهم، وفيهم نزل قوله تعالى: (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين). واستحکم عليهم الحصار ولم يطل بل بقي ست ليال فقط أو خمس عشرة ليلة وقذف الله في قلوبهم الرعب فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنهم يخرجون من المدينة فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذرائعهم وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح فنزلوا على ذلك وخرّبوا بيوتهم بأيديهم ليحملوا الأبواب والشبابيك ثم حملوا نساءهم وصبيانهم وتحملوا على ستمائة بعير فترحل أكثرهم وأكابهم كحيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق إلى خيبر وذهبت طائفة إلى الشام وأسلم منهم رجلان فقط وهما يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب فأحرزا أموالهما.

وكانت هذه الغزوة في ربيع الأول في السنة الرابعة للهجرة وأنزل الله في هذه الغزوة سورة الحشر وفيها بيان كافٍ لحال اليهود والمنافقين ومدح المهاجرين والأنصار.

غزوة نجد:

وقد خرج لهذه الغزوة في ربيع أو جمادى الأولى سنة أربع للهجرة بعدما حصل من غدر وخيانة لأصحابه صلى الله عليه وآله وسلم من قبل أولئك الأعراب ووصولهم إلى الحد الذي اجتروا فيه مثل هذا الاجتراء حتى تطاولوا وكادوا يقومون بغزو المدينة وبلغه أن الأعراب والبدو من بني محارب وبني ثعلبة من غطفان يفتشون للإغارة على المدينة فسارع إليهم وخرج في أصحابه يجوس فيافي وقفار نجد حتى سمع به أولئك فترفقا وقذف الرعب في قلوبهم إذ لم يسمع به منهم أحد إلا تفرق ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً وهذه الغزوة التي خرج

فيها إلى نجد غير غزوة ذات الرقاع لأن ذات الرقاع حضرها أبو هريرة وكان إسلام أبي هريرة بعد خيبر.

غزوة بدر الثانية:

وتسمى ببدر الموعد وبدر الآخرة وبدر الصغرى في شعبان في السنة الرابعة للهجرة خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لموعده الذي تم بينه وبين أبي سفيان في أحد في ألف وخمسمائة ومعه من الخيل عشرة أفراس وحمل اللواء فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة ووصل إلى بدر فأقام بها ينتظر المشركين وخرج أبو سفيان في ألفين من قريش ومعه خمسون فرساً حتى انتهى مر الظهران على بعد مرحلة من مكة فنزل بمحنة فخار عزمه هناك واحتمل للرجوع وقال لأصحابه: يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن وإن عامكم هذا عام جذب وإني راجع فارجعوا فرجع ورجعوا وأما النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه فأقاموا ببدر ثمانية أيام ينتظرون العدو وباعوا ما معهم من التجارة فربحوا بكل درهم درهماً وعادوا إلى المدينة.

غزوة دومة الجندل:

مكث في المدينة بعد بدر الصغرى ستة أشهر ووصلت إليه الأخبار بأن القبائل حول دومة الجندل . موضع قريب من الشام بينها وبين دمشق خمس ليال . تقطع الطريق وتنهب من يمر بها وأنها حشدت الجموع الكبيرة لغزو المدينة.

فخرج عليه الصلاة والسلام في ألف من المسلمين لخمس ليال بقين من ربيع الأول في السنة الخامسة للهجرة واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة

الغفاري وكان عليه الصلاة والسلام يسير الليل ويكمن النهار حتى يفجأ أعداءه فلما دنا منهم وجددهم مغربون فهجم على ماشيتهم ورعائهم فأصاب من أصاب وهرب من هرب في كل وجهة وبلغ الخبر أهل دومة الجندل فنزل بهم الرعب وتفرقوا في كل وجهة ونزل عليه الصلاة والسلام دومة الجندل فلم يلق فيها أحداً فأقام فيها أياماً وبعث السرايا وفرقها فرجعوا سالمين وأصابوا رجلاً من القوم فجاءوا به للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فسأله عنهم فقال هربوا حين علموا أنك أخذت نعمهم فعرض عليه الإسلام فأسلم ورجع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودخل المدينة في عشرين من ربيع الآخرة.

غزوة الخندق:

وتسمى غزوة الأحزاب وكانت في السنة الخامسة للهجرة في شهر شوال على أصح القولين.

وسبب هذه الغزوة أنه لما وقع إجلاء بني النضير بدأ تأمر اليهود على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه فتآمر نفر منهم على أن يؤلبوا الناس على حرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخرج منهم نفر لذلك الغرض منهم سلام بن مشكم وابن أبي الحقيق وحيي بن أخطب حتى قدموا مكة على قريش فقالوا لهم: إنا سنكون معكم على محمد حتى نستأصله، ولما سألتهم قريش أدينهم خير أم دين محمد فشهدوا عندهم أن دين قريش خير من دين محمد فأنزل الله فيهم: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له ولياً ولا نصيراً). وسرت قريش بمقالة اليهود لعنهم أنهم أهل كتاب كما قالوا لهم عند سؤالهم ذلك واتفقوا على

وقت يخرجون فيه ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان ودعواهم إلى ما دعوا إليه قريش وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه وأن لهم تمر خبير سنة إن هم نصرورهم فاستجابوا لهم وحددوا موعد الخروج وطاف ذلك النفر على قبائل العرب واستجاب لهم من استجاب.

وهكذا خرجت قريش وكنانة وحلفاؤهم من أهل تامة في أربعة آلاف وقائدهم أبو سفيان وصاحب اللواء فيهم عثمان بن أبي طلحة، ووافاهم بنو سليم بمر الظهران وخرجت من الشرق قبائل غطفان بنو فزارة يقودهم عيينة بن حصن وبنو مرة يقودهم الحارث بن عوف وبنو أشجع يقودهم سعد بن رخيصة كما خرجت بنو أسد وغيرها وكان عدة أولئك مع قريش عشرة آلاف ولما علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمقدم هؤلاء الأعداد المؤلفة إلى المدينة شاور أصحابه فأشار عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه البقاء في المدينة لكونها محصنة وحفر الخندق ليكمل تحصينها من جميع الجهات وقال سلمان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا رسول الله إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا . وكانت خطة حكيمة غريبة لأن العرب لا يعرفونها ولا شك أنهم سيفجئون بها . وأمر النبي عليه الصلاة والسلام بحفر الخندق من الناحية الشمالية لكونها هي الجهة المكشوفة والتي يمكن نزول العدو بها لأن المدينة تقع بين حرتين غربية وشرقية وأما من الجنوب فالطريق إلى المدينة ضيق تكتنفه البساتين وكذلك يوجد بنو قريظة وبينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهود ومواثيق يجبرهم الوفاء بها على أن لا يسمحوا لأحد من هؤلاء الأحزاب من الخلوص إلى المسلمين من ناحيتهم.

وبدأ الحفر في الخندق وحدد عليه الصلاة والسلام لكل عشرة من المسلمين عشرة أذرع وجد المسلمون في حفره رغم شدة برودة الجو ونقص المؤن الغذائية، حتى كان أبو طلحة يقول شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الجوع فرفعنا عن بطوننا عن حجر حجر فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن حجرين.

ووقع في حفر الخندق آيات ودلالات هي من أعلام النبوة منها أكل الكثير من الطعام القليل والذي سيأتي ذكره في باب المعجزات.

ومنها أمر الكدية التي عرضت في الخندق ولم يستطع أحد كسرها فتناول عليه الصلاة والسلام المعول وضربها فعادت كثيباً أهيل . أي صارت رملاً غير متماسك . يقول البراء بن عازب رضي الله عنه واصفاً ذلك الأمر لما كان يوم الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول فاشتكيننا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجاء وأخذ المعول فقال: "بسم الله" ثم ضرب ضربة وقال: "الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إني لأنظر قصورها الحمر الساعة" ثم ضرب الثانية فقطع آخر فقال: "الله أكبر أعطيت فارس والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن" ثم ضرب الثالثة فقال: "بسم الله" فقطع بقية الحجر فقال: "الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني".

وتم حفر الخندق على حسب الخطة التي رسمها عليه الصلاة والسلام قبل نزول الأحزاب وأقبل الأحزاب بعد ذلك فنزلت قريش في أربعة آلاف بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغاية.

وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد في ستة آلاف حتى نزلوا
بذنب نقيمي إلى جانب أحد ولما رآهم المؤمنون ازدادوا إيماناً وتسليماً وفي ذلك
يقول المولى: (لما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق
الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً) وأما المنافقون فقد تزعزعت قلوبهم
وقالوا ما وصفه الله عنهم بقوله: (وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما
وعدنا الله ورسوله إلا غروراً).

وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ثلاثة آلاف من
المسلمين وجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع فتحصنوا به والمدينة خلفهم والخندق
بينهم وبين الكفار ولما استعد المشركون لمهاجمة المدينة وجدوا بينهم وبينها خندقاً
عريضاً فحثوا به فقالوا مكيدة ما عرفتتها العرب . وهم لم يعدوا لها ولم يكن معهم
استعداد للحصار لأنهم لم يأخذوه في حسابهم . فأقاموا على ما هم عليه
محاصرين للمدينة ولم يكن حرب ولا صدام إلا مناوشات جرت ممن اقتحم منهم
الخندق وكان مصيرهم القتل كعمرو بن عبد ود الذي قتله الإمام علي رضي الله
عنه وأرضاه ومصير الآخرين الهرب والفرار كعكرمة بن أبي جهل وضرار بن
الخطاب وكان فرارهم بعد مقتل عمرو حتى أن عكرمة من شدة خوفه ترك رمحه.
وقد كر المشركون عدة مرات وناوشوا عدة مناوشات لاقتحام الخندق
من ناحية ضعيفة ولكنها باءت بالفشل حيث كان المسلمون يتصدون لها
وكانت تشتد في بعض الأوقات حتى فات على النبي عليه الصلاة والسلام
وأصحابه صلاة العصر فصلوها بعد أن غربت الشمس.

وأكثر ما كان من القتال بين الفريقين المباشقة بالنبال فقتل من
الفريقين عدد قليل ستة من المسلمين وعشرة من المشركين وفيها رمي سعد بن

معاذ في أكحلته، رماه حبان بن العرقة وقتل بها بعد بني قريظة لأنه دعا أن يقيه الله إن بقي من حرب قريش شيء وإلا بعد أن تفر عينه في بني قريظة، وبنو قريظة هؤلاء هم الذين كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهد أن ينصروه إن أصابته حرب. ولكن زعيم بني النضير كعب بن الأشرف أتى إلى ديار بني قريظة فأتى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة وصاحب عقدهم وعهدهم ولم يزل به حتى نقض عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وعلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بغدر اليهود من بني قريظة وأراد أن يستجلي الأمر فبعث إليهم سعد بن معاذ وسعد بن عباد وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير وقال: "انفلتوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فألحنوا لحناً أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس". فلما دنوا منهم وجدوهم على أحبث ما يكون. فقد جاهروا بالسب والعداوة ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا: مَنْ رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد فانصرفوا عنهم فلما أقبلوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لحنوا له وقالوا: عضل والقارة أي أنهم على غدر كغدر عضل وقارة بأصحاب الرجيع. ورغم الخفاء في الأمر إلا أن الناس تفتنوا له وكان المسلمون في أحرج موقف إذ النساء والذراري خلفهم في المدينة من الجهة التي فيها بنو قريظة وتخوفوا عليهم خوفاً بالغاً إذ لم يكن ما يمنهم من بني قريظة وقد وصف الله حالهم حين ذكره بقوله: (وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً). ونجم النفاق حتى قال بعض المنافقين إن محمداً يعدنا كنوز كسرى وقيصر نأكل

منها وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يأتي الغائط وقال آخرون إن بيوتنا عورة من الغدر إذ بيوتهم كانت خارج المدينة وما هي بعورة، وحتى همت بنو سلمة بالفشل وقد أنزل الله تعالى في هؤلاء قوله: (وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غوراً وإذ قالت طائفة يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً).

وفي هذه الظروف الحرجة اضطجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مستجمعاً همه في إزاء هذه الأحداث ومكث طويلاً حتى اشتد على الناس البلاء ثم أنس نصر الله له فنهض يقول: "الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين بفتح الله ونصره". ثم إنه أرسل طوائف من جيشه ليلاً تقوم بحراسة النساء والذراري في المدينة ويغرس في نفوس أصحابه أمل النصر ويحثهم على حراسة الخندق من الاختراق وأراد عليه الصلاة والسلام أن يززع صفوف العدو فيصلح عيينة بن حصن الفزاري على ثلث أثمار المدينة ويرجع هو ومن معه. وشاور في ذلك السعدين فقالا يا رسول الله إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة وإن كان أمراً لم تؤمر به ولك فيه هوى فسمعاً وطاعة وإن كان إنما هو أمراً تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف فصبوب رأبهما وقال: "إنما هو شيء أصنعه لكم لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة".

ثم إن الله هياً أمراً خذل به العدو وصدع به صفهم وهو أن رجلاً من غطفان أسلم يقال له نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي رضي الله عنه وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له يا رسول الله لقد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمربي بما شئت فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة"، فذهب من فوره إلى بني قريظة . وكان عشيراً لهم في الجاهلية . فدخل عليهم وقال قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم قالوا: صدقت قال: فإن قريشاً ليسوا مثلكم البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدر أن تتحولوا منه إلى غيره وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم وأموالهم ونساؤهم وبغيره فليسوا كأنتم فإن رأوا نخرة . أي فرصة . أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلو بينكم وبين بلادكم والرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرفهم سبعين رجلاً يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معه محمداً حتى تناجزوه قالوا لقد أشرت بالرأي والنصح ودعوا له وشكروا وقالوا: نحن فاعلون قال ولكن اكنموا عليّ قالوا نفعل ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان ومن معه من أشرف قريش قد عرفتم ودي لكم وفراقي لمحمد وأنه قد بلغني أمر قد رأيت أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكنموا عليّ قالوا نفعل قال تعلمون أن معشر يهود بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد من نقض عهده وقد أرسلوا إليه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يوالونه عليكم فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم ثم ذهب إلى غطفان وقال لهم مثل ذلك.

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس للهجرة بعثوا إلى يهود أنا لسنا بأرض مقام وقد هلك الكراع والحف فأنهضوا بنا حتى نناجز محمداً فأرسل إليهم يهود أن اليوم يوم السبت وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حينما أحدثوا فيه ومع هذا فإننا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن فلما جاءتهم رسالهم بذلك قالت قريش وغطفان صدقكم والله نعيم فبعثوا إلى يهود أنا والله لا نرسل إليكم أحداً فاخرجوا معنا حتى نناجز محمداً فقالت قريظة صدقكم والله نعيم فتخاذل الفريقان ودبت الفرقة بين صفوفهم وخارت العزائم ووهنت الأنفس عن الحرب وقد هياً الله ذلك كله في (مغزوة الخندق) كل أحداثها التي وقعت فيها تشهد بتعدد معجزاتها و (كأنت) هناك (آية) أي معجزة كبرى فيها إذ (بدد الله) القادر (الجموع) التي تجمعت لحرب رسوله وأصحابه (بَدَدًا) أي فرقههم تفريقاً، في (ريح) وهي جند من (جند الله) وهذه الريح (ثارَتْ عاصفاً) أي تعصف بالكفار تقوض خيامهم ولا تدع لهم قدراً إلا كفاً ولا طنباً إلا قلعته ولا يقر لهم معها قرار وأرسل جنداً من الملائكة يزلزون الكفار ويلقون في قلوبهم الرعب وبذلك (رَحَلَ الكفارُ) وجلين خائفين (عنها) أي عن المدينة وحصارها (كَمَدًا) بحسرتهم وغيظهم إذ لم يبلغوا ما أرادوا رغم كثرة عددهم وَعَدَدِهِمْ وأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تلك الليلة الباردة القارصة حذيفة بن اليمان يأتيه بخر القوم فوجدهم على الحال التي ذكرناها وقد تمياًوا للرحيل فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره برحيل القوم (وبدا) أي ظهر (نصرٌ عظيمٌ) وهو الذي وعده الله إياه وبشر به أصحابه ومع كون ذلك النصر عظيماً فهو (حاسمٌ) حتى قال رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم بعد أن أجلى الله الأحزاب: "الآن نغزوهم ولا يغزونا نحن نسير إليهم"¹

ويقوله هذا (جَدَّدَ البُشْرَى) لدى أصحابه (وأجلى) أي أبعد عنهم (الأوْداء) أي التعب حين كان لهم النصر ومع النصر البشارة بعدم غزو الكفار لهم بل غزوهم للكفار في ديارهم. وقد مكث المشركون في حصار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه شهراً أو ما يقارب الشهر.

غزوة بني قريظة:

رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة من غزوة الخندق ثم دخل عند أم سلمة رضي الله عنها وأخذ يغتسل وقد وضع السلاح فجاءه جبريل عليه السلام وكان في وقت الظهر وقال له: أو قد وضعت السلاح؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتهم وما رجعت الآن إلا من طلب القوم . أي كفار قريش ومن معهم . فانفض بمن معك إلى بني قريظة فإني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم وأقذف في قلوبهم الرعب. وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مؤذناً فأذن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم. وأعطى الراية علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأمره بالتقدم إلى بني قريظة فلما رأوهم تحصنوا في حصونهم فلما دنا منهم علي ومن معه سمع منهم مقالة قبيحة في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ولما وصل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في موكبه من المهاجرين والأنصار نزل على بئر من آبارهم يقال لها بئر أنا قال علي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لا عليك أن لا تدنوا من هؤلاء الأخابث، قال: "لعلك سمعت منهم

رواه البخاري.¹

لي أذى" قال: نعم، قال: "لو رأوني لم يقولوا شيئاً" فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حصونهم قال: "يا إخوان القردة والخنازير هل أخزاكم الله وأنزل بكم نعمته" قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً.

وأما بقية المسلمين فقد بادروا أمره وأخذوا يتوافدون إلى خيبر أرسالاً أرسالاً ومنهم من صلى العصر في الطريق وقال: ما أمرنا بالصلاة في بني قريظة إلا لنسرع في السير لا لنخرج الصلاة عن وقتها ومنهم من صلى العصر في بني قريظة مع العشاء الآخرة تمسكاً بالنص فلم يعنف واحدة من الطائفتين. وكان عددهم ثلاثة آلاف والخيل ثلاثون وحاصرهم النبي عليه الصلاة والسلام ولما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال قائلاً لهم: يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإني عارض عليكم خلافاً ثلاثاً فخذوا أيها شتمتم. قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدق فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل وأنه الذي تجدونه في كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم ونسائكم... وذكرهم ما قاله أحد أحبارهم في خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمره لهم باتباعه. فلما قال لهم ذلك قالوا: لا نفارق حكم التوراة ولا نستبدل به غيره، قال كعب: فإذا أبيتم عليّ هذه فهلتم تقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فلم يجيبوه إلى ذلك.

فقال: فإن أبيتم عليّ فإن الليلة ليلة السبت وإن عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها فانزلوا علينا نصيب من محمد وأصحابه غرة أي غفلة فأبوا عليه ذلك بأنهم لا يريدون إفساد سبتهم.

فقال لهم زعيمهم كعب بن أسد ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً. وقال لهم عمرو بن سعدى قد خالفتكم محمداً فيما عاهدتموه عليه ولم أشرككم في غدركم فإن أبيتم أن تدخلوا معه فاثبتوا على اليهودية واعطوه الجزية فوالله ما أدري أيقبلها أم لا قالوا نحن لا نقر للعرب بخراج في رقابنا يأخذونه وإن القتل خير من ذلك قال فإني بريء منكم فخرج في تلك الليلة فمر بحرس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعليه محمد بن مسلمة فقال من هذا قال عمرو بن سعدى قال: "مر اللهم لا تحرمني إقالة عثرات الكرام" وخلقى سبيله وبعد ذلك لم يدر أين هو ولما أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "ذاك رجل نجاه الله بوفائه".

ثم بعد ذلك بعثوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يخرجوا كما خرج يهود بني قينقاع فلم يرض فعرضوا أن يخرجوا كما خرج يهود بني النضير فلم يرض إلا إن ينزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فطلبوا منه أن يشاوروا أحد حلفائهم من المسلمين لعلهم أن يتعرفوا من خلاله على ما سيحل بهم إن نزلوا على حكمه وقالوا له أرسل لنا أبا لبابة نستشيره وكانت أمواله وولده في منطقتهم فلما وصل إليهم قام إليه الرجال وجهشت النساء والأطفال ليكون في وجهه من طول الحصار فرق لهم وقالوا له يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم وأشار بيده إلى حلقه يقول إنه الذبح ثم علم من فوره أنه خان الله ورسوله فمضى على وجهه ولم يرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى أتى المسجد النبوي بالمدينة فربط نفسه بسارية المسجد وحلف أن لا يحمله إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده وأنه لا يدخل أرض بني قريظة أبداً. لأنها أرض خان الله ورسوله فيها. فلما بلغ رسول

الله صلى الله عليه وآله وسلم خبره وكان قد استبطأه. قال: "أما إنه لو جاءني لاستغفرت له أما إذ قد فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه" فلما نزلت توبته أطلقه.

ورغم ما أشار إليه أبو لبابة نزلت بنو قريظة على حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولما نزلوا على كلمته أمر باعتقال الرجال وعزلهم عن النساء والذراري وقامت الأوس وقد كانوا حلفاءهم يريدونه أن يحسن إليهم كما فعل بموالي الخزرج فقال "أما ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم" قالوا بلى قال: "فذاك إلى سعد بن معاذ" قالوا قد رضينا فحكم سعد فيهم بعد أن استوثق أن يكون حكمه نافذاً من الجميع فرضوا فحكم بسبي النساء والذرية وقسمة الأموال وقتل الرجال فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم "لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات" ولقد أسلم منهم نفر قبل النزول فحقتوا دماءهم وأموالهم وذراريهم.

سرية محمد بن مسلمة:

إلى القُرطاء بضم القاف وسكون الراء وهي بطن من بني بكر وكانوا ينزلون بناحية ضريبة بفتح الضاد وكسر الراء وتشديد الياء وهي قرية لبني كلاب من أرض نجد على طريق البصرة إلى مكة وهي إلى مكة أقرب، وبها جبل يسمى البكرات وبينها وبين المدينة سبع ليال وكانت في السنة السادسة للهجرة لعشر خلون من المحرم وكان عدد قوات هذه السرية ثلاثين راكباً.

فلما أغاروا على القوم هرب سائر القوم فاستاق المسلمون نعماً وشاءً وأسرُوا ثمامة بن أثال الحنفي وحدوده في طريقهم وهو سيد بني حنيفة كان قد خرج متنكراً لقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأمر مسيلمة الكذاب فلما

جاءوا به ربطوه بسارية من سواري المسجد بأمره عليه الصلاة والسلام لكي يرى ما عليه المسلمون فخرج إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: "ما عندك يا ثمامة؟" فقال: عندي خير يا محمد إن تقتل تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاکر وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت فتركه ثم مر به ثانية ودار بينهما كما في المرة الأولى ثم مر به الثالثة فقال له مثل ذلك فرد عليه كما رد عليه أولاً فقال عليه الصلاة والسلام "أطلقوا ثمامة" فأطلقوه فذهب إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم جاء فأسلم وقال للنبي عليه الصلاة والسلام والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ والله ما كان على وجه الأرض دين أبغض عليّ من دينك فقد أصبح دينك أحب الأديان إليّ وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فبشره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمره أن يعتمر فلما قدم على قريش قالوا: صبأت يا ثمامة قال: لا والله ولكني أسلمت مع محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا والله لا يأتیکم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكانت يمامة ريف مكة فانصرف إلى بلاده ومنع الحمل إلى مكة حتى جهدت قريش وكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يجلي إليهم حمل الطعام ففعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليه وآله وسلم¹.

غزوة بني لحیان:

وهم الذين غدروا بأصحابه بالرجيع ولما تسنت الظروف لغزوهم بعد الأحزاب خاصة وأنهم بمقربة من مكة خرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

¹ انظر زاد المعاد.

وسلم في ربيع الأول أو في جمادى الأولى في السنة السادسة للهجرة في مائتين من أصحابه واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم وأظهر أنه يريد الشام ثم أسرع حتى وصل إلى بطن غراف واد بين أمج وعسفان حيث كان مصاب أصحابه فترحم عليهم ودعا لهم وسمعت به بنو لحيان فهربت في رؤوس الجبال فلم يقدر على أحد منهم وأقام بأرضهم يومين وبعث سرايا لتسمع بهم قريش إلى كراع الغميم ثم رجع إلى المدينة.

ثم تتابعت سراياه على النحو التالي:

سرية عكاشة بن محصن إلى الغمر:

في ربيع الأول أو الآخر في السنة السادسة للهجرة في أربعين رجلاً ماء لبني أسد.

سرية محمد بن مسلمة:

في عشرة رجال في ربيع الأول أو الآخر في السنة السادسة للهجرة إلى ذي القصة في ديار بني ثعلبة فكمن القوم لأصحاب محمد بن مسلمة وكانوا مائة فلما ناموا قتلوهم إلا ابن مسلمة نجا منهم جريحاً.

سرية أبي عبيدة:

في أربعين رجلاً في ربيع الآخر في السنة السادسة للهجرة إلى ذي القصة على إثر مقتل أصحاب ابن مسلمة ووافوه صباحاً فأغاروا عليهم فهربوا وأعجزوهم هرباً في الجبال وأصابوا رجلاً واحداً منهم أسلم واستاقوا نعماً وشاء.

سرية زيد بن حارثة:

إلى الجموم ماء لبني سليم في ربيع الآخر في السنة السادسة للهجرة أصابوا فيها نعماً وشاءً وأسرى.

سرية زيد:

وكانت أيضاً إلى العيص في جمادى الأولى في السنة السادسة للهجرة في سبعين ومائة راكب وفيها أخذت أموالاً لقريش كان قائدها أبا العاص ختن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأفلت أبو العاص واستجار بزینب زوجته وسألها أن تطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رد أموال العير وأشار الرسول عليه الصلاة والسلام على الناس بردها من غير أن يكرههم فردوها فأخذها أبو العاص ورجع بها إلى مكة وأدى الودائع إلى أهلها ثم أسلم وهاجر ورد إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم زوجته.

سرية زيد إلى الطرف أو الطرق:

في جمادى الآخرة في السنة السادسة للهجرة في خمسة عشر رجلاً إلى بني ثعلبة فهربت الأعراب وأصاب منهم عشرين بغيراً.

سرية زيد:

إلى وادي القرى في رجب في السنة السادسة للهجرة في اثني عشر رجلاً فهجم عليهم سكان وادي القرى فقتلوا تسعة وأفلت ثلاثة فيهم زيد.

سرية الخبط:

يقول المباركفوري: [تذكر هذه السرية في رجب سنة 8هـ، ولكن السياق يدل على أنها كانت قبل الحديبية، قال جابر: بعثنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ثلاثمائة راكب أميرنا أبو عبيدة بن الجراح نرصد عيراً لقريش، فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط، فسمي جيش الخبط، فنحر رجل ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نماه، فألقى

إلينا البحر دابة يقال لها: العنبر، فأكلنا منه نصف شهر، وادهنا منه حتى ثابت منه أجسامنا، وصلحت، وأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلعه، فنظر إلى أطول رجل في الجيش وأطول جمل، فحمل عليه، ومر تحته، وتزودنا من لحمه وشائق، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكرنا له ذلك فقال: "هو رزق أخرجته الله لكم فهل معكم من لحمه شيء تطعمونا" فأرسلنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منه. وإنما قلنا: إن سياق هذه السرية يدل على أنها كانت قبل الحديبية لأن المسلمين لم يكونوا يتعرضون لعبير قريش بعد صلح الحديبية[أهـ].

غزوة بني المصطلق أو غزوة المريسيع:

في شعبان في السنة السادسة للهجرة، يقول المباركفوري: [كانت هذه الغزوة في شعبان سنة ست من الهجرة على أصح الأقوال وسببها أنه بلغه صلى الله عليه وآله وسلم أن رئيس بني المصطلق الحارث بن أبي ضرار سار في قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فبعث بريدة بن الحصيب الأسلمي؛ لتحقيق الخبر، فأتاهم ولقى الحارث بن أبي ضرار وكلمه، ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره الخبر. وبعد أن تأكد لديه صلى الله عليه وآله وسلم صحة الخبر ندب الصحابة، وأسرع في الخروج، وكان خروجه لليلتين خلتا من شعبان، وخرج معه جماعة من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قبلها، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة، وقيل أبا ذر، وقيل تميلة بن عبد الله الليثي، وكان الحارث بن أبي ضرار قد وجه عيناً، ليأتيه بخبر الجيش الإسلامي، فألقى المسلمون عليه القبض وقتلوه. ولما بلغ الحارث بن أبي ضرار ومن معه مسير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقتله عينه، خافوا

خوفاً شديداً، وتفرق عنهم من كان معهم من العرب، وانتهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المريسيع . بالضم فالفتح مصغراً اسم لماء من مياههم في ناحية قديد إلى الساحل . فتتهيؤوا للقتال، وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه، وراية المهاجرين مع أبي بكر الصديق، وراية الأنصار مع سعد بن عباد، فتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحملوا حملة رجل واحد، فكانت النصر، وانهمز المشركون، وقتل من قتل، وسبى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم النساء والذراري والنعم والشاء، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد قتله رجل من الأنصار ظناً منه أنه من العدو . كذا قال أهل المغازي والسير، قال ابن القيم: وهو وهم، فإنه لم يكن بينهم قتال، وإنما أغار عليهم على الماء فسبى ذراريهم وأموالهم كما في الصحيح، أغار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على بني المصطلق وهم غارون، وذكر الحديث [اهـ].

قال العلامة أحمد زيني دحلان في سيرته: (وأمر -أي رسول الله صلى الله عليه وسلم - عمر فنادى في الناس: قولوا لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم، فأبوا أن يقولوها فتراموا بالنبل ساعة ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فحملوا حملة رجل واحد فما أفلت منهم أحد، قتلوا عشرة وأسرنا باقيهم وكانوا أكثر من سبعمائة وسبوا الرجال والنساء والذرية وساقوا النعم والشاء وكانت الـ\غبل ألفي بعير والشاء خمسة آلاف شاة وكان المسي مائتي بيت ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد وهو هشام بن صبابه أصابه رجل من رهط عباد بن الصامت رضي الله عنه خطأ وكانت من جملة السبي جويرية بنت الحارث فاختص بها النبي صلى الله عليه وسلم وأعتقها وتزوج بها

فقال الناس: أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسلوا ما بأيديهم - أي من السبي - قالت عائشة رضي الله عنها: فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها رضي الله عنها، وقيل أنها طلبت قومها من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة دخوله بها فوهبهم لها، وهذا لا يمنع كون المسلمين حين سمعوا أنه تزوجها أطلقوا الأسرى فكان ذلك زيادة إكرام من الله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم حتى لا يسأل أحدا منهم في ذلك بشيء أو مجانا ثم هدى الله أكثرهم للإسلام اه .

وفي هذه الغزوة تكلم المنافق عبد الله بن أبي بقوله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل وغير ذلك مما قاله بعد خصومة على ماء بين أجير لعمر بن الخطاب وسانن بن وبر الجهني فصرخ الجهني يا معشر الأنصار وصرخ أجير عمر يا معشر المهاجرين فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم دعوها فإنها منتنة". وبلغ ذلك عبد الله بن أبي فقال: ذلك القول. ومشى زيد بن أرقم بما سمعه عن عبد الله بن أبي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولما علم بذلك ابن سلول أتى إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فحلف بالله ما قلت ما قال . أي زيد . ولا تكلمت به، وكان في قومه شريفاً عظيماً فقال من حضر رسول الله من الأنصار من أصحابه عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال للرجل حدباً على ابن أبي بن سلول ودفعاً عنه، فنزل القرآن فاضحاً لابن أبي مؤيداً لزيد في سورة المنافقين. وفيها حصل حديث الإفك وبرأ الله فيه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وأما البعوث والسرايا بعد غزوة المريسيع فهي كالتالي:

سرية عبد الرحمن بن عوف:

إلى ديار بني كلب بدومة الجندل وذلك في شعبان في السنة السادسة للهجرة وأوصاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن أقعده بين يديه وعممه ثم أمره إن أطاعوه أن يتزوج ابنة ملكهم فدعاهم عبد الرحمن بن عوف ثلاثة أيام فأسلم القوم وتزوج ابنة ملكهم تماضر بنت الأصبغ.

سرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

إلى بني سعد بن بكر بفدك في شعبان في السنة السادسة للهجرة وذلك لما بلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن بها جمعاً يريدون مدد اليهود بخيبر فأغار عليهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان في مائتي رجل فأخذ عليهم خمسمائة بعير وألف شاة وهربت بنو سعد بالظعن.

سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة:

وكانت في رمضان في السنة السادسة للهجرة وكانت إلى وادي القرى بطن من فزارة وكانت أم قرفة هذه شيطانة وكانت تسب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم أرسلت ثلاثين فارساً لاغتياله عليه الصلاة والسلام وكان هذا البطن من فزارة قد اعتدوا على زيد رضي الله عنه وكان معه تجارة خرج بها للشام لأصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخذوها وقد ظفر بهم فأغار عليهم وقتل منهم من قتل وقتلوا أم قرفة وأسروا ابنة لها وأعطوها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فبعث بها إلى مكة وفُدي بها أسرى من المؤمنين هناك.

سرية كرز بن جابر الفهري إلى العرنيين:

في شوال في السنة السادسة للهجرة وذلك أن رهطاً من عكل وعرينة أظهروا الإسلام وأقاموا بالمدينة فاستوخموها فأمرهم النبي عليه الصلاة والسلام أن

يلحقوا بإبل الصدقة خارج المدينة وأن يشربوا من ألبانها وأبوالها فلما صحوا قتلوا الراعي واستاقوا الإبل وكفروا بعد إسلامهم فبعث في طلبهم كرزاً في عشرين من الصحابة فظفروا بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف وتركوا في الحرة إلى أن ماتوا.

غزوة الحديبية:

(ثم) بعد ما ذكرناه مما وقع من بعوث وسرايا بعد غزوة المريسيع (جاءت) أي كانت (غزوة الصُّلْح التي) وقعت وهي قصة صلح الحديبية ويقال لها غزوة، والحديبية بتخفيف الياء وتشديدها وهي بئر يسمى المكان باسمها وقيل شجرة وقيل قرية (كَانَ فِيهَا الْاعْتِمَارُ مَقْصِداً) له عليه الصلاة والسلام وأصحابه؛ لأنه رأى في منامه أنه دخل البيت الحرام هو وأصحابه محلقين رؤوسهم ومقصرين فخرج عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين هلال ذي القعدة سنة ست من الهجرة يريد العمرة ولا يريد قتالاً واستنفر العرب من البوادي ومن حوله من الأعراب ليخرجوا معه خشية أن تتعرض له قريش بحرب أو صد عن البيت فأبطأ عليه كثير منهم فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق من العرب وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ليأمن الناس حربه وليعلموا مقصده الذي هو الاعتمار لا غير وخرج ومعه زوجته أم سلمة رضي الله عنها واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم أو نميلة الليثي وكان خروجه في ألف وأربعمائة ويقال وخمسمائة ولم يخرج معه بسلاح إلا سلاح المسافر . السيف في القرب . فلما وصل ذا الحليفة قلد الهدى وأحرم منها بعمرة وبعث عيناً من خزاعة يستبين له أمر قريش فلما وصل غدير الأشطاط أتاه من أرسله عيناً وأخبره أن قريشاً جمعوا له جمعاً يقاتلونه بها ويصدونه عن دخول مكة وعندها

شاور النبي عليه الصلاة و السلام أصحابه وقال لهم: "أترون نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبيهم؟ فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين وإن نجوا يكن عنق قطعها الله، أم تريدون أن نؤم هذا البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟" فقال أبو بكر: الله ورسوله أعلم إنما جئنا معتمرين ولم نجيء لقتال أحد ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "امضوا على اسم الله".

وأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن قريشاً نازلةً بذى طوى وأن مائتي فارس في قيادة خالد بن الوليد مرابطة بكراع الغميم في الطريق الرئيسي الذي كان يسلكه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولما صلى الرسول عليه الصلاة والسلام بأصحابه الظهر قال خالد لو ملنا عليهم وأصبنا منهم غرة ثم قرر أن يميل عليهم في صلاة العصر فنزلت الآيات بصلاة الخوف ففاتت الفرصة على خالد وخالف النبي عليه الصلاة والسلام بجيشه الذي معه طريقاً وعرأً حيث سلك بهم ذات اليمين بين ظهري الحمش في طريق على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة ولم يشعر خالد ومن معه إلا بغبار الجيش الإسلامي وقد خالف الطريق فذهب مسرعاً نذيراً لقريش.

ولما وصل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه ثنية المرار برکت راحلته، فقال الناس: حل حل، فألحت، فقال الناس: خلأت القصواء خلأت القصواء، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: "ما خلأت القصواء وما كان ذلك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل" ثم قال: "والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمت الله إلا أعطيتهم إياها" ثم زجرها فوثبت به فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية.

ولما اطمأن بالحديبية أتاه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أهل تھامة فقال: إني تركت كعب بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل . والعوذ جمع عائد وهي الناقة ذات اللبن والمطافيل الأمهات التي معها أطفالها . يريد أنهم خرجوا معهم بذوات الألبان من الإبل ليتزودوا بألبانها ولا يرجعوا حتى يمنعوه وهو استعداد لطول المقام إن دعى الأمر لذلك وهم مقاتلون وصادوك عن البيت فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إنا لم نجيء لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضررت بهم فإن شاؤوا ماددتهم ويخلوا بيني وبين الناس فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا . أي فإن لم أظهر . فقد جئوا أي استراحوا من القتال . وإن أبوا إلا القتال فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره" قال بديل سأبلغهم ما تقول فرجع إلى قريش وأخبرهم بأن النبي عليه الصلاة والسلام لم يأت لقتال وإنما أتى للبيت زائراً فقالوا: وإن كان جاء لا يريد قتالاً بل جاء زائراً فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا نتحدث عنا العرب بذلك أبداً فبعثت قريش مكرز بن حفص فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "هذا رجل غادر" فلما جاء وتكلم قال له مثل ما قال لبديل وأصحابه فرجع إلى قريش وأخبرهم.

ثم قال رجل من كنانة اسمه الحليس بن علقمة وكان سيد الأحابيش دعوني آتة فقالوا: آتته، فلما أشرف على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها"، فبعثوها له واستقبله القوم يلبون فلما رأى ذلك، قال:

سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت فرجع إلى أصحابه فقال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت وما أرى أن يصدوا وجرى بينه وبين قريش كلام أغضبه حتى كاد أن ينفر بمن معه من الأحابيش فقال عروة بن مسعود الثقفي: إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آتة فقالوا آتته فأتاه فجعل يكلمه فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم نحواً من قوله لبديل فقال له عروة عند ذلك: أي محمد أرايت لو استأصلت قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك، وإن تكن الأخرى فوالله إني لا أرى وجوهاً وأرى أوباشاً من الناس . أي أحلاطاً . حلقياً أن يفروا ويدعوك فقال له أبو بكر: امصص بظفر اللات أنحن نفر عنه؟ قال منْ ذا؟ قالوا: أبو بكر قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت عندي لم أجزك بما لأجبتك وجعل يكلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكلما كلمه أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة عند رأس النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعه السيف وعليه المغفر فكلما أهوى عروة إلى لحية النبي صلى الله عليه وآله وسلم ضربه يده بنعل السيف وقال: أحر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرفع عروة رأسه وقال: من هذا الذي قد آذاني من بين أصحابك والله لا أحسب فيكم ألام منه ولا أشر منزلة فتبسم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا له: هذا المغيرة بن شعبة فقال أي غدر أولست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أما الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه في شيء.

ثم إن عروة جعل ينظر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما يفعلونه مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من تعظيمه وتوقيره والتبرك بآثاره عليه الصلاة والسلام.

فقال عروة لقريش: أي قوم والله لقد وفدت على الملوك على قيصر وكسرى والنجاشي والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظر تعظيماً له وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

ولما رأى شباب من قريش وكانوا متحمسين للحرب أن هناك بوادر للصلح قد تحصل خرج منهم سبعون أو ثمانون ليلاً متسللين إلى موقع المسلمين لإشعال فتيل الحرب ولكن ما إن وصلوا إلى هناك حتى اعتقلهم محمد بن مسلمة قائد حرس المسلمين ورغبة في الصلح أطلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم سراحهم وفي ذلك نزل قوله تعالى: (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم).

إرسال عثمان بن عفان إلى قريش:

أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سفيراً يوضح لهم هدف وصولهم إلى مكة فاختر عمر بن الخطاب فاعتذر قائلاً: يا رسول الله ليس لي بمكة من بني كعب من يعضب لي إن أوذيت، فأرسل عثمان بن عفان فإن عشيرته بها وإنه مبلغ ما أردت فدعاه وأرسله إلى قريش وقال: "أخبرهم أنا لم

نأت لقتال وإنما جئنا عماراً وادعهم إلى الإسلام وأمره أن يأتي رجالاً ونساءً مؤمنين بمكة مستخفين بإيمانهم ييشترهم بالفتح.

وذهب عثمان رضي الله عنه برسالة النبي عليه السلام إلى قريش فمر بهم فقالوا أين تريد فقال بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكذا وكذا قالوا قد سمعنا ما تقول فانفذ لحاجتك ولقيه أبان بن سعيد بن العاص وهو ابن عم عثمان رضي الله عنه فأجاره حتى يبلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ولما وصل مكة بلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لزعماء قريش ثم بعد تبليغهم ذلك عرضوا عليه أن يطوف بالبيت فرفض ذلك العرض وأبى أن يطوف حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واحتبسته قريش عندها ثلاثة أيام وأشاع الناس أنهم قتلوه فبلغ ذلك الخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال عند بلوغه ذلك الخبر: "لا نبرح حتى نناجز القوم" أي نقاتلهم ودعا عليه الصلاة والسلام الناس إلى البيعة وأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن ينادي الناس إلى البيعة قال سلمة بن الأكوع رضي الله عنه بايعناه وبايعه الناس على عدم الفرار إما الفتح وإما الشهادة.

وأول من بايعه سنان بن سنان الأسدي ولما بايعه قال أبايعك على ما في نفسك قال . أي النبي عليه الصلاة والسلام .: "وما في نفسي" قال أضرب بسيفي بين يديك حتى يظهرك الله أو أقتل وصار الناس يقولون: نبايعك على ما بايعك عليه سنان وبايعه سلمة بن الأكوع على الموت ثلاث مرات في أول الناس ووسطهم وآخرهم.

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيد نفسه وقال: "هذه عن عثمان" ولما تمت البيعة جاء عثمان وبايعه ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا رجل

من المنافقين يقال له جد بن قيس وكانت هذه البيعة تحت الشجرة وعمر بن الخطاب أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعقل بن يسار أخذ بغصن الشجرة يرفعه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهذه هي بيعة الرضوان التي ذكرها الله تعالى بقوله: (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة).

وعلمت قريش بهذه البيعة فخافت العواقب وأسرت في إطلاق عثمان وبادروا إلى الصلح وأرسلوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام سهيل بن عمرو لعقد الصلح وأكدت أن لا يكون في الصلح إلا أن يرجع عنا عامه هذا لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً وبهذا يكونون قد (مَنَعُوهُ مِنْ دُخُولِ مَكَّةِ) في عامه ذلك ولما رأى النبي عليه الصلاة والسلام سهيل بن عمرو قال: "قد سهل لكم أمركم أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل" فجاء سهيل ذلك وتكلم كثيراً ثم كان الاتفاق على قواعد الصلح (وجرى التوقيع) أي كتابة الصلح وبنوده بعد الاتفاق كلامياً على الأمور الآتية وهي:

1- أن يرجع عنهم عامهم هذا ويأتي (عاماً) قابلاً أي العام القابل وهو له (مَوْعِداً) بحيث يخلون له مكة ثلاثة أيام ولا يدخلها ومن معه إلا بالسيوف في القرب.

2- ترك القتال وذلك بأن توضع الحرب بينهم عشر سنين يأمن بعضهم بعضاً.
3- من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه وتعتبر القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين جزءاً من ذلك الفريق فأبي عدوان تتعرض له يعتبر عدواناً على من دخلت معه.

4. أنه من أتى محمداً من قريش من غير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن كان مع محمد لم يرد عليه، عندها ثارت حفائض كثير من الصحابة حول هذه الشروط وعم الحزن، ومن (عَضِبَ) من شروط ذلك الصلح (الفاروق) رضي الله عنه (لَمَّا) رأى أن تلك الشروط قد (أَجْحَفُوا) أي قريش أبحفت (سَيِّدَ النَّاسِ) صلى الله عليه وآله وسلم بينود ذلك الصلح (وَأَبْدَى) أي أظهر الفاروق (حَرْدًا) أي غيظاً شديداً حيث لم يدرك أن بنود تلك الاتفاقية فيها الفتح الأكبر وتحمل في طياتها النصر للمسلمين حتى قال رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا رسول أأأأ نبي الله؟ قال "بلى" قال: أأأنا على حق وهم على باطل؟ قال: "بلى" قال: أأليس قتالنا في الجنة وقتلاهم في النار قال: "بلى" قال: أأفقيم نعطي الدنيا في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ قال: "يا ابن الخطاب إني رسول الله وأأأأ أعصيه وهو نصري ولن يضيعني أبداً" قال: أأأليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فطوف به؟ قال: "بلى أأأأخبرتكم أنا نأتيه العام"؟ قال: لا قال: "أأأإنك آأأه ومطوف به".

ثم انطلق عمر متغيظاً فأأأأ أبا بكر فكلمه بما كلم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورد عليه أبو بكر بما رد عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وزاد: فاستمسك بغرزه حتى تموت فوالله إنه لعلى الحق.

ثم نزلت: (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً..). فأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى عمر فأقرأه إياها فقال: يا رسول الله أو فتح هو؟ قال: "نعم" فطابت نفسه ورجع ثم ندم عمر على ما فرط منه ندماً شديداً قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيراً.

كتابة الصلح:

دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوس بن خولة رضي الله عنه وأمره أن يكتب بينهم فقال له سهيل: لا يكتب إلا ابن عمك علي أو عثمان بن عفان فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً كرم الله وجهه فقال: "اكتب بسم الله الرحمن الرحيم" فقال سهيل: أما الرحمن فلا ندري ما هو؟ ولكن اكتب باسمك اللهم فأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم علياً بذلك ثم أملى: "هذا ما صالح عليه محمد رسول الله" فقال سهيل لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال: "إني رسول الله وإن كذبتموني" وأمر علياً أن يكتب محمد بن عبد الله ويمحو لفظ رسول الله فأبى علي أن يمحو هذا اللفظ فمحا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده الشريفة ثم تم كتابة الصلح.

ولما تم الصلح دخلت خزاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكانوا حليف بني هاشم من عهد عبد المطلب فكان دخولهم في هذا العهد تأكيداً لذلك الحلف القديم ودخلت بنو بكر في عهد قريش فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من وقائع الصلح وكتابته قال لهم: "قوموا فانحروا" فوالله ما قام منهم أحد حتى قالها ثلاث مرات فلما لم يبق منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت يا رسول الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك ولما سمع قولها استصوبه (ومضى المختار) صلى الله عليه وآله وسلم وأخذ (في) التحلل من (مَنَسَكِهِ) أي عمرته وذلك بأن (ذَبَحَ الْهَدْيَ) ودعا حالقه فحلقه (كما أُلْقِيَ الرَّدَا) أي تجرد عن غير المخيط ولبس المخيط فلما رأى

الناس ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يخلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً.

وقد وفي عليه الصلاة والسلام بما عاهد قريشاً حيث رد إليهم أبا جندل وهو يكتب شروط الصلح لأبيه سهيل بن عمرو ورد أبا بصير ثم انفلت أبو بصير هذا وأقام في العيص ولحق به أبو جندل وغيره من المستضعفين في مكة وأصبح لهم قوة يهاجمون بها قوافل قريش حتى سألت قريش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالرحم أن يضمهم إليه ففعل. وبعد صلح الحديبية كاتب عليه الصلاة والسلام الملوك يدعوهم إلى الإسلام فكاتب قيصر وهرقل والنجاشي وغيرهم من ملوك البحرين ونحوهم.

غزوة الغابة:

وتعرف بذِي قَرْدَ بفتح القاف والراء وهو ماء على نحو بريد من المدينة مما يلي بلاد غطفان وكانت قبل غزوة خيبر بثلاثة أيام وبعد الحديبية بعشرين يوماً وهو الذي في البخاري وسببها أنه كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشرون لِقحة ترعى بالغابة تارة وبذي قرد أخرى وكان أبو ذر وامرأته وابنه رضي الله عنهم فيها فأغار عليها عيينة بن حصن الفزاري في أربعين فارساً فاستاقوها وقتلوا ابن أبي ذر واسمه ذر وكان يرعى الإبل وأسروا امرأة أبي ذر واسمها ليلى وتخلصت منهم وهم غافلون بعد أسرها.

[وخلاصة الروايات¹ عن سلمة بن الأكوع بطل هذه الغزوة أنه قال:

بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بظهره مع غلامه رباح، وأنا معه بفرس أبي طلحة، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزاري قد أغار على الظهر،

انظر الرحيق المختوم. "1"

فاستاقه أجمع وقتل راعيه فقلت: يا رباح خذ هذا الفرس فأبلغه طلحة، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قمت على أكمة، واستقبلت المدينة، فنادت ثلاثاً: يا صباحاه، ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل وأرتجز، أقول: أنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع

فوالله ما زلت أرميهم وأعقر بهم، فإذا رجع إليّ فارس جلست في أصل الشجرة، ثم رميته فتعفرت به، حتى إذا دخلوا في تضايق الجبل علوته - أي الجبل -، فجعلت أرميهم بالحجارة، فما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله تعالى من بعير من ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا خلفته وراء ظهري، وخلصوا بيني وبينه، ثم اتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة، وثلاثين رحماً يستخفون، ولا يطرحون شيئاً إلا جعلت عليه آراماً من الحجارة (لكي) يعرفها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه حتى أتوا متضايقاً من ثنية فجلسوا يتغدون، وجلست على رأس قرن، فصعد إلي منهم أربعة في الجبل، قلت: هل تعرفونني؟ أنا سلمة بن الأكوع لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته، ولا يطلبنى فيدركني، فرجعوا. فما برحت مكاني حتى رأيت فوارس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتخللون الشجر. فإذا أولهم أحرم، وعلى أثره أبو قتادة، وعلى أثره المقداد بن الأسود، فالتقى عبد الرحمن وأحرم، فعقر بعبد الرحمن فرسه، وطعنه عبد الرحمن فقتله، وتحول على فرسه ولحق قتادة بعبد الرحمن فطعنه فقتله، وولى القوم مدبرين، فتبعتهم أعدو على رجلي، حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يقال له ذا قرد، ليشربوا منه، وهم عطاش، فأجلبتهم عنه، فما ذاقوا قطرة منه، ولحقني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والخييل عشاء، فقلت: يا رسول الله إن القوم عطاش، فلو بعثتني في

مائة رجل استنقذت ما عندهم من السرح، وأخذت بأعناق القوم، فقال: "يا ابن الأكوح. ملكت فاسجح" ثم قال: "إنهم ليقرون الآن في غطفان". وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة"، وأعطاني سهمين، سهم الراجل وسهم الفارس، وأردفني وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة.

استعمل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على المدينة في هذه الغزوة ابن أم مكتوم، وعقد اللواء للمقداد بن عمرو¹ اهـ
غزوة خيبر:

وخير مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على بعد ستين أو ثمانين ميلاً من المدينة في جهة الشمال¹.

وهذه المدينة يسكنها اليهود وكان لهم دور كبير في تحريض القبائل وتحزيب الأحزاب ضد المسلمين والاتصال الدائم بالمنافقين ولما فرغ لهم الرسول عليه الصلاة والسلام بعد ما كان بينه وبين قريش وصالحهم تفرغ لأهل المكر والدسائس. فحين رجع من الحديبية أقام ذا الحجة وبعض المحرم ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبر قال الناظم كان الله له و(مثلها) أي مثل الحديبية في عدد من خرج معه عليه الصلاة والسلام (خيبر) حيث خرج معه ألف وأربعمائة لأنه عليه الصلاة والسلام لما أراد أن يخرج أعلن أن لا يخرج معه إلا راغب في الجهاد فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة وهم ألف وأربعمائة كما أسلفنا وقد (سار المصطفى) إليهم (بعْدَ نَقْضِ الْعَهْدِ) ممن قد نقضه من يهود كما تقدم في بني قينقاع والنضير وقرظة. وأهل خيبر (مِمَّنْ أَفْسَدَا) فأولئك أفسدوا بنقض العهد

¹ انظر الرحيق المختوم للمباركفوري.

وأهل خيبر بإحاطة المؤامرات كما ذكرنا ولا تصالهم الوثيق بالمنافقين كما أسلفنا حتى أن رأس المنافقين عبد الله بن أبي أرسل إليهم يخبرهم بخروج الرسول عليه الصلاة والسلام إليهم ويقول: لهم خذوا حذرکم ولا تخافوا منه فإن عددکم وعدتکم كثيرة وقوم محمد شذمة قليلون لا سلاح معهم إلا القليل، فلما علموا بذلك أرسلوا كنانة ابن أبي الحقيق وهوذة بن قيس إلى غطفان يستمدونهم لأنهم كانوا حلفاءهم وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا المسلمين. وتحركت غطفان ولكن الله خذهم حيث سمعوا لغطاً وصوتاً خلفهم ظنوههم المسلمين خلفوهم في الأهل والذراري فرجعوا وخلوا بين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويهود خيبر (فغزاهم) في خيبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعد مسيره إليهم ونزوله عليهم من جهة الشام ليفوت عليهم فرصة الحرب إليها وليقطع عنهم مدد غطفان واتخذ من يدله على الطريق حتى بات المسلمون الليلة الأخيرة التي بدأ في صباحها القتال قريباً من خيبر واليهود لا تشعر بهم ثم صلى الفجر حين أصبح بغلس و(بعده فجر) أي صلاته سار إليهم فخرج أهل خيبر بمساحيهم إلى مزارعهم فلما رأوا الجيش قالوا محمد والخميس - أي الجيش - ثم رجعوا هارين إلى داخل مدينة خيبر عندها صاح النبي صلى الله عليه وآله وسلم (قائلاً) الله أكبر (خَرِبَتْ خَيْبَرُ) إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين و(صارت) أي خيبر (فَدَفَدَا) أي خراباً بعد أن كانت عامرة بأهلها وهذا تصوير لما حل بهم من ذل الهزيمة وإلا فأهلها قد بقوا فيها كما سيأتي ولم يكن لهم جلاء منها إلا في عهد عمر رضي الله عنه.

وخيبر مقسمة إلى قسمين قسم فيه خمسة حصون وهي: حصن ناعم وحصن الصعب بن معاذ وحصن قلعة الزبير وحصن أبي وحصن النزار والحصون

الثلاثة الأولى تقع في منطقة يقال لها النطاة وأما الحصنان الآخران فيقعان في منطقة تسمى بالشق أما القسم الثاني ويعرف بالكتيبة ففيه ثلاثة حصون حصن القموص وحصن الوطيح وحصن السلام والقتال إنما دار في القسم الأول وأما الثاني على رغم كثرة عددهم ووجود محاربيهم فيها فلم يجر فيه قتال وإنما سلمت بدون قتال. وحاصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم خيبر وأعطى الراية رجلاً لم يتم على أيديهم الفتح واستمر الحصار ثم قال عليه الصلاة والسلام: "لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله" فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلهم يرجو أن يعطاها فقال: "أين علي بن أبي طالب؟" فقالوا: يا رسول الله هو يشتكي عينيه، قال: "فأرسلوا إليه" فأتي به فبصق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عينيه ودعا له فبرئ كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا قال: "انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم".

وأول حصن هاجمه المسلمون هو حصن ناعم وكان فيه من أبطالهم مرحب برز للقتال وقتله الإمام علي رضي الله عنه ودار القتال المرير حتى خارت عزائم اليهود بعد قتل جملة من سراخم وهكذا توالى حصون اليهود في السقوط فبعد حصن ناعم سقط حصن الصعب بن معاذ وبعده قلعة الزبير ثم قلعة أبي ثم حصن النزار وبهذا يكون القسم الأول من خيبر قد سقط وهي ناحية النطاة والشق وتحصن اليهود في القسم الثاني في حصونه الثلاثة ولكنهم لم يقاتلوا بل تفاوضوا للصالح مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فأرسل إلى النبي صلى الله

عليه وآله وسلم ابن أبي الحقيق أنزل فأكلمك قال: "نعم" فنزل وصالح على حقن دماء مَنْ في حصونهم من المقاتلة وترك الذرية لهم ويخرجون من خيبر وأرضها بذرايبهم ويخلون بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين ما كان لهم من مال وأرض وعلى الصفراء والبيضاء أي الذهب والفضة.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كنتم موثني شيئاً" فصالحوه على ذلك وبعد هذه المصالحة تم تسليم الحصون إلى المسلمين وبذلك تم فتح خيبر.

وأراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجلي اليهود من خيبر فقالوا يا محمد دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها فنحن أعلم بما منكم فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع ومن كل ثمر ما بدا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقرهم.

فدك: وهي من مساكن يهود أرسل إليهم عليه الصلاة والسلام محيصة بن مسعود لما وصل خيبر يدعوهم إلى الإسلام فأبطأوا عليه فلما فتح الله خيبر قذف في قلوبهم الرعب فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلحونه على النصف من فدك بمثل ما صالح عليه أهل خيبر فقبل ذلك منهم فكانت فدك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خالصة لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب.

وادي القرى: وفيها جماعة من اليهود وانضاف إليهم جماعة من العرب توجه إليها بعد فراغه من خيبر وحصلت بينه وبينهم مناوشات ثم أعطوا ما بأيديهم وأقام بها أربعة أيام ثم قسم بين أصحابه ما أصابه منهم وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود وعاملهم عليها كما عامل أهل خيبر.

تيماء: لما بلغ اليهود الذين فيها خبر استسلام أهل خيبر ثم فدك ووادي القرى بعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون الصلح فقبله منهم وأقاموا بأموالهم وكتب لهم بذلك كتاباً على أن يعطوا الجزية.

غزوة ذات الرقاع:

يذكر أهل السير والمغازي هذه الغزوة في السنة الرابعة ولكن مشاركة أبي موسى الأشعري وأبي هريرة فيها تدل على وقوعها بعد خيبر إذ إسلامهما بعد خيبر. والأغلب أنها وقعت في شهر ربيع الأول في السنة السابعة للهجرة. يقول المباركفوري: [وملخص ما ذكره أهل السير حول هذه الغزوة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سمع باجتماع بني أمار أو بني ثعلبة وبني محارب من غطفان، فأسرع بالخروج إليهم في أربعمئة أو سبعمائة من أصحابه، واستعمل على المدينة أبا ذر أو عثمان بن عفان، وسار فتوغل في بلادهم حتى وصل إلى موضع يقال له نخل على بعد يومين من المدينة ولقى جمعاً من غطفان فتقاربوا وأحاف بعضهم بعضاً ولم يكن بينهم قتال، إلا أنه صلى بهم يومئذ صلاة الخوف.

وفي رواية البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونحن ستة نفر بيننا بغير نعقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي، وسقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت ذات الرقاع لما كنا نعصب الخرق على أرجلنا. وفيه عن جابر: كنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فنزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،

فتفرق الناس في العضاة، يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحت شجرة فعلق بها سيفه، قال جابر: فمنا نومة، فجاء رجل من المشركين، فاختلط سيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: أتحافني؟ قال: "لا". قال: فمن يمنعك مني؟ قال: "الله". قال جابر: فإذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعوننا، فجتنا فإذا عنده أعرابي جالس. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إن هذا اختلط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتاً، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله فهذا هو ذا جالس"، ثم لم يعاتبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم]أه.

وبعد هذه الغزوة كانت عدة سرايا أمر بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي:

سرية غالب بن عبد الله الليثي: إلى بني الملوح بقديد في صفر أو ربيع الأول في السنة السابعة للهجرة.

سرية حسمى: في جمادى الثانية في السنة السابعة للهجرة.

سرية عمر بن الخطاب: إلى تربة في شعبان في السنة السابعة للهجرة.

سرية بشير بن سعد الأنصاري: إلى بني مرة بناحية فدك في شعبان في السنة السابعة للهجرة في ثلاثين رجلاً وقتلوا فيها جميعاً إلا بشر بن سعد أصيب بجرح ثم نجا معهم إلى فدك فأقام عند يهود حتى برئت جراحته.

سرية غالب بن عبد الله الليثي: في رمضان في السنة السابعة للهجرة إلى بني عوال وبني عبد بن ثعلبة بالحيفعة. وفيها قتل أسامة بن زيد نهيك بن مرداس بعد أن قال لا إله إلا الله وعبت النبي له وقوله إنما قالها خوفاً من القتل فقال له

النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "فهلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب"؟!.

سرية عبد الله بن رواحة: إلى خيبر في شوال في السنة السابعة للهجرة وذلك أن أسير أو بشير بن زارم كان يجمع غطفان لغزو المسلمين ثم أخرجوه إلى خيبر مع ثلاثين من أصحابه حين أعلموه أن الرسول عليه الصلاة والسلام يستعمله على خيبر ثم وقع سوء ظن بين الفريقين أفضى إلى قتل أسير وأصحابه.

سرية بشير بن سعد الأنصاري: إلى يمن وجبار أرض لغطفان في شوال في السنة السابعة للهجرة في ثلاثمائة من المسلمين للقاء جمع كبير تجمعوا للإغارة على أطراف المدينة.

عمرة القضاء: لما هل ذو القعدة أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم وأن لا يتخلف منهم أحد شهد الحديبية إلا من استشهد منهم وخرج معه آخرون معتمرون فكانت عدتهم ألفين سوى النساء والصبيان.

واستخلف على المدينة عوف بن أبي رهم الغفاري وفي هذه العمرة تزوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ميمونة بنت الحارث العامرية.

وسميت هذه العمرة بعمرة القضاء إما لأنها كانت قضاء عن عمرة الحديبية أو لأنها وقعت حسب المقاضاة أي المصالحة التي وقعت في الحديبية.

سرية ابن العوجاء: في ذي الحجة في السنة السابعة للهجرة في خمسين رجلاً بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى بني سليم ليدعوهم إلى الإسلام.

سرية غالب بن عبد الله: إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك في صفر في السنة الثامنة للهجرة في مائتي رجل فأصابوا من العدو نِعماً وقتلوا منهم قتلى.

سرية ذات أطح: في ربيع الأول في السنة الثامنة للهجرة إلى بني قضاة في خمسة عشر رجلاً قتلوا كلهم إلا رجل واحد منهم.

سرية ذات عرق: إلى بني هوازن في ربيع الأول في السنة الثامنة للهجرة.

سرية مؤتة: وذكر الناظم كان الله له (وتلاها) أي غزوة خيبر (غزوة عظمى) أي كبرى وسماها غزوة تبعاً للبخاري وابن إسحاق حيث سماها غزوة وإلا فهي سرية وذلك لكثرة جيش المسلمين فيها.

ووصفها بالعظمى لما فيها من عظيم معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم حيث وجه أصحابه نحو الروم وهم ثلاثة آلاف وقابلوا أكثر من مائتي ألف وكان السجال بينهم ما يقارب سبعة أيام لم يقتل من المسلمين مع كثرة جيش الكفار عدة وعتاداً إلا اثني عشر رجلاً.

وهذه الغزوة كما سماها الناظم تبعاً لمن ذكرنا (جرت) أي وقعت (نحو أرض الشام) في مكان يسمى مؤتة وهي قرية بأدنى بلقاء الشام بينها وبين بيت المقدس مرحلتان.

وكانت في جمادى الأولى سنة ثمان للهجرة، وسببها أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان أرسل الحرث بن عمير الأزدي بكتاب إلى أمير بصرى من جهة هرقل وهو الحرث بن أبي شمر الغساني فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقال له أين تريد فقال: الشام قال: لعلك من رسل محمد قال: نعم فأمر به فأوثق رباطاً ثم قدمه فضرب عنقه. وكان قتل الرسل من أبشع

الجرائم وأعظمها، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجيش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (جَيْشاً) عندما حث الناس للخروج و(جُرْدًا) ذلك الجيش لقتال الكفار وبلغ كما أسلفنا ثلاثة آلاف (أَمَرَ المختار) صلى الله عليه وآله وسلم عليهم (زيداً) أي ابن حارثة رضي الله عنه وندب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس وقال إن قتل زيد فالأمير جعفر بن أبي طالب وقد ذكره الناظم بقوله (وكذا) أي يكون أميراً بعده (جعفر الطيار) والطيّار لقب له لقبه به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسيأتي بيانه (إِنَّ حَامَ الرَّدَى) أي إن قتل زيد (ثم) أي إن قتل جعفر ف(عبدُ الله) ابن رواحة (يأتي ثالثاً) أي في الأمانة وهو يشير إلى أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال بعد تأمير زيد: "فإن قتل زيد فالأمير جعفر بن أبي طالب فإن قتل فعبد الله بن رواحة فإن قتل فليرتض المسلمون رجالاً من بينهم يجعلونه عليهم أميراً" وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مشيعاً لذلك الجيش إلى ثنية الوداع فوقف وودعهم وقال لهم موصياً: "أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً اغزوا باسم الله في سبيل الله من كفر بالله لا تغدروا ولا تَعْلُوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً ولا منعزلاً بصومعة ولا تقربوا نخلاً ولا تقطعوا شجراً ولا تدموا بناءً".

ولما فصلوا من المدينة سمع العدو بمسيرهم فقام شرحبيل بن عمرو الغساني فجمع أكثر من مائة ألف وقدم الطلائع أمامه فلما نزل المسلمون وادي القرى بعث أخاه سدوس بن عمرو في خمسين من الكفار فاقتتلوا مع المسلمين وقتل سدوس وانكشف أصحابه ونزل المسلمون معان وبلغهم كثرة العدو حيث بلغهم أن هرقل نزل البلقاء في مائة ألف من مشركي الروم مع ما

انضم إليهم من لحم وجماد وقيس وبهرايم يبلغون مائة ألف وهم الذين جمعهم شرحبيل ومعهم خيول كثيرة فقال المسلمون: نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنخبره الخبر فيما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمر فنمضي له فشجعهم عبد الله بن رواحة رضي الله عنه على المضي وقال: يا قوم والله إن التي تكروهن للتي خرجتم إياها تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فيما هي إحدى الحسينيين... فمضوا إلى مؤتة ولقاهم المشركون بذلك العدد مع ما عندهم من الخيل والكرام والسلاح ورغم ذلك ثبت لهم الصحابة وقاتلهم وهذا يدل [على فرط شجاعة الصحابة رضي الله عنهم وقوة قلوبهم وتوكلهم على ربه وعدم مبالاةهم بأنفسهم لأنهم باعواها لله تعالى إذ أقدم ثلاثة آلاف على أكثر من مائتي ألف أصحاب حروب وشدة وهذا إنما هو لما قر في قلوبهم واطمأنت عليه نفوسهم من الثقة... وإن جندنا لهم الغالبون]¹.

وما أحوج المسلمين اليوم لهذه الإيمانيات الوافرة والنفوس المطمئنة للقاء عدوهم وكما أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد أخذ الراية زيد بن حارثة رضي الله عنه فقاتل وقاتل معه المسلمون على صفوفهم حتى قتل طعناً بالرمح رضي الله عنه. ثم أخذ اللواء جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فقاتل به وهو على فرسه فأجحه القتال وأحاط به فنزل عن فرس له شقراء فعقرها وقاتل حتى قتل وكان رضي الله عنه حين اشتد القتال وأحاط به العدو يقاتل ويقول:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

¹ انظر سيرة سيدي أحمد زيني دحلان.

والروم روم قد دنا عذاهما كإفرة بعيدة أنسأهما

علـيَّ إذ لاقيتها ضـراهما

ولما أخذ اللواء قاتل قتالاً شديداً حتى قطعت يمينه فأخذه بيساره
فقطعت يساره فاحتضنه وقاتل حتى قتل رضي الله عنه ووجد فيه بضع وسبعون
وفي رواية وتسعون جرحاً ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح ليس فيها شيء في
ظهره ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ثم تقدم به وهو على فرسه
فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ثم قال:

أقسمت يا نفس لتنزلنـه كارهة أو لتطيعنـه
إن أجلب الناس وشدوا الرنـه مالي أراك تكـرهين الجنـه

ثم نزل عن فرسه وقاتل حتى قتل رضي الله تعالى عنه وبهذا يكون
القادة الثلاثة الذين عينهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد (قَاتَلُوا الْكُفْرَ)
أي أهله في تلك المعركة بإقدام وشجاعة (وَمَاتُوا) رضي الله تعالى عنهم
وأرضاهم (شَهِدَا) وقد أخبر عليه الصلاة والسلام أصحابه بذلك قبل أن يأتيه
الخبر حيث قال لأصحابه وهم في المدينة والجيش يقاتل في الشام أخذ الراية زيد
فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب ثم أخذ ابن رواحة فأصيب وعينه تذر فان ثم
أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم. وقد أخبر عن جعفر أن
الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث يشاء ولذلك لقب بالطيار.
وأشار الناظم إلى أخذ خالد للراية بقوله (وَأَنْبَرِي خَالِدٌ لِلْأَمْرِ) أي لأمر القيادة
فإنه بعد مقتل ابن رواحة رضي الله عنه أخذ اللواء ثابت بن أرقم العجلاني
وكان من أهل بدر وقال يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم قالوا:

أنت قال: ما أنا بفاعل فاصطلحوا على خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه، وفعالاً كما ذكر الناظم بأنه انبرى للأمر أي قام به خير قيام حيث قاتل يومه ذلك قتالاً شديداً حتى قتل من الأعداء مقتلة عظيمة وأصاب غنيمة عظيمة حتى انكشف جيش عدوه وانقطع في يد خالد يومئذ تسعة أسياف حتى ما بقي في يده إلا صفيحة يمانية - أي سيف من صنع اليمن - .

ثم إن خالداً فكر في الأمر ملياً (ولم يترك الجيش) الصغير الصامد أمام العدو الكثير والذي قد حقق انتصاراً (لِيفْنَى مُجْهِدًا) عندما تتوالى عليه الأيام وهو في ساحة الجهاد لهذا الكم الهائل فاهتدى لمكيدة تجعله ينسحب دون أن يتمكن العدو من مطاردتهم وإعمال السيف في رقابهم. و(عادٍ) أي خالد رضي الله تعالى عنه (بالقوم) أي بالجيش سالمًا من العدو (إلى يثرب) أي إلى المدينة وكان رجوعه بالجيش (في مظهر) من المظاهر التي توحى بالنصر في باطنه وإن كان في الظاهر أنه تقهقر ورجوع حتى قال له من قال: أنتم الفارون، ولكن رجوعه بالجيش (سرَّ النبي المقتدى) عليه الصلاة والسلام حيث رأى جيش المسلمين سالمًا وسره النصر المبطن في هذه الواقعة حيث كان جيش الرومان أضعافاً مضاعفة كما أسلفنا ولم يستطع التغلب على هذا الجيش الصغير ولم يخسر هذا الجيش إلا عددًا يسيراً من أفراده بمقابل العدد الهائل الذي خسره جيش العدو حتى قال عليه الصلاة والسلام مظهرًا لذلك الأمر: "بل هم الكارون" جواب من قال: هم الفارون. وكيف لا يهتدي إلى ما قام به وقد (قال طه) صلى الله عليه وآله وسلم (سيفُ ربي خالد) أي وصفه كما قد مر بأن الذي أخذ الراية سيف من سيوف الله تعالى، وخاصة أن رياح النصر في أيام لقاءهم مع العدو كانت لهم مع أنهم لم يخسروا في حربهم تلك مع كثرة

عدوهم إلا ما أسلفنا من العدد، وقد كثر القتل في العدو. (وبه) أي بإمرته رضي الله عنه لجيش المسلمين (النصر الجلي) أي الواضح (أنقدا) أي تم للمسلمين على عدوهم حيث أنه لما أصبح وضع خطة أريك بها العدو وهي مكيدة منه تخلص بها من الأعداء وذلك بتغييره لأوضاع الجيش وتعبئته من جديد وإعادة ترتيبه فجعل مقدمته سافة وميمنته ميسرته وميسرته ميمنته فلما رآهم الأعداء أنكروا حالهم وقالوا جاءهم مدد فرعبوا وصار خالد بعد أن تراءى الجيشان وتناوشا ساعة يتأخر بالمسلمين قليلاً قليلاً ولم يتبعه الرومان خشية أن تكون مكيدة من المسلمين لهم ورجع الرومان لبلادهم دون أن يفكروا في مطاردة المسلمين، وبهذا تم النصر للمسلمين باطنا وإن انسحبوا ظاهراً.

سرية عمرو بن العاص: إلى بلاد بلى وعذرة وهي وراء وادي ذات القرى وبلى قبيلة كبيرة ينتسبون إلى بلى بن عمرو بن الحاف بن قضاة وهي تسمى سرية ذات السلاسل.

وسميت كذلك لأن بها ما يسمى السلسل وكانت في جمادى الآخرة في السنة الثامنة للهجرة.

وسببها أن جمعاً من قضاة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا من أطراف المدينة فبعث إليهم عمرو بن العاص في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار وإنما اختاره لأن أم أبيه كانت من بلى وخرج بمن معه يكمن النهار ويمشي الليل فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعاً كبيراً فأرسل يطلب مدداً من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأرسل إليه أبو عبيدة في مائتين من كبار سراة المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر وأمر أبا عبيدة أن يلحق بعمرو ولا يختلفا فلما لحق به أبو عبيدة أراد أبو عبيدة أن يؤم القوم فقال عمرو إنما قدمت

عليّ مدداً وأنا الأمير فأطاعه أبو عبيدة لأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له أن لا يختلفا. وسار حتى وطئ بلاد قضاة فهربوا وتفرقوا.

سرية أبي قتادة إلى خضرة من أرض نجد: واسم أبي قتادة الحرث وقيل عمرو أو النعمان بن ربيعي الأنصاري بعثه صلى الله عليه وآله وسلم إلى خضرة وهي أرض محارب بنجد في شعبان في السنة الثامنة للهجرة وذلك لأن بني غطفان احتشدوا في ذلك الموضع وكان خروج أبي قتادة مع خمسة عشر رجلاً فأغاروا عليهم وقتلوا منهم وسبوا وغنموا.

غزوة فتح مكة:

ويسمى الفتح الأعظم وسبب ذلك أن قريشاً نقضت عهدها مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي أبرمته معه في صلح الحديبية حيث أننا أسلفنا هناك بأن خزاعة دخلت في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودخلت بنو بكر في عهد قريش فأصبحت كل قبيلة في أمان من الأخرى إلا أن بني بكر أرادوا أن يصيبوا من خزاعة الثأر القدم فأغاروا عليهم وقتلوا منهم رجالاً وأعانتهم قريش على ذلك ظناً منهم أنه لا يعلم بهم أحد وأرسلت خزاعة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم تستصرخه وتطلب منه النصر وتحقيق العهد وتخبره أن قريشاً نقضوا عهدهم ثم إن قريشاً ندمت بعد ذلك وأرسلت إليه أبا سفيان يجدد العهد ويمد في المدة فلم يجبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشيء وحاول الاتصال بكبار الصحابة ليكلموا له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك فلم يجبه إلى ذلك أحد ورجع بخيبة أمل ولما وصل صريخ خزاعة إلى نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم يستنصره وينشده شعراً قال فيه:

يارب إني ناشد محمداً حلف أبيناً وأبيته الأتليدا
 قد كنتم وُلدًا وكُنَّا وَالِدًا ثَمَّةً أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا
 فَانصُرْ هَذَاكَ اللهُ نَصْرًا أَعْتَدَا وَاذْغُ عِبَادَ اللهِ يَأْتُوا مَدَدَا
 فِيهِمْ رَسُولُ اللهِ قَدْ بَجَّرَدَا إِنَّ سِيَمَ خَسَفًا وَجْهَهُ تَرَبَّدَا
 فِي قَيْلِقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزِيدَا إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُواكَ الْمُوْعِدَا
 وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا وَجَعَلُوا لِي فِي كِدَائِي زُصَّدَا
 وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُوا أَحَدَا وَهُمْ أَذْلُ وَأَقْلُ عَدَدَا
 هُمْ بَيِّتُونَا بِالْهَجِيرِ هُجَّدَا وَقَتَّلُونَا رَكْعًا وَسُجَّدَا

إلى آخر الأبيات. ورق لذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال للقاتل وهو عمرو بن سالم الخزاعي: "نصرت يا عمرو بن سالم" ثم عرضت له سحابة من السماء فقال: "إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب" ثم أخذ يعد العدة لفتح مكة ودعا الله أن يأخذ العيون عنه حتى يفجأ قريشاً، وعمى عن الناس حتى أنه عليه الصلاة والسلام أمر عائشة قبل أن يأتي إليه خبر نقض الميثاق بثلاثة أيام أن تجهزه ولا يعلم أحد فدخل عليها أبو بكر فقال يا بنية ما هذا الجهاز؟ قالت: والله ما أدري فقال: والله ما هذا زمان غزو بني الأصفر فأين يريد رسول الله؟ قالت: والله لا علم لي وفي صباح الثامنة جاء عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً وارتجز الأبيات فعلم الناس بنقض الميثاق.

ثم قبل خروجه وعلم الناس إلى مقصده زيادة في التعمية بعث عليه الصلاة والسلام أبا قتادة بن ربعي في سرية تتكون من ثمانية أشخاص إلى بطن

أضُم فيما بين ذي خشب وذي المروة على ثلاثة برد من المدينة وكان ذلك في أول شهر رمضان سنة ثمان للهجرة وسارت تلك السرية إلى المكان التي أمرت بالسير إليه فلما وصلت إليه بلغها خروج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى مكة فلحقت به .

وكتب حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه وكان من أهل بدر يخبر قريشاً بمسير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليهم ليتخذ يداً عندهم لكي يراعوا بها أهله الذين لا عشيرة لهم هناك . أي في مكة . تدافع عنهم وأرسله مع امرأة وجعل لها جعلاً ووضعته تلك المرأة في عفاص رأسها فأعلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم خبرها وأرسل في طلبها علياً والمقداد واستخلصاه منها وعاتب حاطباً واعتذر إليه بما أسلفنا وأغلظ عمر رضي الله عنه القول لحاطب حتى طلب من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يضرب عنقه قائلاً: إنه خان الله ورسوله وقد نافق فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إنه قد شهد بدرًا وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" فذرفت عينا عمر وقال الله ورسوله أعلم.

وقد أخذ الله الأعين عن خروج رسول الله عليه الصلاة والسلام ومن معه فلم يبلغ إلى قريش خبرهم ف(بعد عشرين) ليال خلون من شهر رمضان المبارك سنة ثمان للهجرة (جاء) أي الأمر بالخروج فخرج متوجهاً إلى مكة وقد كان (فتح مكة) أي حقق الله له ذلك حيث خرج في عشرة آلاف مقاتل واستخلف على المدينة أبا رهم الغفاري ولما وصل الجحفة لقيه عمه العباس بن عبد المطلب وكان قد خرج مهاجراً بأهله وعياله وكان رضي الله عنه مسلماً وهو

في مكة مستخفياً أمره بذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكي يكون عيناً له على قريش.

روى الطبراني عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: استأذن العباس النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الهجرة فكتب إليه: "يا عم أقم مكانك الذي أنت فيه فإن الله يختم بك الهجرة كما ختم بي النبوة". ولما لقيه قال له: "هجرتك يا عم آخر هجرة كما أن نبوتي آخر نبوة".

ولما وصل الأبناء لقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث وابن عمته عبد الله بن أبي أمية فأعرض عنهما لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى والهجو فقالت له أم سلمة رضي الله عنها: لا يكن ابن عمك وابن عمك أشقى الناس بك وقال الإمام علي رضي الله تعالى عنه لأبي سفيان بن الحارث: ائت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: (قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطفين) فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً ففعل ذلك أبو سفيان فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (لا تشرب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) فأنشده أبو سفيان أبياتا منها:

لعمرك إني حين أحمل راية لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله فهذا أولاني حين أهدى فاهتدى
هداني الله غير نفسي ودلني على الله من طردته كل مطرد
فضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على صدره وقال: "أنت طردتني كل مطرد" ويقال أن أبا سفيان بن الحارث لما أسلم ما رفع رأسه إلى

وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حياً منه وكان صلى الله عليه وآله وسلم يحبه ويشهد له بالجنة ولزم ركاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم حنين لما انهزم القوم عنه وكان عليه الصلاة والسلام يقول فيه: "أرجو أن يكون خلفاً من حمزة" وقال له "كل الصيد في جوف الفرا".

ووصل الجيش إلى مر الظهران وعسكر هناك وأُتِيَ القبض على أبي سفيان لما خرج يتجسس الأخبار وأجاره العباس رضي الله عنه وأتى به النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمر النبي عليه الصلاة والسلام العباس أن يقيه عنده حتى الصباح فلما أصبح قال له العباس: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك، فأسلم وشهد شهادة الحق.

وقال العباس يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً قال: "نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن".

وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العباس أن يجس أبا سفيان بمر الظهران حتى يشاهد الجيش الإسلامي عند عبوره المضيق ففعل وهكذا مرت القبائل وهو يسأل عنها ويجاب حتى مر الرسول في أصحابه من المهاجرين فقال له العباس: النجاء إلى قومك فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة وصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحميت¹ الدسم الأخمس الساقين قبح من طليعة قوم، قال أبو سفيان:

¹ (الحميت: الزق الذي لا شعر له وهو للسمن. والأخمس: مأخوذ من الخمش وهو الخدش في الوجه وقد يستعمل في سائر الجسم. انظر لسان العرب).

ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاء بما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد. وقدّموا أخلاط الناس للقتال وقالوا: نقدم هؤلاء فإن كان لقريش شيء كنا معهم وإن أصيبوا أعطينا الذي سألنا فتجمع سفهاء قريش وأخلاطها مع عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو بالخدمة ليقاتلوا المسلمين ثم مضى صلى الله عليه وآله وسلم حتى وصل إلى ذي طوى وكان يضع رأسه تواضعاً لله تعالى حتى أن شعر لحيته ليكاد يمس رحله. ولما وصل هناك وَرَّعَ جيشه فكان خالد بن الوليد على الجنبه اليمنى وفيها أسلم وسليم ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب وأمره أن يدخلها من أسفلها، وقال: "إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصداً حتى توافوني على الصفا".

وكان الزبير بن العوام على الجنبه اليسرى وكان معه راية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ف(مدخلوها من كدي) وأمره أن يغرز رايته بالحجون ولا يبرح حتى يأتيه. (و) أمر سعد بن عبادة أن يدخل مكة من أعلاها من (كدا) وكان أبو عبيدة على الرِّجَالِ أي المشاة وأمرهم أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم ودخلت تلك الكتائب من حيث أمرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يلقوا قتالاً إلا كتيبة خالد فإنه لقيه سفهاء قريش والأوباش منهم في الخدمة، فناوشوهم فقاتلوهم فقتل من قريش اثني عشر رجلاً وقيل أربعة وعشرون رجلاً وانحزم الباقون وأقبل خالد حتى وافى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الصفا، وأما الزبير رضي الله عنه فنصب رايته حيث أمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالحجون عند مسجد الفتح، ولم يبرح

حتى جاءه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ثم تقدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله، حتى دخل المسجد فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه ثم طاف بالبيت وفي يده قوس وكانت الأصنام على البيت وحوله ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يشير إليها قائلاً (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً)، (وجاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد) والأصنام تتساقط على وجوهها وطاف وهو على راحلته ثم دعا بعثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة وأمر بها أن تفتح ففتحت فدخلها فرأى فيها الصور ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يستقسمان بالأزلام فقال: "قاتلهم الله والله ما استقسما بما قط" وأمر بالصور فمحييت، ثم تجلى (مظهرٌ أبدي) - أي أظهر كمال رحمته - لأن الله غرس فيه ذلك منذ أن ركبته وخلقه في سائر أطوار الخلقة إذاً ف(مقام أحمد) عليه الصلاة والسلام تجلى واضحاً حيث ظهرت رحمته التي ذكرها الله تعالى في قوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فقد ناله من قريش ما ناله من أذى، ولكن تجلت الرحمة التي ركبت فيه بل كانت هي هو (إذ عفا عنهم) كلهم (ولم يؤثق يدا) من أحدهم وهو كناية عن إطلاق سراحهم ولم يأمر بقتل أحد منهم إلا أولئك النفر الذي أمر بقتلهم قبل دخول مكة وإن تعلقوا بأستار الكعبة وقد قال قولته المشهورة التي أبدت مظاهر رحمته على أشد أعدائه عندما قال: "يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم" فقالوا: أخ كريم وابن أخ كريم قال: "فإني أقول لكم كما قال يوسف لأخوته (لا تثريب عليكم اليوم) اذهبوا فأنتم الطلقاء".

ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد وطلب منه العباس أو علي أن يجمع لهم بين الحجابة مع السقاية فقال صلى الله عليه وآله

وسلم أين عثمان بن طلحة؟ فدعي له فقال له: "هاك مفتاح الكعبة يا عثمان اليوم يوم بر ووفاء" وفي رواية خذوها "خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف".

وبهذا الفتح العظيم (ررفت راياتُ دينِ الحقِّ في مكةٍ) وارتفع صوت الحق وأذن بلال على سطح الكعبة وظهر دين الله وفشا (والشُّركُ فيها) أي في مكة (انخمدًا) أي انطفأ فما هي إلا سنة بعد فتح مكة ونادى المنادي: أن لا يدخل مكة مشرك ولا يطوف بالبيت عريان.

تخوف الأنصار:

وقد تخوف الأنصار من بقاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مكة بعد فتحها فقالوا فيما بينهم وهو يدعو على الصفا رافعاً يديه أترون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم فيها. فلما فرغ من دعائه قال لهم: "ماذا قلتم؟" قالوا: لا شيء فلم يزل بهم حتى أخبروه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم". وأقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة تسعة عشر يوماً يجدد معالم الإسلام ويرشد الناس إلى الدين.

وبث سراياه للدعوة إلى دين الله تعالى وكسر الأوثان التي كانت حول مكة حتى أنه لم يدع صنماً حولها إلا كسره.

السرايا والبعوث:

يقول المباركفوري: [1]. ولما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد الفتح بعث خالد بن الوليد إلى العزى لخمس ليال بقين من شهر رمضان

(سنة 8هـ) ليهدمها، وكانت بنخلة، وكانت لقريش وجميع بني كنانة، وهي أعظم أصنامهم، وكان سدنتها بني شيبان، فخرج إليها خالد في ثلاثين فارساً حتى انتهى إليها، فهدمها، ولما رجع سأله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هل رأيت شيئاً؟ قال: لا قال: فإنك لم تهدمها، فارجع إليها فاهدمها، فرجع خالد متغيظاً قد جرد سيفه، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس، فجعل السادن يصيح بها، فضربها خالد فجزلها باثنتين، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره، فقال: نعم، تلك العزى، وقد أيست أن تعبد في بلادكم أبداً.

2. ثم بعث عمرو بن العاص في نفس الشهر إلى سواع ليهدمه، وهو صنم لهذيل برهاط، على ثلاثة أميال من مكة، فلما انتهى إليه عمرو قال له السادن: ما تريد؟ قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أهدمه، قال: لا تقدر على ذلك، قال: لم؟ قال: تمنع. قال: حتى الآن أنت على الباطل؟ ويحك، فهل يسمع أو يبصر؟ ثم دنا فكسره، وأمر أصحابه فهدموا بيت خزانته، فلم يجدوا فيه شيئاً، ثم قال للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله.

3- وفي الشهر نفسه بعث سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارساً إلى مناة وكانت بالمشلل عند قديد للأوس والخزرج وغسان وغيرهم، فلما انتهى سعد إليها قال له سادتها: ما تريد؟ قال: هدم مناة، قال: أنت وذاك، فأقبل إليها سعد، وخرجت امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس، تدعو بالويل، وتضرب صدرها، فقال لها السادن: مناة دونك بعض عصاتك. فضربها سعد فقتلها، وأقبل إلى الصنم فهدمه وكسره، ولم يجدوا في خزانته شيئاً.

4. ولما رجع خالد بن الوليد من هدم العزى بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في شوال من نفس السنة (8هـ) إلى بني جذيمة داعياً إلى الإسلام لا مقاتلاً، فخرج في ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار وبني سليم، فانتهى إليهم فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: "صبأنا صبأنا" فجعل خالد يقتلهم ويأسرهم، ودفع إلى كل رجل ممن كان معه أسيراً، فأمر يوماً أن يقتل كل رجل أسيره، فأبى ابن عمر وأصحابه حتى قدموا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فذكروا له، فرفع صلى الله عليه وآله وسلم يديه وقال: "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد" . مرتين ..

وكانت بنو سليم هم الذين قتلوا أسراهم دون المهاجرين والأنصار، وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً فودى لهم قتلاهم وما ذهب منهم، وكان بين خالد وعبد الرحمن بن عوف كلام وشر في ذلك، فبلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: "مهلاً يا خالد، دع عنك أصحابي، فوالله لو كان أحد ذهباً ثم أنفقت في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته" [أهـ].

غزوة حنين:

(و) بعد غزوة مكة أو فتح مكة كانت غزوة (حُنَيْنٍ) وهو اسم موضع¹ من طريق الطائف إلى جنب ذي المجاز، وذو المجاز سوق في الجاهلية، وقيل حنين اسم لما بين مكة والطائف وتسمى غزوة أوطاس وهو اسم لموضع كانت به الوقعة. وتسمى أيضاً غزوة هوازن وهوازن قبيلة كبيرة من العرب.

وسبب الغزوة أنه لما فتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة تشاور أشرف هوازن وثقيف على قتاله خوفاً من أن يسير إليهم وقيل أنهم كانوا

¹ "انظر السيرة النبوية والآثار المحمدية لسيدى أحمد زيني دحلان.

يريدون قتاله قبل فتح مكة وأنهم أقاموا سنة يجمعون له العدة لخره عليه الصلاة والسلام، وبعد فتح مكة قالوا لا نهاية له دوننا وعزموا على أن يغزوه قبل أن يغزوه، وقال بعضهم: ما لاقى محمد قوماً يحسنون القتال. فأجمعوا أمرهم على قتاله وجعلوا أمرهم إلى مالك بن عوف وقد جمع معه كثير من العرب ومنهم قبيلة بني سعد ومعهم دريد بن الصمة وهو شيخ كبير قيل تجاوز المائة والخمسين من السنين، وهو مجرب الحروب ذو شجاعة ولكنه شاخ وعمي وليس له إلا الرأي، واشترط بنو سعد بن بكر أن يأخذ مالك بن عوف برأيه ونزل مالك بالقوم إلى أوطاس وقد تجمع إليه الناس وقد أمرهم أن يسوقوا نساءهم وأموالهم وأبناءهم، فلما أحس بذلك دريد وسأل وأخبر ما أمر به مالك دعاه وقال له: ما حملك على ما فعلت؟ فقال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فقال: راعي ضأن والله. وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك.

ثم سأل دريد عن بعض البطون والرؤساء ثم قال: يا مالك إنك لم تصنع بيضة هوازن إلى نخور الخيل شيئاً، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعلياء قومهم ثم ألقى الصُّبَاء - جمع صابئ أراد بهم المسلمين - على متون الخيل فإن كانت لك لحق بك من وارك وإن كانت عليك ألك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك.

ولكن مالكا لم يقبل وقال: والله لا أطبعك إنك قد كبرت وضعف رأيك فقال: دريد لهوازن قد شرط أن لا يخالفني وقد خالفني فأنا أرجع إلى أهلي فمنعوه وقال مالك: والله لتطيعني هوازن أو لأتكنن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري وكره أن يكون لدريد فيها ذكر فقالوا أظعنك.

وأما خبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه فقد خرج يوم السبت السادس من شهر شوال من السنة الثامنة للهجرة وكان ذلك اليوم الذي غادر فيه مكة هو اليوم التاسع عشر من دخوله إلى مكة وقد خرج في اثني عشر ألفاً من المسلمين عشرة آلاف وهم من خرجوا معه لفتح مكة وألفان من أهل مكة وكلهم حديثو عهد بإسلام وقد استعار من صفوان بن أمية مائة درعا وقال: "له عارية مضمونة" عندما قال له: أغصباً يا محمد وكان صفوان على دين قومه.

وقد استقرض عليه الصلاة والسلام من نفر من قريش دراهم وزعها على أهل الضعف من أصحابه لكي يستعينون بها. واستعار أيضاً من نوفل بن الحرث بن عبد المطلب وهو ابن عمه صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة آلاف ربح وقال: "كأني أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين".

واستخلف على مكة عتاب بن أسيد رضي الله تعالى عنه ولما كان عشية ذلك اليوم جاء فارس فقال: إني طلعت جبل كذا وكذا فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: "تلك غنيمة للمسلمين غداً إن شاء الله".

وقد (أُعْجِبُوا) أي وقع العجب في بعضهم (لما رأوا كثرة الأتباع) أي الجيش الذي خرج به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الغزوة وقد (فَأَقْبُوا عَدَدًا) على جيش الكفار على رواية أنهم كانوا . أي الكفار . أربعة آلاف وعلى رواية أنهم ثلاثون ألفاً أي أن بعضهم حصل له العجب بعدد جيشه عليه الصلاة والسلام والذي لم يسبق أن خرج بجيش فيه مثل هذا العدد

الكثير فقال بعضهم لن نغلب اليوم عن قلة وقد شق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ووصل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه إلى حنين ليلة الثلاثاء لعشر خلون من شوال وكان مالك ومن معه قد سبقوا إلى الموقع فأدخل جيشه في وادي حنين، وفرق كمناء في الطرق والمداخل والشعاب والمضايق وأمرهم أن يرشقوا المسلمين بالنبل عند أول دخولهم ثم يشدوا عليهم شدة رجل واحد.

وسحراً عبأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جيشه وعقد الألوية واستقبل هو وأصحابه الوادي وشرعوا ينحدرون فيه وهم لا يدرون بوجود كمناء العدو. فعند انحدارهم في الوادي أمطروا عليهم السهام وحملت عليهم كتائب العدو حملة رجل واحد عندها انكشف المسلمون و(هُزِمُوا) راجعين (في كلِّ فجٍّ) أي طريق لا يلوون على أحد وكانت هزيمة منكراً حتى قال أبو سفيان وهو حديث عهد بإسلام لا تنتهي هزيمتهم دون البحر وصرخ جلبة بن جنيده: ألا بطل السحر اليوم يعني سحر النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وانحاز النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذات اليمين وثبت ولم يتأخر خطوة واحدة وثبت معه نفر قليل منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والعباس وابنه الفضل وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب ابن عمه عليه الصلاة والسلام وأسامة بن زيد وربيعة بن الحرث بن عبد المطلب وعتبة ومعتب بن أبي لهب وأيمن ابن أم أيمن وفيها استشهد أيمن هذا ونفر غيرهم يبلغ عددهم الثمانين أو أكثر قليلاً.

وقد تجلّت عليه الصلاة والسلام شجاعته في جميع المواقف وخاصة يوم أحد وكذا في يوم حنين فقد أخذ عليه الصلاة والسلام مع انكشاف أصحابه

يحرك بغلته ناحية الكفار وهو يقول: "أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب" إلا أن أبا سفيان بن الحارث كان آخذاً بلجام البغلة والعباس بركابها وكان يكفأها من الإسراع، ثم نزل عليه الصلاة والسلام واستنصر ربه قائلاً: "اللهم أنزل نصرك".

وأمر عليه الصلاة والسلام عمه العباس وكان جهوري الصوت أن ينادي أين أصحاب السمرة؟ قال العباس فلما ناديت فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها فقالوا: يا لبيك يا لبيك ويذهب الرجل ليثني بعيره فلا يقدر عليه فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلي سبيله فيؤم الصوت حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس واقتتلوا. ثم صرفت الدعوة إلى الأنصار يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار، ثم قصرت الدعوة في بني الحارث بن الخزرج، وتلاحقت كتائب المسلمين واحدة تلو الأخرى عندما سمعوا صوت العباس رضي الله عنه (وَأَنْتَهُوْا) أي وصلوا (نحو طه) عليه الصلاة والسلام أي إلى المكان الذي كان فيه عليه الصلاة والسلام ثابتاً لم يتحرك متوجهاً ناحية العدو وعند وصولهم كانوا (يَطْلُبُونَ الْمَدَدَ) منه عليه الصلاة والسلام فهو قدوتهم والنصر حليفهم إذا استنصروا به وثبتوا معه وعند رجوعهم إليه (وَجَدُوهُ صَابِرًا) لمقارعة العدو وقتاله لم يقع منه إلا الإقدام مع كونه (مُحْتَسِبًا) نفسه في سبيل الله موطئاً نفسه على النصر أو الشهادة لذلك (لَمْ يَفِرَّ) أي لم يحصل منه فرار (في القتالِ أبداً) لا في هذه المعركة ولا في غيرها عند ذلك نالهم المدد وأتاهم الثبات وتجادل الفريقان مجالدة شديدة ونظر عليه الصلاة والسلام إلى ساحة القتال وقد استحر القتال واحتدم فقال: "الآن حمي الوطيس"، ثم أخذ رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم قبضة من تراب الأرض فرمى بها في وجهه القوم وقال: "شاهت الوجوه" فما خلق الله إنساناً منهم إلا ملاً عينيه تراباً من تلك القبضة وعندها (أنزل الله جنوداً) أي ملائكة (لم تُرأ) تشبيهاً للمسلمين (فجعلوا) أي صيروا (أعداءً طه) عليه الصلاة والسلام (بمدداً) أي متفرقين حيث حلت بهم الهزيمة وتركوا ما معهم من مال وسلاح وظعن وإلى ذلك أشار المولى في كتابه بقوله: (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاحت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين).

ولما انهزم الكفار تفرقوا ثلاث فرق فرقة منهم انهزمت إلى الطائف وتحصنوا فيه وأخرى إلى أوطاس وأرسل إليهم من يطاردهم بقيادة أبي عامر الأشعري فكانت مناوشة بينه وبينهم انهزم إثرها جيش المشركين وقتل فيها قائد المسلمين أبو عامر والفرقة الثالثة سلكوا إلى نخلة فطاردتهم فرقة من المسلمين فأدركتهم ومعهم دريد بن الصمة وقتل والذي قتله ربيعة بن ربيع.

غزوة الطائف:

وأما الفرقة التي انهزمت إلى الطائف فخرج لها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وحاصر الطائف ورماهم بالمنجنيق وبقوا متحصنين فيه ثم قفل عليه السلام راجعاً لما علم أنهم لن يستطيعوا بعد ذلك أن يؤلبوا عليه أو يسيروا إليه لقتال، وبعض أهل السير يفرد غزوة الطائف ويجعلها غزوة في حد ذاتها، وبعضهم يجعلها تابعة لغزوة حنين وأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الغنائم وكانت كثيرة جداً أما السبي فستة آلاف رأس وأما الإبل أربعة وعشرون ألفاً والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، ولما وصل إلى الجعرانة قسمها عليه

الصلاة والسلام وتألف بها رؤساء العرب ورؤساء قريش وجعل أكثرها فيهم ولم يعط الأنصار منها شيئاً فوجدوا في أنفسهم.

[روى ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة، حتى قال قائلهم: لقي الله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظيماً في قبائل العرب ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء، قال: "فأين أنت من ذلك يا سعد؟" قال يا رسول الله ما أنا إلا من قومي قال: "فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة" قال فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة قال: فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردهم فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال: لقد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار فاتاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: "يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم". قالوا: بلى الله ورسوله أمن وأفضل. ثم قال: "ألا تجيبوني يا معشر الأنصار" قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله، لله ولرسوله المن والفضل قال: "أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم آتيتنا مُكذِّباً فصدقتك ومخذولاً فنصرناك وطريداً فأويناك وعائلاً فأسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم

ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار". قال فبكى القوم حتى أحضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتفرقوا¹.

قدوم وفد هوازن:

قال المباركفوري: [وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلماً وهم أربعة عشر رجلاً ورأسهم زهير بن صرد وفيهم أبو برقان عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الرضاعة فسألوه أن يمن عليهم بالسي والأموال، وأدلوإ إليه بكلام ترق له القلوب فقال: إن معي من ترون وإن أحب الحديث إلي أصدقته فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ قالوا ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً فقال إذا صليت الغداة - أي صلاة الظهر - فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المؤمنين ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يرد إلينا سبينا فلما صلى الغداة قاموا فقالوا ذلك. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وأسأل لكم الناس فقال المهاجرون والأنصار ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا وقال عيينة بن حصن أما أنا وبنو فزارة فلا وقال العباس بن مرداس أما أنا وبنو سليم

¹ "سيرة ابن هشام ج4/ص152.

فلا فقالت بنو سليم ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال العباس بن مرداس وهنتموني.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن هؤلاء القوم قد جاؤوا مسلمين وقد كنت استأنيت سبيهم وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئاً. فمن كان عنده منهن شيء فطابت نفسه بأن يرده فسيبيل ذلك. ومن أحب أن يستمسك بحقه فليرد عليهم وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفيء الله علينا فقال الناس قد طيبنا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال إنا لا نعرف من رضي منكم ممن لم يرض فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم لم يتخلف منهم أحد غير عيينة بن حصن فإنه أبا أن يرد عجزاً صارت في يديه منهم، ثم ردها بعد ذلك وكسا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السي قطبية قطبية[اه].

السرايا والبعوث بعد رجوعه عليه الصلاة والسلام من غزوة الفتح وحين:

1- سرية عيينة بن حصن الفزاري في محرم سنة تسع للهجرة إلى بني تميم في خمسين فارساً لأنهم منعوا القبائل المسلمة من دفع الزكاة لعامله عليه الصلاة والسلام.

2- سرية قطبة بن عامر إلى حمى من خثعم بناحية قبالة بالقرب من تربة في صفر سنة تسع للهجرة.

3- سرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب في ربيع الأول سنة تسع للهجرة بعثه لدعوة بني كلاب للإسلام فأبوا فقاتلهم المسلمون وهزموهم وقتلوا منهم رجلاً.

4. سرية علقمة بن مجرز المدلجي إلى سواحل جدة في شهر ربيع الأول سنة تسع للهجرة في ثلاثمائة لصد القرصنة من الحبشة الذين اجتمعوا في سواحل جدة للقيام بأعمال القرصنة ضد أهل مكة فلما سمعوا بوصول السرية خافوا وهربوا.

5. سرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى صنم طيء يقال له العليس ليهدمه في شهر ربيع الأول سنة تسع للهجرة بعثه، في مائة وخمسين فشن الغارة على محلة آل حاتم الطائي مع الفجر وحرَّق الصنم بعد هدمه ووجد في خزائنه ثلاثة أسياف وثلاثة أدرع وغنم سببياً ونعماً وشاء وفضة. وكان في السبي أخت عدي بن حاتم فلما وصلوا المدينة استعظفت النبي أخت عدي بن حاتم فمَنَّ عليها.

غزوة تبوك في رجب في السنة التاسعة للهجرة:

وتبوك مكان معروف وهو من المدينة على أربعة عشر مرحلة جاءها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهم ينزفون ماءها بقدح فقال: "ما زلتم تبوكونها" فسميت حينئذ تبوك ذكره القتيبي وغيره¹.

وتسمى (غزوة العسرة) لوقوعها في شدة الجذب والحرِّ وقلّة الزاد والظهر. وهي مأخوذة من قوله تعالى: (الذين اتبعوه في ساعة العسرة)² روى عبد الرزاق أنهم خرجوا في قلة من الظهر مع كثرتهم وفي حر شديد حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما في كرشه من الماء فسميت غزوة العسرة أي الشدة والضيق.

¹ "انظر شرح ابن الأثير على بهجة المحافل. انظر السيرة النبوية والآثار المحمدية لسيد أحمد زيني دحلان." ²

وتسمى الفاضحة أيضاً لأنها فضحت المنافقين عندما قالوا لا تنفروا في الحر فضحهم الله بذكر ما قالوه من نفاق في آيات كثيرة من سورة التوبة، وسورة التوبة هي التي سماها ابن عباس رضي الله عنهما الفاضحة.

ومن هنا يظهر أن الغزوة هذه فضحتهم عندما تخلفوا عن الخروج فيها وهم ما يقارب الثمانون، وفضحت من خرج فيها من المنافقين وما قاموا به من أعمال وأقوال تدل على نفاقهم وما حصل لمسجدهم من خراب بعدها. وكل ذلك ذكره الله مسطراً في سورة التوبة ففضحت هذه الغزوة نفاقهم بالتخلف وما فعلوه فيها.

وسبب هذه الغزوة: أنه صلى الله عليه وآله وسلم بلغه من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم تجمعت بالشام مع هرقل وهو قيصر ملك الروم واجتمعت معهم لحم وجذام وعاملة وغسان وغيرهم من متنصرة العرب وجاءت مقدمتهم إلى اللقاء أي أنهم يريدون غزو المدينة حتى تخوف الصحابة من ذلك "1".

فلما بلغه ذلك ندب الناس إلى الخروج وأعلمهم بوجهته حتى يتهيأوا لذلك ويتأهبوا الأهبة الكاملة خاصة وأن وقت خروجه كان في حر شديد وقحط شديد كما أسلفنا.

روى البخاري ومسلم عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: لم يكن صلى الله عليه وآله وسلم يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها في حر شديد واستقبل سفيراً بعيداً وغزا عدداً كثيراً فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوتهم بالوجه الذي يريد وبهذا تكون هذه الغزوة (فاقّت مثلاً)

انظر السيرة النبوية والآثار المحمدية "1".

على مثيلاتها من الغزوات (واختيارا) أي لذلك الوقت التي كانت فيه من شدة الحر وشدة القحط وطيب الثمار ولعل الله ورسوله أرادا ذلك لكي يحى من حي عن بينة في الإيمان ويحى من حي عن بينة في النفاق اختار المسلمون النهوض للقتال مع ما كان بهم ولم يرض أحد منهم في التخلف وأخذوا يسارعون في التجهز للغزو وأخذت القبائل تمهبط إلى المدينة من كل حدب وصوب ولم يتخلف عنها إلا من كان في قلبه مرض النفاق، والثلاثة الذين خلفوا ولم يكونوا منافقين وكذلك من تخلف من المؤمنين وهم البكاؤون الذين جاءوا يستحملونه صلى الله عليه وآله وسلم فلم يجد ما يحملهم عليه ولا على من به مرض أو قام به عذر وقد عناهم الله تعالى بقوله: (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم. ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم عليه قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون...).

وتسابق المسلمون في إنفاق الأموال وبذل الصدقات (مثلاً) أي كما (قد ورداً) ذلك في الأخبار والألف للإطلاق سواء في كتاب الله تعالى أو في الآثار عن من أنفق. ومنهم الباذل السخاء ومنهم من صرف ماله كله في سبيل الله ومنهم من بذل ما يجد، حتى قال تعالى: (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم) وكان أول من جاء بصدقاته لتجهيز هذه الغزوة بعد حث النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وأرضاه، فجاء بماله كله أربعة آلاف درهم فقال صلى الله عليه وآله وسلم: "هل أبقيت لأهلك شيئاً" قال:

أبقيت لهم الله ورسوله، وجاء سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه وأرضاه بنصف ماله فسأله عليه الصلاة والسلام: "هل أبقيت لأهلك شيئاً؟" قال: نصف مالي.

وجاء العباس بمال كثير وجاء طلحة وسعد بن عباد و محمد بن مسلمة كلهم جاؤوا بمال، وجاء عاصم بن عدي بتسعين وسقاً من تمر وكان عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه وأرضاه قد جهز عيراً للشام ممثلاً بعير بأقتابها وأحلاسها وممثلة أوقية فجعلها في سبيل الله، ثم جهز رضي الله عنه ثلث الجيش حتى كان يقال ما بقيت لهم حاجة حتى كفاهم شفق أسقيتهم.

وروي عن قتادة أنه قال حمل عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة على ألف بعير وسبعين فرساً وجاء رضي الله عنه بألف دينار وقيل عشرة آلاف دينار وصيها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (فماز عثمان) رضي الله تعالى عنه (بإنفاقٍ) ما ذكر حتى أنه عليه الصلاة والسلام أخذ يقلب تلك الدنانير كما في رواية أحمد وهو يقول: "ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم".

وبهذه الطريقة تجهز الجيش الإسلامي وكان جيشاً كبيراً لم يخرج بمثله كان قوامه ثلاثون ألفاً وقيل أكثر وتحرك بذلك الجيش النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان تحركه وخروجه صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة يوم الخميس وكان يجب أن يخرج فيه وذلك لخمس خلون من رجب.

واستخلف على خاصته ومن ترك علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه فعيّره المنافقون بالتخلف فلحق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فردّه إلى المدينة وقال له: "ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا

أنه لا نبي بعدي". فقال رضيت رضيت رضيت. وتوجه عليه السلام لتلقاء الشام فلما مر بالحجر ديار ثمود قال: "لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين". ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي فلما وصل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى تبوك وهي أدنى بلاد الروم أتاه يُحَنَّة بن زُوْبَةَ وأهل جَرْبَا وأذْرُح فصالحهم على الجزية وكتب لهم بذلك كتاباً.

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو بتبوك خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى أُكَيْدِر بن عبد الملك الكندي صاحب دومة الجندل وقال: "إنك تجده يصيد بقرًا" فمضى خالد في أربعمئة وعشرين فارساً حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين في ليلة مقمرة كمن خالد وجاءت بقر الوحش حتى حكمت قرونها بباب القصر فخرج إليها أكيدر في جماعة من خاصته فلقبهم خيل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخذوا أكيدر وقتلوا أخاه حساناً وأتوا به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحقت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دمه وصالحه على الجزية وكان نصرانياً. وأقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تبوك عشرين ليلة ولم يجاوزها إلى غيرها ثم قفل راجعاً ولم يلق كيداً لأن الرومان لما سمعوا به رعبوا وانخذلوا.

ولما كان ببعض الطريق مات ذو البجادين المزني واسمه عبد الله بن عبد وقيل ابن سهم عمُّ عبد الله بن مغفل وسمي بذئ البجادين لأنه حين أراد المسير إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قطعت أمه بجادها وهو كساء شقته باثنين فاتزر بواحد وارتدى بالآخر.

قال ابن مسعود: فرأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حفرة وهو يقول لأبي بكر وعمر: "أدليا أحاكما" فدلياه إليه فلما هياه لشقه قال: "اللهم إني قد أمسيتُ راضياً عنه فارض عنه" قال ابن مسعود حينئذ يا ليتني صاحب الحفيرة.

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جبريل وهو بتبوك فقال يا محمد اشهد جنازة معاوية بن معاوية المزني فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونزل جبريل عليه السلام في سبعين ألفاً من الملائكة فوضع جناحه الأيمن على الجبال فتواضعت ووضع جناحه الأيسر على الأرض فتواضعت حتى نظر إلى مكة والمدينة فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجبريل والملائكة عليهم السلام فلما فرغ قال: "يا جبريل بم بلغ معاوية هذه المنزلة؟" قال: بقراءته قل هو الله أحد قائماً وراكباً وماشياً رواه ابن السني والبيهقي¹.

وفي قفوله من تبوك عند العقبة حاول اثنا عشر رجلاً من المنافقين الفتك بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد استغلوا مرور النبي عليه السلام بالعقبة فتأمروا على أن يسرعوا ويزحموه فيها حتى يلقوه في الوادي وأخبر الله رسوله بذلك وسارعوا لتنفيذ خطتهم وتلثموا لكي لا يعرفوا وبيننا النبي عليه الصلاة والسلام يسير في العقبة ومعه عمار رضي الله عنه يقود بزمام الراحلة وحذيفة يسوقها إذ سمعوا وكزة القوم من ورائه قد غشوه فبعث النبي عليه الصلاة والسلام حذيفة فضرب وجوه رواحلهم بمحجن كان معه فأرعبهم الله فأسرعوا في الفرار حتى لحقوا بالقوم وأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حذيفة

¹ انظر بهجة المحافل للعامري.

بأسمائهم ولذلك كان حذيفة يسمى بصاحب سر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد قال الله تعالى عنهم (وهو بما لم ينالوا).

ولما نزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بزدي أوان . وهو وادٍ بينه وبين المدينة ثلاثة فراسخ . أتاه جبريل عليه السلام بخبر أهل مسجد الضرار وكانوا اثني عشر رجلاً فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مالك بن الدخشم ومعن بن عدي وأخاه عويمراً وعمراً بن السكن ووحشي قاتل سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه وقال لهم: "انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهلته فاهدموه وحرقوه" فخرجوا سراعاً حتى أتوه وفيه أهلته فحرقوه وهدموه وتفرق عنه أهلته واتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف.

وقدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة في رمضان واستغرقت هذه الغزوة خمسين يوماً أقام عشرين منها في تبوك كما تقدم والبواقي في الذهاب والإياب واستقبله أهل المدينة بنشيد:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

ولما وصل إلى المدينة بدأ عليه الصلاة والسلام بالمسجد فصلى فيه ركعتين وهذه كانت عادته عند قدمه فكان يبدأ بالمسجد ثم جلس للناس.

وجاء المخلفون يعتذرون إليه بالباطل ويحلفون له فقبل منهم ووكل سرائرهم إلى خالقهم وفيهم نزل قوله تعالى: (يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم

ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون). وأما النفر الثلاثة الذين تخلفوا وهم من المؤمنين الصادقين وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية وقد أشار الناظم إلى قصتهم بقوله (كذا) أي كما فاز عثمان بالإفناق (فاز كعب) بن مالك رضي الله عنه بـ(توبةٍ) عندما صدق وكان صادقاً فيما أخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد (طالت) هذه التوبة (مدى) أي وقتاً حيث بقي خمسين ليلة منتظراً لتوبته صابراً على ما أمر به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في شأنه وشأن صاحبيه كما سيأتي وخصه بالذكر من بين صاحبيه لأنه روى خبر قصة توبته هو بنفسه وأتت في الصحيحين وأما صاحباه فلم يروياها لذا خصه الناظم رعاها الله بالذكر وقد فاز وفازا معه صاحباه بالصدق عندما اختاروه فقد قال كعب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما سأله: "لم تخلفت ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟" فقال له: بلى والله يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلاً ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكنَّ الله أن يسخطك عليّ ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك" وكذلك قالوا صاحباه مثل قوله وقال لهم الرسول ما قاله لكعب وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصحابة أن لا يكلموا هؤلاء الثلاثة وتغير لهم الناس حتى تنكرت لهم الأرض وضاعت عليهم بما رحبت وضاعت عليهم أنفسهم وبقوا على تلك الحال أربعين ليلة وبعد أمروا أن يعتزلوا نساءهم حتى تمت على

مقاطعتهم خمسون ليلة ثم أنزل الله توبتهم بقوله تعالى: (وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم). وفرح المسلمون بتوبتهم وبشروهم وفرح الثلاثة فرحاً شديداً.

ثم آخر جيش جهزه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان في السنة العاشرة بعد حجة الوداع وهو جيش أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما وكان فيه كبار المهاجرين والأنصار وكان الجيش معداً لغزو بلاد الروم في المكان الذي قتل فيه زيد بن حارثة ومن معه.

وسبب خروج ذلك الجيش لدحر غطوسة الروم وتوفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولحق بالرفيق الأعلى قبل أن ينفذ ذلك الجيش وبعد وفاته تولى الصديق رضي الله عنه الخلافة وكان أول عمل عمله إنفاذ جيش أسامة فكان له أبلغ الأثر في إبقاء هيبة المسلمين وردع من تسول له نفسه من الأعراب وزجر من لم يرتد منهم أن يرتد لأنه قد ارتد كثيرٌ من الأعراب بعد موت الرسول عليه الصلاة والسلام.

فصل في (المعجزات النبوية)

- أي المعجزات التي وقعت على يد نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم- ثم ليعلم المطلع هنا على ما ذكره الناظم من معجزات له عليه الصلاة والسلام أنه اقتصر على بعضها وإلا فهي كثيرة جداً بحيث لا يعلم قدرها ولا يدرك قعرها. والمعجزات جمع معجزة وهي أمر خارق للعادة مقرون بدعوى الرسالة متحدى به قبل وقوعه يعجز عن الإتيان بمثله فخرج ب (خارق العادة) المعتاد، و(مقرونٍ بدعوى الرسالة) ما كان قبل الرسالة وهو خارق للعادة فهو إرهابٌ وما كان على يد ولي الله فهو كرامة أو على يد العوام فهو إعانة أو على يد فاسق فهو استدراج إن وقع على مراده وإن لم يقع على مراده فهو إهانة. وخرج ب(متحدىً به قبل وقوعه) ما وقع بلا تحدٍ أو تُحدي به بعد وقوعه. وخرج ب(يعجز عن الإتيان بمثله) السحر فإنه لا يعجز عن الإتيان بمثله. قال العامري في بجهة المحافل وبغية الأمثال: [وسميت المعجزة معجزة لعجز الخلق عن الإتيان بمثلها وهي نوعان: نوع في مقدور البشر فعجزوا عنه وتعجز الله لهم عنه دال على صدق نبيه كصرفهم عن تمني الموت وعن الإتيان بمثل القرآن على رأي مَنْ رأى أنه كان في مقدورهم وأن الله صرفهم عنه. النوع الثاني خارج عن قدرتهم كإحياء الموتى وقلب العصي حيّة وإخراج ناقة من صخرة وغيرها مما لا يمكن أن يفعله أحد إلا الله فيتحدى النبي صلى الله عليه وآله وسلم مَنْ يكذبه أن يأتي بمثله تعجيزاً له، وقد كانت معجزات نبينا صلى الله عليه وآله وسلم من النوعين معاً، وهي بكثرتها لا يحيط بها ضبط فإن واحداً

منها وهو القرآن لا يحصى عدد معجزاته بألف ولا بألفين ولا أكثر لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد تحداهم بسورة منه فعجزوا وأقصر السور (إنا أعطيناك الكوثر) فكل آية أو آيات منه بعددها وقدرها معجزة، ثم فيها نفسها معجزات. ثم معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم على قسمين: قسم منها قطعي كالقرآن فلا مرية فيه ولا خلاف بمحيء النبي به وظهوره من قبله وإنكار معانديه كإنكار وجود محمد في الدنيا. ثم إنه قد علم على الجملة ضرورة أنه صلى الله عليه وآله وسلم جرى على يديه جُمل من الآيات وخوارق العادات كما يعلم ضرورة جود حاتم وشجاعة عنزة وحلم أحنف وإن كان تفاصيل أخبارهم لا يبلغ هذا المبلغ. وقسم آخر يبلغ مبلغ الضرورة والقطع وهو على نوعين: نوع مشتهر منتشر وهو ما جرى وقوعه في المحافل والجموع المتكاثرة من الصحابة ونقله إلينا عنهم الجمل الغفير والعدد الكثير، ونوع آخر احتفل به الآحاد ولم يشتهر اشتهار ما قبله لكنه إذا جمع إلى مثله اتفقا في المعنى واجتمعا على الإتيان بالمعجز ولحق بالمشتهر المنتشر من هذا الوجه والله أعلم] اهـ

وبعدما علمت ما ذكرناه فقد (أيد الله) تعالى مدلاً على صدق دعوى الرسالة والنبوة من قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم (النبي المصطفى) على دعواه تلك (بخصالٍ) كثيرة (هنّ) أي تلك الخصال (مفتاح الهدى) لمن آمن بها ومن ثم آمن بنبوة ورسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام وهن (معجزاتٌ) في حد ذاتها (وانفعالٌ واضحٌ) حيث كانت أمراً خارقاً للعادة متحدىً بها مقرونة بدعوى الرسالة فعندها

(أرجح الميزان) أي صار راجحاً بالإيمان (فيما اعتقدا) أي فيما اعتقد من رسالته ونبوته (فظهور المعجزات) على يديه عليه الصلاة والسلام (حجة) على نبوته ورسالته (تدحض الباطل) الكفري (مهما اتحدا) في إغفالها أو حاول التقليل من شأنها أو عدم الاكتراث بها كما كان من أمر الكفار أو صرفها لكونها سحراً كما زعموا وقالوا (وهي تحمي) أيضاً (العقل من تأليهه) بكون المعجزة من عند من جرت على يديه بل هي من عند الله تعالى أجراها على يد من أراد أن يجريها عليه من رسله وأنبيائه وإلى ذلك سيشير الناظم حفظه الله لأن (عنصر الأهواء) أي أن الإنسان يجري به هواه إلى ضلال بسبب كونه فهم (فهماً جرداً) عن الحق ونحى به إلى الباطل (و) بما سبق ذكره من كون المعجزة وهي الأمر الخارق للعادة من عند الله أجراها على يد من أراد جريانها على يديه فهي (تعيد الأمر لله) أي أنها جرت بأمر الله ومن عند الله (الذي أبداع) أي خلق (الأشياء) على غير مثال سابق (ختماً) أي ختامها (وابتدا) أي وابتدائها. وقد تقدم معنا أن معجزاته كثيرة جداً وقد تقدم أننا قسمناها قسمين وأوردنا أمثلة لكل قسم (غير أن الضابط الحق لها) أي للمعجزات في القسم الثاني (سند الراوي متى ما أوردنا) أي أورد ذكر تلك المعجزة، وقد ورد كثير من المعجزات في كتب السنة ومنها أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى فقد (ورد النص بها) أي تلك المعجزات (في)

مسلم والبخاري) أي صحيح مسلم والبخاري (فظالع) ما ورد فيهما من ذكر لتلك المعجزات (تجددا) أي تجده بسنده هناك.

ومما ورد من معجزاته المذكورة بسندها في البخاري ومسلم ما ذكره الناظم حفظه الله بقوله: (نبع الماء زللاً وجري) من بين أصابعه (لمئين) أي لعدة مئات ف(نعم ماء أوردا) حتى قال العلماء: إنه أفضل المياه على الإطلاق، وقد ورد في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أنه قال: "جاءت صلاة العصر فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه فأتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بإناء فيه ماء يغمر أصابعه أو لا يكاد يغمر فوضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك الإناء يده وأمر الناس يتوضؤوا منه قال: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم قال له قتادة: كم كنتم قال: زهاء من ثلاثمائة."

وفي الصحيحين عن ابن مسعود وعن جابر قال: "عطش الناس يوم الحديبية وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ركوة فتوضأ منها وأقبل الناس نحوه وقالوا: ليس عندنا إلا ما في ركوتك فوضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، قال سالم بن أبي الجعد الجابر: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا كنا خمس عشرة مائة" وفي الصحيحين عن البراء بن عازب وسلمة بن الأكوع رضي الله عنهما "أنهم نرحوا بئر الحديبية فلم يتركوا فيها قطرة وكانت قليلة الماء لا تروي خمسين شاة فنرح صلى الله عليه

وآله وسلم منها دلواً وبصق فيه وأعادته إليها فجاشت بالماء الغزير حتى أروى الجيش أنفسهم وركابهم."

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام أنه (رد عيناً) لقتادة بن النعمان عندما جاءها سهم (فقتت في محجر) حتى سالت على خده فأخذها عليه الصلاة والسلام بيده وأعادها إلى مكانها ف(أبصرت) حتى كانت أحسن من السليمة (بعد أن كانت سدى) أي تالفة .

وروى ابن إسحاق أن قتادة بن النعمان أصيبت عينه يوم أحد حتى وقعت على وجنته فردها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكانت أحسن عينيه. وأخرجه الإمام مالك في الموطأ من حديث جابر وفيه قال . أي قتادة . : إن لي امرأة أحبها وأخشى إن رأيتني تقدرني فأخذها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده وردها إلى موضعها وقال: "اللهم اكسه جمالاً"، فكانت أحسن عينيه وأحدهما نظراً وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى. وفي ذلك يقول أحد بنيه مفتخراً :

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه فرُدَّت بكف المصطفى أحسن الردِّ
وفي الصحيحين أنه صلى الله عليه وآله وسلم تفل في عيني علي
ابن أبي طالب رضي الله عنه يوم خيبر وكان رمداً فبرأ حتى لم يكن به
وجع. وروى ابن وهب أن أبا جهل قطع يد مُعَوِّذ بن عفراء يوم بدر فجاء
يحمل يده فبصق عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلصِقت. وأتته
امرأة من خثعم بصبي لا يتكلم فتمضمض بماء وأعطاه إياها فسقته إياه
فنطق وعقل عقلاً يفضل عقول الرجال أخرجه البيهقي في الدلائل.

وسألته جارية وهو يأكل طعاماً . وكانت قليلة الحياء . يطعمها من الذي في فيه فناولها الذي في فيه . ولم يكن يمنع شيئاً يُسأله . فلما استقر في خوفها ألقى الله عليها الحياء حتى لم يكن بالمدينة أشد حياء منها أخرجه البيهقي في الدلائل .

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام الباهرات (سبح الأكل بفيه علناً) أي حتى سمع تسبيحه فقد روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قوله : " ولقد كنا نأكل مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الطعام ونحن نسمع تسبيحه " . أي الطعام . وفي رواية: ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل .

(والحصى أيضاً) سبح في كفه (فسل عنه اليدا) أي كيف سبح فيها معجزة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فعن أنس رضي الله عنه قال: " أخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كفاً من حصى فسبحن في يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى سمعنا التسبيح ثم صبهن في يد أبي بكر فسبحن ثم في أيدينا فما سبحن . "

(و) من معجزاته عليه الصلاة والسلام أنه (رمى) عليه الصلاة والسلام (الجيش) وذلك يوم بدر بكف من حصى وقال: شأهت الوجوه ثلاثاً أي قبحت وانهمزت فلم يبقَ مشرك مع كثرهم وقلة الحصى إلا ودخل في عينيه (القذى) من جراء تلك الرمية (فانهزموا) فقتل الله من قتل من صناديد قريش وأسر من أسر من أشرفهم وفي ذلك يقول تعالى: { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ } .

ومن معجزاته أنه (أطعم الألف) من الناس الطعام القليل الذي لا يكفي إلا لخمسة نفر منهم، ففي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أنه صنع للنبي صلى الله عليه وآله وسلم صاعاً من شعير وعناقاً وطلب خامس خمسة . أي أن جابراً طلب من النبي عليه الصلاة والسلام الحضور للأكل مع خمسة نفر . فنأدى . أي أمر النبي عليه الصلاة والسلام من ينادي . في أهل الخندق وكانوا ألفاً جياً فأكلوا من ذلك كلهم حتى انصرفوا قال جابر: وأقسم بالله إن برمتنا لتغط كما هي وإن عجبتنا ليخبز وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم بصق في البرمة والعجين .

وفي الصحيحين أيضاً حديث أنس رضي الله عنه أن أبا طلحة بعثه بأقراص من شعير تحت إبطه ففتها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأشبع منها ثمانين رجلاً .

وكذلك في الصحيحين حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه صنع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولأبي بكر عند قدومهما في الهجرة ما يكفيهما فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " ادع ثلاثين من أشرف الأنصار" فدعاهم فأكلوا حتى تركوه فقال: " ادع ستين" . فدعاهم فأكلوا حتى تركوه فقال: " ادع سبعين" . فدعاهم

فأكلوا حتى تركوه قال أبو أيوب: فأكل من طعامي ثمانون ومئة رجل وما خرج رجل منهم حتى أسلم وبايع .

(و) من معجزاته أيضاً أنه (أبرى الأرمدا) لما تفل في عينيه وقد تقدم ذلك في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وذلك لما دعاه عندما قال: "لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله" وذلك في يوم خيبر وتطلع إليه الناس فقال عليه الصلاة والسلام: "أين علي؟" فقيل: إنه أرمد وأتي به فتفل في عينيه فبرأ كأن لم يكن به شيء.

قال ابن حجر في شرح الهمزية: [ومن أمهات معجزاته التي لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء لظهوره . يعني انشقاق القمر . في ملكوت السماوات خارجاً عن جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع فلم يطمع أحد في الوصول إليه بحيلة] اهـ (و) قد (تحدثه قريش ليلة) من الليال بمكة قبل الهجرة بنحو خمس سنين لما كذبه كفار مكة وبالغوا في عناده فطلبوا منه آية يريها إياهم تدل على صدقه فطالبوه في تلك الليلة (في انشقاق البدر) أي القمر نصفين إن كان صادقاً (فانشق ابتداء) وبدا لهم ذلك وأصبح فلقتين، ونص على ذلك القرآن بقوله: {اقتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ}. وتواترت بذكرها الأحاديث روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . أي لمن معه من المسلمين .: "اشهدوا" وفي رواية عند أحمد: "حتى رأيت الجبل بين فرقتي القمر". فقال كفار قريش: سحرهم محمد؟ فقال رجل منهم: إن محمداً إن كان سحرهم فإنه لا يبلغ من سحره

أن يسحر أهل الأرض كلها، فاسألوا مَنْ يأتيكم من بلد آخر هل رأوا مثل هذا؟ فأتوا فسألوهم فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك فقال أبو جهل: هذا سحر مستمر.

وكما أن القمر انشق له فإن الشمس أيضاً ردت له بعد غروبها وحبست له وتقدم حبسها عن الغروب في حديث الإسراء. وأما حديث ردها بعد الغروب فقد أخرج الطحاوي في مشكل الآثار بإسنادين صحيحين أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يوحى إليه ورأسه في حجر علي رضي الله عنه فلم يصل علي العصر حتى غربت الشمس فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أصليت العصر يا علي؟" قال: لا، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك، فاردد عليه الشمس". فطلعت بعدما غربت وأشرقت على الجبال وكان ذلك بالصهباء في غزوة خيبر.

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام أنه (أخذ) أي النبي صلى الله عليه وآله وسلم (العود) أي عوداً من حطب يوم بدر وذلك لما انكسر سيف عكاشة بن محصن (فعاد) أي ذلك العود (مصلتاً في يد المختار) صلى الله عليه وآله وسلم (سيفاً أجرداً) صارماً يشهد به عكاشة المواقف بعد ذلك وكان هذا السيف يسمى العون.

ودفع صلى الله عليه وآله وسلم لعبد الله بن جحش يوم أحد عرجوناً فرجع في يده سيفاً ، والعرجون هو أصل العذق الذي يقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابساً .

(و) أما معجزته التي هي (حنين الجذع) الذي حن لفراقه عليه الصلاة والسلام فهي حادثة مشهودة ففي الصحيحين عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم قالوا: كان المسجد مسقوفاً بجذوع النخل وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا خطب يقوم إلى جذع منها فلما صنع له المنبر سمعنا له . أي الجذع . صوتاً كصوت العشار من الإبل، وفي رواية: حتى ارتج المسجد لشدة خواره وهي عند الدارمي، وفي رواية سهل بن سعد: وكثر بكاء الناس كما في الشفا، وفي رواية المطلب بن أبي وداعة: حتى انشق الجذع وجاءه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فوضع يده عليه فسكت وهي عند ابن ماجه، وزاد الإمام أحمد: فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "إن هذا بكى لما فقدته من ذكر الله تعالى"، وعند الدارمي: "وقال: والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة" ثم أمر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم فدفن تحت المنبر .

وكذلك أورد الدارمي من رواية بريدة: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له: "إن شئت أن أردك إلى البستان الذي كنت فيه تنبت لك عروقك ويكمل خلقك ويجدد لك حوض وثمر وإن شئت أن أغرسك في الجنة ليأكل أولياء الله من ثمرك"، فقال: بل تغرسني في الجنة لأكون في مكان لا أبلى فيه فسمعه الحاضرون، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "قد فعلت". ثم قال: "إنه اختار دار البقاء على دار الفناء".

وكان الحسن البصري . رحمه الله . إذا حدّث بهذا الحديث بكى وقال: يا عباد الله الخشبة تحن شوقاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما فارقتها فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه.

وهذا ما عناه الناظم حفظه الله تعالى في نظمه بعد ذكره لهذه المعجزة حيث قال إنها (أجلى آية) أي أظهر معجزة لما فيها من تكليم الجماد له عليه الصلاة والسلام واشتياقه إليه وهي (تبرز الشوق) من قلب المحب له عليه الصلاة والسلام (إذا ما انعقدا) ذلك الحب في القلب للحبيب عليه الصلاة والسلام.

ثم ذكر الناظم حفظه الله أنه اقتصر على ذكر هذه المعجزات وأن هناك (عشرات المعجزات وردت) فإن معجزاته كثيرة كما تقدم لكنه قال: (فانظر التوثيق) أي اجث عن سندها الموثق و(عما وردا) فيه.

وهذه المعجزات بحد ذاتها (حكمة الإعجاز) فيها (تبدي) أي تظهر (أملا) لسامعها لكن (لذوي) أي لأصحاب (الألباب) أي العقول تبدي لهم (درسا) من دروس صاحب السيرة حتى يرتبطوا به (وهدي) أي توثق في نفوسهم الهداية وتحقق في عقائدهم الثبات.

(فصل)

ومطالعة المعجزات في السيرة مع الإيمان بها تسوق إلى الإيمان بأصل من أصول أهل السنة والجماعة وهي الكرامات فإن المعجزات غير القرآن الكريم يمكن أن تتحقق على يد أفراد من أمتة صلى الله عليه وآله وسلم، ولا ينكر ما حصل لبعض أولياء الله من خوارق العادات لأن مذهب أهل السنة والجماعة يقول: إن كل معجزة لنبي يجوز أن تكون كرامة لولي، لأن مذهبهم مبني على أن خرق العادة لا يحيله العقل. وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة والأخبار والآثار التي ملأت الآفاق وضاعت عن حصرها الأوراق على وقوع كرامات الأولياء في كل عصر وزمان كقوله تعالى: (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أئى لك هذا قالت هو من عند الله).

وقوله تعالى: (وهزي إليك يجمع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً).
وقوله تعالى: (قال عفريت من الجن أنا آتيتك به قبل أن تقوم من مقامك)
وقوله تعالى: (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك).

ولحديث جريج، وأصحاب الغار الثلاثة، وحديث نداء الفاروق:
يا سارية الجبل ومشى العلاء بن الحضرمي على الماء، وتسليم الملائكة على عمران بن حصين وتسبيح قصعة أبي الدرداء وذلك أنه بينما أبو الدرداء يوقد تحت قدر له وسلمان رضي الله عنهما عنده إذ سمع أبو الدرداء في القدر صوتاً ثم ارتفع الصوت بتسبيح كهيئة صوت الصبي قال: ثم ندرت

فانكفتت . أي انقلبت . ثم رجعت إلى مكانها لم ينصب منها شيء فجعل أبو الدرداء ينادي: يا سلمان انظر إلى العجب ! انظر إلى ما لم تنظر مثله أنت ولا أبوك! فقال سلمان: أما إنك لو سكت لسمعت من آيات الله الكبرى.

والحاصل أنه لو لم يكن إلا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره" أي لأكرمه لكفى .
وسئل الإمام أحمد رحمه الله تعالى: ما بال الصحابة لم ينقل عنهم من الكرامات ما نقل عن بعدهم؟ فقال: لقوة إيمانهم . وسئل النووي رحمه الله تعالى: ما بال العلماء لا يظهر عليهم ما يظهر على العباد ؟ فقال: لعزة الإخلاص في العلم دون العبادة.

فصل في (الشمائيل النبوية)

عقد الناظم هذا الفصل في التعرف على شمائل الجناب المحمدي، وقد أوجب الله تعالى ذلك على أمته بقوله تعالى: (واعلموا أن فيكم رسول الله ..) وقال تعالى: (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون). فكان حقاً على جميع أفراد أمته عليه الصلاة والسلام أن يتعرفوا إلى هذا الرسول الكريم وشمائله الحميدة وذلك لعدة وجوه أختصرها من كتاب (سيدنا محمد رسول الله) للعلامة الشيخ عبد الله سراج الدين: [الوجه الأول: أن الله تعالى أمر العباد أن يؤمنوا بهذا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم فقال: (آمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير) والإيمان به صلى الله عليه وآله وسلم يتطلب من العباد أن يعرفوا فضل هذا النبي الكريم ورفعته مستواه على غيره، وما أسبغ الله تعالى عليه من الكمالات النفسية، وما أدبّه من الآداب الكريمة الرضية، وما وهبه من الخُلق العظيم والخُلق الحسن الكريم. وما أبدع فيه سبحانه من المحاسن، وجمع فيه مجامع الكمالات، فجعل جوهره الكريم عالياً على سائر الأفراد والأجناس، بحيث لا ينقاس بغيره من الناس. وكيف يقاس بغيره؟ وقد ميزه الله تعالى بمميزات الكمال، وخصّه بأكرم الخصال، وأعلاه ذروة الخُلق العظيم، وجمله في أحسن صورة وأبدع تقويم، وخصه سبحانه بأنواع الاختصاص، فرباه بعنايته ورعاه برعايته، فقال سبحانه: (ألم يجدك يتيماً فأوى. ووجدك ضالاً فهدى. ووجدك عائلاً فأغنى). وتولى سبحانه إقراءه وتعليمه، في حين أنه صلى الله عليه وآله وسلم نشأ أمياً، فقال له سبحانه: (إقرأ باسم ربك) أي لا

بدراستك ولا بثقافتك، وقال: (سنقرئك فلا تنسى)، وقال: (وعلمك ما لم تكن تعلم. وكان فضل الله عليك عظيماً).

الوجه الثاني: أن الله تعالى أمر العباد باتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال تعالى: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) فجعل سبحانه الدليل الصادق على محبته هو اتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقال تعالى: (واتبعوه لعلكم تهتدون) أي إلى ما فيه سعادتك في الدنيا والآخرة. وهذا يتطلب البحث عن أعماله صلى الله عليه وآله وسلم وعن أقواله وأحواله ويتطلب التعرف على سجاياه الكريمة وأخلاقه العظيمة ليتأسى به وليتبع في ذلك اتباعاً كاملاً شاملاً إلا فيما خصه الله تعالى به من الأحكام والأحوال.

الوجه الثالث: أن الله تعالى أوجب على المؤمنين أن يحبوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فوق محبة الآباء والأبناء والأزواج والعشيرة والتجارة والأموال، وأوعد من تخلف عن تحقيق ذلك بالعقاب، فقال سبحانه: (قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين). ولا ريب أن أسباب المحبة ترجع إلى أنواع الجمال والكمال والنوال، كما قرره الإمام الغزالي رضي الله عنه وغيره. فإذا كان الرجل يُحِبُّ لكرمه، أو لشجاعته، أو لحلمه، أو لعلمه، أو لتواضعه، أو لتعبده وتقواه، أو لزهده وورعه، أو لكمال عقله أو وفور فهمه، أو جمال

أدبه، أو حسن خلقه، أو فصاحة لسانه، أو حسن معاشرته، أو كثرة بره وخيره، أو لشفقته ورحمته أو نحو ذلك من صفات الكمال... فكيف إذا تأصّلت واجتمعت هذه الصفات الكاملة وغيرها من صفات الكمال في رجل واحد، وتحققت فيه أوصاف الكمال ومحاسن الجمال على أكمل وجوهها ألا وهو السيد الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي هو مجمع صفات الكمال ومحاسن الخصال، قد أبدع الله تعالى صورته العظيمة، وهيئته الكريمة، وطوى فيه أنواع الحسن والبهاء، بحيث يقول كل من نعته: لم يُر قبله ولا بعده مثله. الوجه الرابع: أن اطلاع الإنسان على أوصافه صلى الله عليه وآله وسلم العظيمة وشمائله الكريمة ليعطي صورة علمية تنطبع في القلب، وترسم في المخيلة كأنه قد رأى محبوبه صلى الله عليه وآله وسلم. فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يذكر لأصحابه أوصاف الرسل قبله ويقرب إليهم ذلك بأشباههم حتى إنهم يصيرون بحالٍ كأنهم قد رأوهم، وذلك أقرب سبيل للتعرف بهم، وأقرب طريق للتحبب فيهم. ولذلك كان من الواجب على المكلف أن يتعرف إلى حال هذا الرسول الكريم ومحاسنه الخلقية وكمالاته النفسية والروحية والقلبية والعقلية والعلمية وذلك لينال مقام محبته الصادقة لأن المعرفة هي سبب المحبة فكلما زادت المعرفة بمحاسن المحبوب زادت المحبة له.

الوجه الخامس: أن في ذكر شمائله صلى الله عليه وآله وسلم وسماع أوصافه ونعوته، تحيا قلوب المحبين، وتطرب أرواحهم وعقولهم، ويزداد حبهم، ويتحرك اشتياقهم.

قال العارف الكبير الشيخ أبو مدين رضي الله عنه :

ونحيا بذكرناكم إذا لم نراكم ألا إن تذاكر الأجابة ينعشنا
فلولا معانيكم تراها قلوبنا إذا نحن أيقاظ وفي النوم إن غبنا
لمتنا أسى من بُعدكم وصبابه ولكن في المعنى معانيكم معنا
يحركنا ذكر الأحاديث عنكم ولولا هواكم في الحشا ما تحركنا
ويرحم الله القائل :

أخلاقِي إن شطَّ الحبيب ورئعه وعزَّ تلاقيه وناءت منازلهُ
وفاتكم أن تنظروه بعينكم فما فاتكم بالسمع هذي شمائلهُ
صلى الله عليه وآله وسلم] ا.هـ.

فإذا عرف المكلف ما ذكرناه فإنه عليه الصلاة والسلام (كان خير الخلق) أي أفضلهم عليه الصلاة والسلام على الإطلاق ففضله عند الله عظيم ومقامه عند مولاه فخيم، كيف وهو خطيب الأنبياء إذا سكتوا وشفيع الناس إذا فزعوا، وصاحب اللواء وأول من يحرك غلق الجنة وتفتح له وآدم ومن دونه تحت لوائه يوم القيامة ولا فخر.

وكان عليه الصلاة والسلام (أحلى) الناس على الإطلاق (منظراً) قد كملت محاسنه كما قيل :

كملت محاسنه فلو أهدى السنن للبدر عند تمامه لم يخسف

وعلى تفنن واصفيه بوصفه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف
(و) أعلاهم (اعتدالاً) في جميع أعضائه (وجمالاً) في ذاته
(شوهدا) ووصفه بذلك من شاهده، روى البخاري عن أنس رضي الله
عنه أنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحسن الناس
وجهاً وأحسنهم خلقاً."

فإذا كان (يوسف الصديق) على نبينا وعليه أفضل الصلاة
والسلام (أعطي) أي قد أعطاه الله (شطر) أي نصف (ما منح) أي ما
أعطي (المختار) عليه الصلاة والسلام (من حسن بدا) أي ظهر لكل
ذي عينين، فإن الله تعالى أوجد خلق بدنه الشريف على وجه لم يظهر قبله
ولا بعده في آدمي مثله. قال ابن حجر في شرح الحمزية: [وسر ذلك أن
محاسن الذات دليل على ما بطن فيها من بدائع الأخلاق وجلائل
الصفات ونبينا صلى الله عليه وآله وسلم قد بلغ الغاية التي لم يصل إليها
غيره .. إلى أن قال: فتبين أن حقيقة الحسن الكامل كملت فيه وحده ولم
تنقسم بينه وبين غيره لأنه الذي تم معناه دون غيره ولو شورك لم يتم
معناه، وما أحسن قول بعضهم: لم يظهر لنا تمام حسنه صلى الله عليه
وآله وسلم وإلا لما طاقت أعيننا النظر إليه] اهـ

ومن الضروري بعد هذا أن نورد شيئاً مما يشير إلى كمال ذاته
وأوصافه وحسن صفاته في سائر ذاته. يقول العلامة محمد بن علوي
المالكي في كتابه (محمد الإنسان الكامل): [وقد استفاضت الأحاديث
النبوية والآثار المروية التي تدل على كمال خلخته صلى الله عليه وآله وسلم

وجمال صورته ولذلك كان من تمام الإيمان به صلى الله عليه وآله وسلم الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى قد جعل بدنه الشريف على وجه لم يظهر قبله ولا بعده خلق آدمي مثله.

وجهه الشريف

كان صلى الله عليه وآله وسلم أحسن الناس وجهاً، كأن الشمس تجري في وجهه. يقول علي رضي الله عنه: لم يكن بالمطهم ولا المكثم وكان في وجهه تدوير. والمطهم الكثير السمن والمكثم المدور الوجه أي لم يكن شديد تدوير الوجه بل في وجهه تدوير قليل. تقول عائشة: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا سَرَ تَبْرَقَ أسارير وجهه كأنه قطعة قمر. وقال أبو بكر الصديق وكعب بن مالك: كان وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كأنه دارة قمر. وقيل لأبي الطفيل صف لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: كان أبيض مليح الوجه إذا سر فكأن وجهه مرآة وكأن البدر يرى في وجهه. وقال جابر: مثل الشمس والقمر وكان مستديراً. وقد اجتمعت كلمة الصحابة الذين وصفوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أنه كان منير الوجه مشرق الحيا يتلألأ بالنور الباهر والضياء الزاهر والبهاء الظاهر. وجاء في حديث الحسن بن علي عن خاله هالة بن أبي هالة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحماً مفحماً يتلألأ وجهه صلى الله عليه وآله وسلم تلاً للقمرة ليلة البدر. ونظر إليه جابر بن سمرة ليلة مقمرة قال: فجعلت أنظر إليه وإلى

القمر فلهو عندي أحسن من القمر. وقيل للربيع بنت معوذ: صفني لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: يا بني لو رأيته لرأيت الشمس طالعة. ووصفته أم معبد فقالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضوء حسن الخلق مليح الوجه قسيماً وسيماً. وقالت امرأة من همدان حججت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقيل لها: شَبَّهيه لنا فقالت: كالقمر ليلة البدر لم أر قبله ولا بعده مثله.

الخد

أما خده الشريف فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم أسيل الخدين، والخد الأسيل هو ما فيه استطالة غير مرتفع الوجنة.

العين

أما بصره الشريف فقد وصفه الله تعالى بقوله: (ما زاغ البصر وما طغى) وثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يرى بالليل في الظلمة كما يرى بالنهار في الضوء وكان يرى من خلف كما يرى من أمام. وفي حديث ابن أبي هالة وإذا التفت التفت جميعاً خافض الطرف نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة والملاحظة من اللحظ وهو النظر بشق العين الذي يلي الصدغ. ويقول سيدنا علي رضي الله عنه: كان صلى الله عليه وآله وسلم عظيم العينين أهدب الأشفار مشرب العين بحمرة. والأهدب الكثير الهدب وهو شعر أشفار العين. وفي رواية أدعج العينين وفي رواية أشكل العينين والشكلة

الحمرة تكون في بياض العين وهو محمود محبوب وأما الشهلة فإنها حمرة في سوادها.

الرأس والجبين

وأما جبينه الكريم فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم واضح الجبين وهو معنى قول علي (صلت الجبين) وفي رواية واسع الجبين وفي رواية عظيم الجبهة وكله بمعنى واحد. وكان صلى الله عليه وآله وسلم عظيم الهامة وهو معنى قول علي: (ضخم الرأس). وكان صلى الله عليه وآله وسلم أزج الحواجب، الزج دقة الحاجبين في طول، سوابغ في غير قرن، أي أن حاجبيه طويلان تامان لكن غير مجتمعين ولا متصلين.

الأنف

أقنى الأنف وهو ارتفاع أعلاه واحديداب وسطه وسبوغ طرفه أو نتوء وسط القصبة وضيق المنخرين.

الفم

ضليع الفم أي عظيمه والعرب تمدح عظيم الفم وتدم صغيره،
مفلج الأسنان أي متباعد ما بين الأسنان، أشنب أي طيب الفم، أفلح
الثنتين براق الثنايا] اه .

والحاصل أن جملة أوصافه السنية ذكرها سيدنا الإمام علي بن
محمد الحبشي بقوله : [فليس يشابه هذا السيد في خلقه وأخلاقه بشر ،
و لا يقف أحد من أسرار حكمة الله في خلقه وخلقته على عين ولا أثر ،
فإن العناية الأزلية ، طبعته على أخلاق سنية ، وأقامته في صورة حسنة
بدرية ، فلقد كان صلى الله عليه وآله وسلم مربع القامة ، أبيض اللون
مشرباً بحمرة ، واسع الجبين حسنه، شعره بين الجمرة والوفرة ، وله الاعتدال
الكامل في مفاصله وأطرافه ، والاستقامة الكاملة في محاسنه وأوصافه ، لم
يأت بشر على مثل خلقه ، في محاسن نظره وسمعه ونطقه ، قد خلقه الله
على أجمل صورة ، فيها جميع المحاسن محصورة ، وعليها مقصورة ، إذا تكلم
نثر من المعارف والعلوم نفائس الدرر ، ولقد أوتي من جوامع الكلم ما
عجز عن الإتيان بمثله مصاقع البلغاء من البشر ، تنتزه العيون في حدائق
محاسن جماله ، فلا تجد مخلوقاً في الوجود على مثاله :

سَيِّدُ ضِحْكِهِ التَّبَسُّمُ وَالْمِشْتَمُ	سَيُّ الْهُوَيْنَا وَنَوْمُهُ الْإِغْفَاءُ
مَا سِوَى خُلُقِهِ النَّسِيمُ وَلَاغِي غِيْدُ	رُ مَحْيَاهُ الرَّوْضَةُ الْغَنَاءُ
رَحْمَةٌ كُلُّهُ وَحَزْمٌ وَعَزْمٌ	وَوَقَارٌ وَعِصْمَةٌ وَحَيَاءُ
مُعْجَزُ الْقَوْلِ وَالْفِعَالِ كَرِيمُ	الْخَلْقِ وَ الْخُلُقِ مُفْسِطٌ مَعْطَاءُ

وإذا مشى فكأنما ينحط من صلب ، فيفوت سريع المشي من غير حجب ، فهو الكنز المطلسم الذي لا يأتي على فتح باب أوصافه مفتاح ، والبدر التم الذي يأخذ الألباب إذا تخيلته أو سناه لها لاح :

حبيبٌ يَغَارُ البدر من حسن وجهه تحيرت الألباب في وصف معناه [اهـ

ولما أشار الناظم حفظه الله وأبقاه إلى أنه أعطي الحسن الكامل ولكنه استدرك في نظمه أن هذا الحسن متوج بأمرين عظيمين: الأول الهيبة والجلال والثاني النور الضيائي، ولذلك لم يفتتن به من رآه بخلاف ما ذكر في يوسف عليه السلام مع كونه أعطي نصف الحسن، لذا قال الناظم كان الله في عونه وبلغه مراده ومأموله: (ومع الحسن جلال ظاهر) وهيبة واضحة. (و) هذا (مقام باذخ) أي الهيبة والجلال وهو الذي (يُوقِي الردى) أي يوقى من رآه من الافتتان به كما هو الشأن في يوسف عليه الصلاة والسلام. يقول المهندس بن أبي هالة رضي الله عنه في وصفه: كان صلى الله عليه وآله وسلم فحماً فحماً أي ذا هيبة وجلال وقال الإمام علي رضي الله تعالى عنه: من رآه بديهته هابه. وقال غيره كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أوقر الناس في مجلسه. ودخل عليه رجل فأصابته من هيبتة رعدة فقال: "هون عليك". ويقول عمرو بن العاص عن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم: وما كنت أظن أن أملاً عيني منه إجلالاً له ولو سئلت أن أصفه ما أطق لأني لم أكن أملاً عيني منه.

والحاصل أنه عليه الصلاة والسلام أكمل الناس (خلقاً) وقد مر ذكر ذلك (و) أكملهم (أخلاقاً) قال الباجوري في شرحه على البردة في كلمتي خلق وخلق: [خلق بفتح الخاء وسكون اللام وهو الصورة والشكل، وفي خُلِق بضمهم وهو ما طبع عليه الإنسان من الخصال الحميدة كالعلم والحياء والجلود والشفقة والحلم والعدل والعفة وأمثال ذلك، فقد اجتمع فيه صلى الله عليه وآله وسلم ما تفرق في غيره من تلك الخصال وقد ذكر بعضهم أن من تمام الإيمان أن يعتقد الإنسان أنه لم يجتمع في أحد من المحاسن الظاهرة والباطنة مثل ما اجتمع فيه صلى الله عليه وآله وسلم] اهـ. فقد كانت فيه الأخلاق الحميدة والآداب المجيدة جميعها على الانتهاء في كمالها والاعتدال في غايتها وإليها الإشارة بقوله (وذوقاً) أي مع كماله في الذوق فإنه عليه الصلاة والسلام من كمال هيئته لا يستطيع الصحابة إمعان النظر إلى وجهه الشريف بل إن من جلس منهم إليه هابه وربما أخذته الرعدة من الهيبة الأحمديّة ولذلك كان يباسطهم ويلاطفهم ويمازحهم. فقد جاء عن قبيلة بنت مخزّمة أنها قالت: لما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متخشعاً في جلسته وهو قاعد القرفصاء أرعدت من الفَرْق. أي الخوف. فقال رجل يا رسول الله: أرعدت المسكينة قالت قبيلة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم ينظر إلي وأنا عند ظهره: "يا مسكينة عليك السكينة"، فلما قالها أذهب الله ما كان دخل قلبي من الرعب.

(و) ما ذكرناه من كمال خلقه وأخلاقه عليه الصلاة والسلام لم يزل عليه الصلاة والسلام في (ارتقا) في هذه الأخلاق (في مقام العز) أي بعدما نال شرف الرسالة والنبوة مع أنه عليه الصلاة والسلام قد كان (مفطوراً الهدى) أي أن أخلاقه قد فطره الله عليها وقد أوضح ذلك الإمام بحرق في حدائق الأنوار ومطالع الأسرار فقال: [وكان صلى الله عليه وآله وسلم مجبولاً عليها في أصل خلقته مطبوعاً عليها في أول فطرته بالجود الإلهي والتخصيص الرحماني، ثم ازداد كمالاً بتراصف نفحات الكرم وإشراق أنوار المعارف والحكم وطلوع شمس النبوة والرسالة واتساق بدر الخلة والمحبة إلى ما لا يحيط به الوصف ولا يدركه الوهم ولا يعلمه إلا مانحه ومسديه ومعيد الفضل ومبديه] اهـ

(واكتمال الحسن) كما تقدم (فيه) عليه الصلاة والسلام (ملحظ) أي مدرك يدركه من وقف إليه من أهل محبته وهو أن ذلك ناشئ (عن كمال أحمدى) في خلقه وأخلاقه حباه الله إياه دون سائر خلقه (فرداً) به فأصبح فرداً لا يماثله أحد منفرداً في نيل ما أولاه الله من كمال في ذاته وأوصافه عليه الصلاة والسلام وأشار الناظم إلى الملحظ الثاني أو الأمر الثاني الذي من أجله لم يفتتن أحد بالنظر إليه صلى الله عليه وآله وسلم كما قدمنا وهي النورانية التي كساه الله بها وإليها إشارة الناظم في قوله (واكتمال الحسن) وهذه النورانية أصلية فيه صلى الله عليه وآله وسلم وهي أول ما خلق من الأنوار في الأكوان كما جاء في الحديث الذي

أخرجه عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما قال قلت يا رسول الله بأبي وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله قبل الأشياء، قال: "يا جابر إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم من نوره".

ومن كمال أخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم أنه (لم يكن في السوق صخباً) والصخب شديد الصياح وارتفاع الصوت للخصام. (و) من كمال أخلاقه أنه (لا يرنو) أي لا يتطلع (لفحش في مقال أبدا) أي لم يفحش في كلامه أبداً.

قال القاضي عياض في الشفاء: [قالت عائشة رضي الله عنها في الصحيح: لم يكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فحاشاً ولا متفحشاً ولا سخاباً في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح، والفاحش الذي في كلامه فحش والمتفحش الذي يتكلف ذلك ويتعمده.

وروى البخاري عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في التوراة فقال: أجل إنه صلى الله عليه وآله وسلم لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمم أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بغظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح به أعيناً

عمياء وآذاناً صماء وقلوباً غلفاء)، والصخب والسخب . بالصاد والسين .
الصياح واضطراب الأصوات للخصام] اهـ.

ومن أخلاقه الكريمة العظيمة أنه (خجل يبغي حياء) والخجل والحياء هنا بمعنى واحد وهو رقة تعتري وجه الإنسان عند فعل ما يتوقع كراهيته، وهو في حد ذاته خلق يبعث على اجتناب القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق، والإغضاء التغافل عما يكره الإنسان بطبيعته.
إذاً فهو عليه الصلاة والسلام يبغي حياء (إن رأى) أي إذا ما رأى (ما يعاب) فعله أو سمع ما يعاب استماعه (أو ينافي الرشدا) أو كان ذلك الفعل أو القول مما ينافي العقل لقبحه.

والحاصل أن الحياء يحمل صاحبه على فعل الكمال ويمنعه من النقصان وقال صلى الله عليه وآله وسلم: "الحياء لا يأتي إلا بخير". وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعظم الناس حياءً لأنه أعظمهم إيماناً وقد قال عليه الصلاة والسلام: "الحياء من الإيمان". وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها". وفي رواية البخاري: "وإذا كره شيئاً عرف في وجهه صلى الله عليه وآله وسلم" ولقد بلغ من حيائه عليه الصلاة والسلام أنه لم يواجه أحداً بما يكره بل يعرض بذلك أو يأمر بعض الصحابة من يصارح بذلك الأمر الرجل المقصر.

روى أبو داود والترمذي وغيرهما عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يواجه أحداً في وجهه بشيء يكرهه

فدخل عليه يوماً رجل وعليه أثر صفرة فلما قام قال لأصحابه: "لو أمرتم هذا أن يغسل الصفرة".

وروى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل ما بال فلان ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا.

(و) من أخلاقه الشريفة (إذا ما انتهك الدين) أي حرمة الدين والمراد بها محارم الله تعالى (بدا) أي ظهر (غاضباً) وكان غضبه لله تعالى (حتى يعود الاهتدا) أي حتى يعود الحق ويرتفع الذي أغضبه في ذات الله تعالى فإنه صلى الله عليه وآله وسلم يغضب لله تعالى ويرضى لرضاه، ولم يكن تُغضبه الدنيا ولا ما كان لها ولم يكن يغضب لنفسه بل كان يغضب لربه تعالى. وقد جاء في حديث هند بن أبي هالة الذي رواه الترمذي وغيره يصف النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لا تغضبه الدنيا وما كان لها فإذا تعرض للحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ... الحديث.

ومن تتبع الأسباب التي يغضب من أجلها يجدها كلها ترجع إلى كون غضبه كان لله تعالى وانتصاراً لدين الحق الذي شرعه الله تعالى. [فمن ذلك: غضبه صلى الله عليه وآله وسلم حين رأى في البيت قراماً فيه الصور كما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفي البيت قرام. أي ستر. فيه صور فتلّون وجهه صلى الله عليه وآله وسلم. أي من الغضب. ثم تناول الستر فهتكه، قالت:

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "من أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يصورون هذه الصور".

ومن ذلك: غضبه صلى الله عليه وآله وسلم من العمل الذي ينفر المؤمن كما في الصحيحين وغيرهما عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: أتى رجل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا . أي يطيل الصلاة بنا . قال أبو مسعود: فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قط أشد غضباً في موعظة منه يومئذٍ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: "يا أيها الناس إن منكم منفرين، فأياكم ما صلى بالناس فليتجاوز . أي فليخفف . فإن فيهم المريض والكبير وذا الحاجة".

ومن ذلك: غضبه صلى الله عليه وآله وسلم لما رأى النخامة في قبلة المسجد كما في الصحيحين وذلك لأن المساجد ينبغي أن يحرص المسلم على نظافتها وكرامتها، ولا يجوز إلقاء الوسخ فيها والنخامة كما تقدم في أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنظافة المسجد [اه محمد رسول الله للعلامة عبد الله سراج الدين].

(و) مع شدة الغضب التي تعتريه إذا انتهكت محارم الله تعالى إلا أنه (يسود الحق) أي لا يخرج الغضب عن الحق والصواب لكونه عليه الصلاة والسلام (مكفولاً) أي تكفل الله بحفظه من أن يقع منه شيء يخالف فيه الحق سواء أكان في حالة الرضا أو الغضب وإلى ذلك أشار الناظم بقوله (على عزة في الله) أي رفعة من الله (تحمي الجسدا) أي

إن الله تعالى حماه عليه الصلاة والسلام في حالة غضبه من أن يخرج عن الحق أو عن كمال الاعتدال في جميع أمور القولية والفعلية لأن الغضب ذلك لا يغير مزاجه ولا يضطرب فيه شيء من أعضائه فقد روى أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمع من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أريد حفظه فتنهاني قريش وقالوا أتكتب كل شيء تسمعه . أي من رسول الله عليه الصلاة والسلام . ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتابة فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فأوماً بأصبعه إلى فيه . أي فمه . فقال: " اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق" . وفي رواية الدارمي: فقال: " اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق" .

وهو صلى الله عليه وآله وسلم (مضربُ الأمثال في الحرب) أي أن من كمال أخلاقه أن ضرب المثل الأعلى في الشجاعة في الحروب، قال سيدنا علي رضي الله تعالى عنه في وصفه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أجود الناس صدرًا وأشجعهم قلبًا وأصدقهم لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة، وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا أملت بهم الملمات وأحاطت بهم المخاوف لاذوا بجنايه الرفيع واحتموا بحماه المنيع صلى الله عليه وآله وسلم، يقول سيدنا علي رضي الله تعالى عنه كنا . أي معشر الصحابة . إذا حمي البأس . وفي رواية: إذا اشتد البأس . واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فما يكون أحد أقرب من العدو منه ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ

بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذٍ بأساً على الأعداء.

وفي صحيح مسلم أن البراء بن عازب كان يقول: الشجاع هو الذي يقرب من النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا دنا العدو . أي من المسلمين عند المقاتلة . لقرينه صلى الله عليه وآله وسلم من العدو . أي في شدة المعارك . . ولقد ثبت يوم حنين وثبتت قلوب أصحابه لما انكشفوا وتقدم نحو صفوف العدو وهو على بغلته غير مبال ولا هيب ويقول بكل جرأة وثبات : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب .

وروى البيهقي في الدلائل عن عروة بن الزبير أن أبي بن خلف المشرك قال يوم أحد: أين محمد؟ لا نجوت إن نجا وقد كان أبي يقول للنبي صلى الله عليه وآله وسلم حين افتدى يوم بدر: عندي فرس أعلفها كل يوم فرقاً . أي مكياً كبيراً . من ذرة أقتلك عليها فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "أنا أقتلك إن شاء الله". فلما رأى أبي النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد شد أبي بن خلف على فرسه على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاعترضه رجال من المسلمين فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هكذا . أي تنحو ولا تحولوا بيني وبينه . وتناول النبي صلى الله عليه وآله وسلم الحربة من الحارث بن الصمة الصحابي فانتفض النبي صلى الله عليه وآله وسلم بها انتفاضة . أي قام بالحربة قومة سريعة . تطايروا . أي أبي بن خلف ومن معه من الكفار تفرقوا بسرعة كالطيور . تطاير الشعراء . أي الذبابة عن ظهر البعير إذا انتفض . ثم

استقبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبي بن خلف بالحرية فطعنه في عنقه طعنة تدأداً . أي سقط . منها عن فرسه مراراً وقيل بل كسر ضلع من أضلاعه فرجع أبي بن خلف إلى قريش وهو يقول: قتلتني محمد وهم يقولون: لا بأس بك فقال لهم: لو كان ما بي . من الألم والشدة . بجميع الناس لقتلهم أليس قد قال: أنا أقتلك! والله لو بصق عليّ محمد لقتلني، ثم مات أبي بن خلف بسرف في قفولهم إلى مكة أي حين رجع الكفار إلى مكة.

و(كذا) أي وكما هو مضرب الأمثال في الحرب فهو (مضرب الأمثال) في الشجاعة (في) حال (السلم ندى) أي في الكرم والسخاء والجلود، قال أنس رضي الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس، ولقد فرغ أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت واستبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عري والسيف في عنقه صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول: "لن تراعوا" رواه الشيخان. بل لما كملت أخلاقه واستقامت صفاته وخلقه الله تعالى على أحسن صورة وأكرم أخلاق (قال فيه الحق) جل جلاله (وهو وصفه) له بقوله (لعلی خلق عظیم یقتندی) به في جميع أخلاقه عليه الصلاة والسلام. يقول الإمام ابن حجر في المنح المكية: [ولما اجتمع فيه صلى الله عليه وآله وسلم من خصال الكمال، وصفات الجلال والجمال، ما لا يحصره حد، ولا يحيط به عد، أنى الله عليه في كتابه الكريم فقال . عز قائلاً

:: (وإنك لعلى خلق عظيم) فوصفه بالعظيم، وزاد في المدحة بإتيانه (بعلی)، المشعرة بأنه صلى الله عليه وآله وسلم استعلى على معالي الأخلاق، واستولى عليها فلم يصل إليها مخلوق غيره، ووصف بالعظم دون الكرم الغالب وصفه، لأن كرمه يراد به السماحة والدمائة، وخلقته صلى الله عليه وآله وسلم غير مقصور على ذلك، بل كما كان عنده غاية الرحمة للمؤمنين، عنده غاية العظيمة والشدة على غيرهم، فاعتدل فيه الإنعام والانتقام، ولم يكن فيه همة سوى الله تعالى، فعاش الخلق بخلقته، وباينهم بقلبه. ومن ثم ورد بسند فيه ضعف: "إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق، وكمال محاسن الأعمال". وفي رواية الموطأ: "بإنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". فكل خلق حميد اندرج تحت خلقه، ومن ثم قالت عائشة: "كان خلقه القرآن". قال السهورودي: رحمه الله تعالى ونفع به في عوارفه: في قولها ذلك رمز غامض، وإيماء خفي إلى الأخلاق الربانية فاحتشمت من الحضرة الإلهية أن تقول: كان متخلفاً بأخلاق الله، فعبرت عن المعنى بقولها: "كان خلقه القرآن". استحياء من سُبُحات الجلال، وسترًا للحال بلطف المقال، وهذا من وفور عقلها، وكمال أدبها، انتهى.

وقال بعض العارفين: لما كان خُلُقه أعظم خُلُق، بعثه الله تعالى إلى جميع العالمين. وعلم من كلام عائشة. رضي الله عنها. أن كمالات خُلُقه لا تتناهى، كما أن معاني القرآن لا تتناهى، وأن التعرض لحصر جزئياتها غير مقدور للبشر، ثم ما انطوى عليه صلى الله عليه وآله وسلم من كريم الأخلاق، لم يكن باكتساب ورياضة، إنما كان في أصل خلقته بالجود

الإلهي والإمداد الرحماني. الذي لم يزل يسري أنواره في قلبه إلى أن وصل إلى أعظم غاية وأتم نهاية.

واعلم أن كمال الخلق إنما ينشأ عن كمال العقل، لأنه الذي به تقتبس الفضائل، وتجتنب الرذائل، والعقل لسان الروح، وترجمان البصيرة، فهو جوهر الإنسان ولكن جوهره البصر] اهـ

ومن أخلاقه العظيمة التواضع: فكان صلى الله عليه وآله وسلم له المثل الأكمل في التواضع مع علو مقامه وشرف جنابه، ويتجلى تواضعه في سائر أحواله الخاصة والعامة وجميع أموره. فكان من تواضعه أن يخدم نفسه بنفسه قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخيظ ثوبه ويخصف نعله ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم.

ومن تواضعه أنه كان يركب الحمار ولا يخص نفسه بركوب الخيل، روى الترمذي وغيره عن أنس رضي الله عنه أنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعود المرضى ويشهد الجنائز ويركب الحمار ويجيب دعوة العبد.

ومن تواضعه عليه الصلاة والسلام مشيه مع الأرملة والمسكين والأمة، روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان في عقلها شيء فقالت: إن لي إليك حاجة فقال صلى الله عليه وآله وسلم: "اجلسي في أي سلك. أي طرق المدينة اجلس إليك أفضي حاجتك".

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: إن كانت الأمة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتنتلق به حيث شاءت. ومن تواضعه ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يبعث إلى المطاهر فيؤتى بالماء فيشربه يرجو بركة أيدي المسلمين. رواه الطبراني والمراد بالمطاهر الحياض والفساقي والبرك المعدة للوضوء كما قاله المناوي.

ومن تواضعه أنه (يستجيب إن دعاه أحد) أي يلبي دعوته ولو عبداً و (لو يكن) المدعو عليه (فرسن شاة) أي ظلفها (للغدا) أي ذلك الطعام.

فقد ورد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "لو أهدى إلي كراع لقبلت ولو دعيت عليه لأجبت". رواه أحمد والترمذي وابن حبان.

وما رواه أيضاً قال: "كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة فيجيب." رواه الترمذي، والإهالة بكسر الهمزة هي كل دهن يؤتدم به أو يختص بدهن الشحم أو هي الدسم الجامد.

ومن تواضعه أيضاً أنه (لم يعب أكلاً ولا شرباً) قدما له بل إن أراده أكله أو شربه وإن عافه تركه.

ومن كمال أخلاقه عظيم كرمه صلى الله عليه وآله وسلم فقد كان عليه الصلاة والسلام أجود الناس. روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: ما سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً إلا أعطاه فجاءه

رجل . وهو صفوان بن أمية . فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى قومه فقال :
يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر . وكان من جوده
عليه الصلاة والسلام أنه ما سأله سائل ما عنده إلا أعطاه حتى لا يبقى
عنده شيء صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان من كرمه صلى الله عليه وآله
وسلم إن لم يكن عنده ما يفي بحاجة المحتاج أمره أن يستقرض عليه صلى
الله عليه وآله وسلم (و) من شدة سخائه وجوده وكرمه (لا) يؤثر عنه أنه
(ردُّ محتاجاً) قط روى الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن
رجلاً أتى إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسأله أن يعطيه فقال النبي
صلى الله عليه وآله وسلم : " ما عندي شيء ولكن اتبع عليّ فإذا جاء لنا
شيء قضيته " . فقال عمر : يا رسول الله قد أعطيتهم فما كلفك الله ما لا
تقدر عليه فكره صلى الله عليه وآله وسلم قول عمر ، فقال رجل من
الأنصار : يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً فتبسم رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم وعرف في وجهه البشر بقول الأنصاري ثم
قال : " بهذا أمرت " . ولذلك فإنه إذا سأله سائل أن يعطيه شيئاً أعطاه إياه
(ولو يعطي الردا) الذي يرتديه إذا سأله السائل إياه ، فقد روى الترمذي
عن جابر رضي الله عنه قال : ما سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
شيئاً قط فقال : لا .

والحاصل من جميع ما مر أن أخلاقه عليه الصلاة والسلام لا
تتناهى بل (كانت الأخلاق) الكريمة (منه) عليه الصلاة والسلام (شيمة)
أي سحية وجبلة جبلة الله عليها ولذلك قال الناظم حفظه الله (وبها) أي

بتلك الأخلاق (المولى له قد أيدا) أي أيده بها لفضله وشرفه فإن أخلاقه ذاتية لا مكتسبة أي من أصل خلقتة عليه الصلاة والسلام لذا (قال طه) عليه الصلاة والسلام مبيناً ذلك (إنما أدبني سيدي مولاي ربي وهدا). فمن أجل ذلك (هذه الأخلاق) المحمدية هي (نهج أمة) أي لا بد أن تنتهجها الأمة لأنها مأمورة بالافتداء به فإذا ما تخلقت بأخلاق نبيها أي هذه الأمة (كتب الله لها) أي للأمة (أن تُسعدا) أي تعيش في هذه الحياة سعيدة وفي الآخرة تكون حميدة فهي أي هذه الأمة (إن أرادت عزها) وسؤدها (يعلو بها) أي يرتفع بها على غيرها من الأمم (فهي أولى بالسلوك المقتدى) أي فالأولى لها إن أرادت ذلك أن تسلك وتقتدي بأخلاقه وتتخلق بأفعاله وصفاته عليه الصلاة والسلام وتنتهج ذلك في سائر ميادين حياتها فهو القدوة لها عليه الصلاة والسلام، وما أحوج الأمة في هذه الأيام أفراداً وجماعات إلى انتهاج منهجه والسير بهديه والتخلق بأخلاقه.

وبهذا تم ما أردت تعليقه على هذه المنظومة المباركة في السيرة النبوية والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وله الحمد في المبدأ والمنتهى، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله تعالى بالمحامد الوافرة، من القلوب المخلصة الشاكرة، على نعمه السابقة المتواترة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الدنيا والآخرة، وعلى آله وصحبه ذوي المآثر الفاخرة، ما سار سائر في الله ودارت الدائرة. (أما بعد) فلقد تصفحت الكتاب القيم (غيث السحابة المطرة شرح الحديقة النضرة في نظم السيرة العطرة) تأليف الأخ اللوذعي المرشد الرباني الشيخ محمد بن علي بن محمد باعطية الدوعني، فرأيته وافياً بالمقصود، وأنه جمعه ورتبه ترتيباً جذاباً، في ثوب قشيب، وأسلوب سلس، ينتفع به السالك والواصل، ويجني من جناه الوارد والصادر، ومثل هذا الجهد من الشيخ باعطية، ديدنه المشكور، ومن مساعيه المحمودة الدائبة، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً، ورزقه توفيقاً مسدداً وإثماراً.

وأما السيرة نفسها التي نظمها أخونا الداعية العلامة القدير سيدنا أبوبكر العدني بن علي بن أبي بكر المشهور فقد أتى بالعجاب، وحظي بالإجادة والصواب، وأتى البيوت من أحسن الأبواب، قرت بها أعين الأحابب وانشرحت بها صدور أولي الألباب، فهي المنظومة الجديرة بالاهتمام قراءة ونشراً، والاعتناء بها توضيحاً وشرحاً، فجزى الله كليكما عنا أفضل الجزاء، كما جزى عباده المخلصين الأوابين، ودمتم موفقين ولوحظتم بالملاحظة من مولاكم وعافاكم آمين.

وجاءتني بدون إعمال الروية على ما هي عليها هذه الأبيات

حديقة نضرة	في السيرة العطرة	عرّفت النكرة	بهمة العدني
أوضحها الدعني	فهو بها يجتني	ولم يزل يعتني	بالخير ليس يني
ذا مورد قد صفا	في سيرة المصطفى	متناً وشرحاً شفى	وترياقها اللدني
قطوفها دانيه	أسرارها جاليه	في درة عاليه	لمن بتلك غني
مشهورياً ابن علي	حزت المقام العلي	رعاك ربي الولي	وقيت كل دنني
بل كلكم ناسج	وكسبكم رابح	ومجدكم طافح	من غاص فيه غني
والبيض مرتجلا	أن حل مرتجلا	قد فاه منتخلا	ذا الشعر كيف بني

بتاريخ أول محرم سنة 1427 هـ الغناء الإسلامية كينيا
ص.ب 5013 مالندي، وأنا بجدة المحروسة.
بقلم محمد بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن سالم البيض
باعلوي

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم على نعمائك، ونصلي ونسلم على خاتم أنبيائك،
ونسألك التوفيق والإخلاص في العمل.

أما بعد، فقد تشرفت بمطالعة هذا السفر الجليل، وأمتعت
الفكر والنظر بالسير في هذه الحديقة النظرة وما ينهمر
عليها من غيث السحابة المطرة، مطلقاً العنان في التنزه بين
أشجارها الباسقة وثمارها اليانعة، وأزهارها العطرة، كيف
لا وهي تروي سيرة خير البشر وأفضل الخلق وجوداً
وأشرفهم مولوداً.

وإنه لمن حسنات الزمان و تنفساته أن يبرز من يعيد إلى
الأذهان سيرة وقصة مولد سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة
والسلام، بأسلوب شيق رطب، ونظم سلس عذب، تطرب
لسماعها الأذان ، وتتجلي عن القلب الصدا والأدران، وهي
من الأعمال الخالدة على مر الدهور والأزمان، لا يمل
سامعها ولا يكل قارئها. ونحن في زمان أحوج ما نكون فيه
إلى سماع سيرة المصطفى عليه أفضل الصلاة والتسليم،
واقْتفاء أثر هذا الرسول العظيم، والمشرّع الأول والنور
المبين. فقد تكالبت علينا الأمم، وأصبحنا غناء كغناء السيل،
ولا منقذ ولا هادي سوى العودة إلى سيرة خير البشر وما
جاء به من التعاليم الشرعية والأحكام السماوية.

ومن بركة وإخلاص واضعها أن قيض الله لها أستاذنا
الجليل الشيخ محمد باعطية فانبرى لشرح معانيها، وفك ما
غمض من ألفاظها ومبانيها، استفاض فيما اقتضت ضرورة
الشعر اختصاره، وأمسك فيما لا يلزم شرحه وإظهاره، جمع
وأصل وأجمل وفصل مع عنوبة في الأسلوب ورقة في

العبارة وسلاسة في اللفظ مما ينبئ عن اتحاد المشرب بين صاحب المتن والشارح، أجزل الله لهما الثواب.

وإني والله قد جمعت يدي منها على جملة من الفوائد السننية، وهزت مشاعري تلك الملاحم النبوية، ولولا النفوس الجافية، والعقول الجامدة، لتحركت منا الأرواح، وانزعجت الأنفس، و لكان من خبرها ما كان، ولكنها صيحة في واد ونفخة في رماد.

وقد وعيت من سيدي وشيخي الحبيب أحمد مشهور الحداد رحمة الله عليه، كلمات قالها يخاطب بها من يتعرض لكتابة قصة المولد الشريف يشير بها إلى ضرورة أن تكون العبارة سهلة المبني والمعنى، تصل إلى قلب السامع قبل عقله، تصقلها الألسن ويدوم بها النفع وتعم بها الفائدة، كما تحضرني طرفة سمعتها من شيخنا وأستاذنا الحبيب محمد بن شيخ المساوى، وهي أنه وضع تأليفاً في قصة المولد الشريف وأراد من أولاده وتلاميذه المنتسبين إليه أن يعمموا نشره وقراءته في المناسبات، فقال له أحد الحاضرين: [إذا بغيت المولد ينتشر ويعم أقم له العزومات والولائم حتى تصقله الألسن ويعتاده الناس]. وكذلك فقد ختم قصة المولد بذكر وفاة النبي، فأجهش الناس بالبكاء، والمقام مقام فرح وسرور بمولد، فبادر إلى طرحه.

ولولا أن شهادتي مجروحة، لفرط إعجابي بصاحب المتن والشارح، لدبجت آيات الثناء والمدح والشكر والعرفان في الشيخين الجليلين، ولكني أذهب فيما ذهب فيه أهلي وسلفي من قصر الثناء والمدح على من اختاره الله لجواره، وحسنت خاتمته، إذ الأمور بخواتيمها.

وأستغفر الله، فلست أهلاً للتقريض، وإنما عرفاناً بالجميل،
يأتي من ناقص معترف بالتقصير، ركن إلى الدعة وقت
التشمير، وأقام عندما جد الناس في الاضعان والمسير، فلم
يدرك العير ولم يلحق بالنفير
نسأل الله الصديق في القول والعمل إنه كريم جواد .

كتبه الفقير: عبد الرحمن بن علوي السقاف.

أهم المراجع:

1. فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني.
2. المنح المكية في شرح الهمزية لابن حجر الهيتمي.
3. سيرة ابن هشام.
4. السيرة الحلبية.
5. صفة الصفوة لابن الجوزي.
6. بهجة المحافل للعامري.
7. شرح ابن الأشعر على بهجة المحافل.
8. الشفا للقاضي عياض.
9. السيرة النبوية والآثار المحمدية للسيد أحمد زيني دحلان.
10. محمد رسول الله للعلامة عبد الله سراج الدين.
11. العبر والعظات للعلامة الوشلي.
12. الرحيق المختوم للمباركفوري.
13. شرح الباجوري على البردة.
14. حدائق الأنوار ومطالع الأسرار للإمام بحرق.
15. محمد الإنسان الكامل للسيد محمد علوي المالكي.
16. البيان والتعريف في ذكرى المولد النبوي الشريف للمالكي.
17. سمط الدرر للإمام علي بن محمد الحبشي.
- 18- زاد المعاد لابن القيم.